

. التيطري، مصطفى بن محيي الدين ثم محمد البركاني.

. مجانة، محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي.

. بسكرة، فرحات بن سعيد ثم الحسين بن عزوز.

. برج حمزة، أحمد بن سالم الدبنيسي.

. المنطقة الغربية من الصحراء، قدور بن عبد الباقي.

وبعد استيلائه على إقليم التيطري والسيطرة عليه وسط الترحيب العام قسمه إلى أربع مناطق أتبعها بمدينة المدية، وولى عليها أخاه السيد الشريف مصطفى بن محيي الدين، ثم أنشأ ديوان الإنشاء والتعمير وولى عليه السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي وقسم الولايات إلى دوائر، ووضع على كل دائرة رئيساً، وهذه الدوائر عبارة عن قبائل تشكل كل منها من بطون وعشائر، فجعل لكل قبيلة قائداً وعلى كل بطن أو عشيرة شيخاً يرأسها فكانت الأوامر تصدر إلى كل هذه المراتب عن طريق التسلسل وكان المشايخ يرفعون القضايا المهمة إلى القيادة العليا، وهذه بدورها ترفعها تسلسلاً حتى تصل إلى ديوان الأمير.

ونجح الأمير في ربط البلاد بإدارة شرعية تتمتع بالكفاءة والنزاهة والاستقامة فأبعد أكثر الرؤساء الذين اشتهروا بالبطش إبان الحكم العثماني واختار معاوية من ذوي الأخلاق الحميدة، وأخذ يعتمد على كل من يتمتع بالعلم والشرف والفضيلة ولم يولّ أحداً محاباة ولا سلمهم زمام الأمور إلا بعد أداء القسم المقدس.

وكان يتم تعيين العاملين في الدولة وفق مراسيم خاصة تُحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، ويوضع عليها خاتم الدولة وهو خاتم كبير نقش عليه في الوسط هذا البيت:

من تكن يرسل الله نصرته

إن تلقه الأسد في أكامها نجم

ونقش على الجوانب: الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، وفي دائرة صغيرة داخل الخاتم نقش "ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين" والتاريخ الهجري ١٢٤٨ هـ لم يعتمد الأمير على تقاليد في الحكم نقلاً عن سبقه، بل أقام حكومة ذات طابع جزائري جديد وتمكن من وضع تنظيمات إدارية وقضائية وعسكرية واقتصادية لدولته الفتية، وعلى الرغم من أن القبائل التي تتكون منها دولته كانت تتنافس فيما بينها إلا أنه كون منها ما يشبه "فيدرالية ذات ثماني ولايات" يحكمها قانون موحد وتخضع لنظام واحد ولسيادة واحدة وقد وضع نظاماً عملياً يتلاءم مع حقائق القرن التاسع عشر وظروفه التي تقضي بإيجاد دولة حديثة وأهم المبادئ التي تسلحت بها دولة الأمير العدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام الكرامة الإنسانية وسيادة القانون، واحترام النظام وحب الجهاد وكرهية المستعمر وقد استمدت مفاهيم هذه القيم من الإسلام.

واهتم الأمير بمفهوم دولة المواطنة وتسلحت دولته بمبدأ المساواة حتى بينه وبين مواطنيه أو بين المواطنين والحكام، وكان للقضاة وحدهم حق إصدار الأحكام، والسكان جميعاً لهم الحق في التقاضي وطبقت المساواة حتى بين أفراد القبيلة ورئيسها ونجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية^١.

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يثير الجزائريين بخطابه الوطني الذي ترددت فيه عبارات: بلادكم، أرضكم، دينكم، نساؤكم، وحذر من هذا العدو الفرنسي الذي يريد أن يغلق الأعناق وأن يعتدي على الشرف وتوجه إلى كل القبائل وكل الزوايا وكل الجهات وتجاوز خطابه بني فلان وبني فلان إلى الشعب إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماءهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي وربما لم تعرف الجزائر قائداً من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل، فقد كان تحرك الأمير عبد القادر كرجل دولة وطنية لا كرجل طريقة أو

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ص: ٤١.

قبيلة أو جهة، لقد بذل جهوداً عظيمة في جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك من خلال ادارة منظمة وحكومة رشيدة، وجيش مجهز وتعبئة عامة لكل مواطنيه وكان يهتم بالمواطن المعطي الفاعل في بناء الدولة والتصدي للغزاة وكان يقول لا تسألوا عن أصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو، فإذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة فلأنها جاءت من نبع صاف ١.

لقد امتدت سلطة الأمير عبد القادر منذ ١٨٣٨م لتشمل الأغلبية العظمى من البلاد، وإذا كان الفرنسيون مازالوا يحتلون جزءاً من التراب الوطني، فإن العمل الذي أنجزه الأمير في بضع سنين قد كان عظيماً ويبدو وشيكاً على بلوغ غايته، لم يصبح الأمير السيد بلا منازع ولا شريك على الجزء الأكبر والأوفر ثروة وسكناً في البلاد فحسب، لكن القبائل التي كانت مشتتة متنافرة سابقاً قد أصبحت الآن موحدة تحت ظل لواء واحد، وسلطة قوية ومركزية لم يسبق لها مثيل تضمن أمن الأشخاص والممتلكات في كل مكان، بفضل قضاء فعال ومنصف بالنسبة للجميع وفي وجود جيش عصري يضمن حماية التراب ومستعد لمواجهة كافة الاحتمالات وقد توجت كل الجهود الرامية إلى عصرنة البلاد وتوحيد الشعب الذي خرج من الفوضى التي تركته فيها القرون العقود الماضية وكللت بنجاح بفضل عبقرية الأمير، وتفانيه في خدمة المصلحة العامة، هو ومن معه من الرجال الذين أحسن اختيارهم صحيح أن العمل لم يكن قد اكتمل لكن قوامه وأساسه كان قد أنجز ٢، وقد كانت تلك الجهود المباركة نواة قوية للدولة الجزائرية الحديثة.

٤. معايير تعيين موظفي الدولة ومناصبهم:

كان يتم اختيار موظفي الدولة من أبناء الشعب الجزائري وزعماء القبائل، والأعيان، والعلماء، وأصحاب المكانة المرموقة من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية والقيادية، كان كل موظف في الدولة ابتداءً من أسمى موظف وهو الخليفة إلى أبسط

١ فارس الجزائر، ص: ٢٣٦.

٢ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١١١.

الشيوخ، يملك في نطاقه كامل السلطة الإدارية والعسكرية والمالية على قمة السلم كان الخليفة بتفويض من الأمير الذي كان يمثل ويملك السلطة المطلقة في ولايته التي يقود جيشها في وقت الحرب ويتحكم في آغاتها وقيادتها وشیوخها، وكان يحكم في القضايا التي تتعلق بالدولة وقضايا الاستئناف ضد أحكام وقرارات الآغات، وقد كانت تتجمع عنده الضرائب التي يرفعها الآغات والقيادة والشيوخ ومدة خدمته غير محددة لأنه كان يختار لكفاءته وإخلاصه وقد تبين أنهم جميعاً أهل لثقة الأمير، فلم يخن أي منهم هذه الثقة على الرغم من محاولات العدو رشوتهم.

من الجهة الأخرى نجد أن انتداب الآغا كان قابلاً للفسخ، لكنه قابل للتجديد، وتدوم مدته النظرية سنتين، وكان الآغا مسؤولاً عن الأمن في نطاق اختصاصه كما كان يجند المحاربين، ويرفع محصلة الضرائب التي كان يجمعها القادة والشيوخ في منطقته وكان هو القاضي في المسائل الخارجة عن نطاق الشريعة بشرط الامتثال للاستئناف في قراراته أمام الخليفة، وأخيراً فقد كان يراقب قرار القيادة في حدود مسؤوليته، كانت مدة انتداب القائد تقدر سنة مع قابليتها هي الأخرى للتجديد وقد كان يمارس مهامه في نطاق قبيلته، وعلاوة على دوره كمقسط للضريبة المقدرة على منطقته الذي يساعده على القيام به الشيوخ، فقد كان القائد يمارس سلطة دركية وفي زمن الحرب كان يقود كتيبة تشكل بالخصوص من الجنود غير النظاميين^١.

أخيراً في القادة يوجد الشيخ وهو على العكس من رؤسائه يجب أن يكون منحدرًا من نفس القبيلة ومن نفس الجزء المنوط به قيادته، وهو يستمد سلطته من ثقة مواطنيه فيه، ومن هنا تأتي أهميته الاجتماعية بالرغم من تواضع مهمته.

ويجمع هو الآخر في نطاقه الخاص وظائف الشرطة ومحصل الضرائب وضابط الحالة المدينة، غير أنه كان مسؤولاً بوجه خاص على الأمن العام في قبيلته وهي مهمة صعبة

^١ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٦.

ومرهقة لأنه لم يكن يملك الحق في إصدار العقوبات على الجانحين فهذا امتياز خاص بالآغا.

كان الأمير يختار القيادة من الأشياخ الأكثر أهلية واستحقاقاً ولأجل تفادي الرشوة كان الموظفون يعينون من الطبقة الميسورة بالإضافة إلى معاشاتهم فإنهم كانوا يتقاضون حصة من الضرائب والمخالفات "الخطايا" التي كانوا يجبوها^١.

٥. السلطة القضائية:

كانت السلطة القضائية في دولة الأمير عبد القادر منفصلة عن السلطة التنفيذية بقدر ما كان من يمارسها منفذاً للقانون وليس ممثلاً للأمير مع أن هذا الأخير هو الذي يعينه وقد كانت صلاحيته واسعة: نظام الأحوال الشخصية والميراثية، والشؤون العقارية، وكان أيضاً يصادق على العقود المحررة من طرف الكاتب الشرعي أو الموثق الذي كان يزاول وظائفه في مقر القضاء، كما كانت صلاحية القاضي تمتد حتى إلى القضايا الجنائية.

كان القاضي بطبيعة منصبه شخصية مهمة وكان يتم اختياره لثقافته وخصاله الفاضلة وكان يُعيّن إما من بين العلماء المشهورين، أو عند تعذر ذلك فبامتحان ولم تكن تخرج عن دائرة اختصاصه إلا القضايا المتعلقة بالأمن العام التي كانت من اختصاص الخليفة أو الآغا، وكان القاضي كغيره من الموظفين يقبض راتباً محترماً وكان فوق ذلك يتبع الأرتال في تحركاتها وهو مرفوق باثنين من معاونين أحدهما مكلفاً بتنفيذ الحكم.

وكان الأمير: لا يسمح إلا بالأحكام المطابقة لشرعية الله التي ما كان يعتبر نفسه إلا منفذاً لها^٢.

فالمرجعية الدستورية العليا في دولة الأمير عبد القادر: القرآن الكريم والسنة النبوية والاسترشاد باجتهد العلماء والفقهاء المجتهدين، وللمذهب المالكي مكانة متميزة في دول الشمال الأفريقي وإن كانت أمور الدول لا تعتمد عليه فقط، وإنما تحتاج إلى الانفتاح

^١ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٧.

^٢ المصدر نفسه.

على المذاهب السنية الأخرى واجتهادات فقهاء كل عصر الذين فهموا النصوص وأدركوا حكماتها وغاياتها ولديهم من الملكات الفقهية والتربية الإيمانية الربانية التي تجعلهم يتحررون المصلحة العامة في المواضيع الطارئة التي لا يوجد فيها نص ملزم صريح مع قدرة فائقة في حساب تطور الأزمان.

ومن أشهر قضاة دولة الأمير عبد القادر: العلامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراهي، والسيد عبد بن المصطفى المشرفي.

وكان الأمير عبد القادر حازماً في منع شرب الخمر ولعب الميسر وبصورة خاصة بين صفوف المقاتلين، كما حظر التدخين لكونه إسرافاً، ونهى الرجال عن إستعمال الذهب والفضة إلا في الأسلحة.

كان عبد القادر حريصاً على رفع الظلم وإقامة العدل وتقوية المؤسسة القضائية ويرى أن ذلك من أسباب قوة الشعب وصلابة الدول وعوامل النصر على الغزاة الفرنسيين، لقد واجه الاستعمار الفرنسي زعيم فذ، وشعب يتكون ودولة تبنى على أسس راسخة بزعامته.

٦. مجلس الشورى:

اتخذ الأمير في كل مقاطعة داراً للشورى لبحث الأمور الهامة في الدولة وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس "مجالس الشورى" من قبل النواب الذين كانوا يُدعون بالخلفاء وربط هذه المجالس بالمجلس الأعلى للبلاد المؤلف من أحد عشر عالماً ومجالس الإستئناف، وأما العلماء الأحد عشر فمنهم السادة: أحمد المحفوظي، أحمد بن طاهر بن الشيخ المشرفي، ومحمد بن مختار الورغي، ومختار بن مكّي الحاج، عبد القادر بن روكس، وإبراهيم ابن القاضي، وأحمد ابن الهاشمي، وأما نفقات هذه المجالس فكانت تصرف من بيت المال

كباقي كوادر الدولة وأما أصحاب الوظائف الدينية وما يتعلق بها فكانت رواتبهم تصرف من خزينة وزارة الأوقاف^١.

كان مجلس الشورى الأعلى في الدولة الفتية ينعقد والأمير في وسطه، وكان يتفحص الطعون في قرارات القضاة، ويشكل هذا المجلس علماء أجلاء كانوا يتمادون في التدقيق عندما تعارضهم مشاكل عويصة إلى أن يطلبوا باسم الأمير رأي العلماء المعروفين بتعمقهم في علوم الشريعة، في الغالب كانوا يستشيرون علماء جامعة القرويين بفاس، كذلك كان يستشار علماء الأزهر في بعض الأحيان، غير أنه نظراً لبعد المسافة فإن الأمير لم يكن يلجأ إليهم إلا في الحالات الإستثنائية.

والأمير لم يكن أبداً يتخذ القرار ببساطة، كان دوماً يستشير المجلس الذي يترأسه في أغلب اجتماعاته والذي كان في معظم الحالات يعكس صدى الرأي العام^٢.

٧. الاقتصاد والمالية العامة:

لقد أنشأ الأمير نظاماً اقتصادياً تشرف عليه الدولة الهدف منه جعل اقتصاد البلاد في خدمة الغايات القتالية بصورة خاصة، مصلحة الفقراء والشعب بصورة عامة، فكان الجباة يخرجون مرتين في السنة بجباية الزكاة والأعشار بعد أن يقسموا على القرآن الكريم بآلا يظلموا أحداً وألا يعتدوا على أحد، وأنشأ ديوان الأوقاف وأوكل أمره إلى أبي الحاج عبد الله الجيلاني بن فريجة وأوكل أمور ديوان الأوقاف إلى السيد عبد الرحمن الحاج طاهر أبي زيد كما أنشأ ديوان صناعة العملة ومعاملة الأسلحة وكل ما يتعلق بأدوات الحرب وأوكل أموره إلى السيد أبي البركات محمد الجيلاني، وأسند الأمور الداخلية إلى أبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية، أما كتاب الديوان فكانوا من السادة الأشراف، السيد أحمد بن أبي طالب والسيد مصطفى التهامي. وكان حاجبا الخزينة هما: السيدين محمد بن

^١ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ٤٥.

^٢ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٨.

الحاج علي الريحاوي والحاج النجادي الريحاوي، وكان السيد محيي الدين بن عبد الله ناظر الإسطبلات ١.

كانت إيرادات الدولة الفتية تستعمل في نفقات الإدارة والجيش على الأغلب ويجدر التوضيح هاهنا بأن كل الرواتب والمعاشات كانت تدفع نقداً وعيناً بالسلع الغذائية على وجه الخصوص وأنها كانت تتم بانتظام. لقد بقيت عملة الأمير متداولة حتى بعد استسلامه واستمرت كذلك إلى أن أخذت السلطة الاحتلالية سنة ١٨٤٩م إجراءات خاصة ليسحبها من التداول.

وكانت الخزينة العامة قيمة معتبرة بالنسبة لذلك العصر وتقوم بالعملية الصعبة، وقطع الذهب بما يعادل أربعة ملايين من الفرنكات الحالية وهي نتاج الصادرات إلى إسبانيا وفرنسا من الحبوب والماشية والأصواف الآتية من الضرائب، وزيادة على ذلك فكان يوجد لحاجيات الحرب كميات ضخمة من البارود والكبريت وملح البارود والمعادن وكانت الحبوب مخزنة في مطامير موزعة على كامل إقليم الدولة ٢.

٨. التجارة:

كانت التجارة مزدهرة بفضل الأمن الذي كان مستتباً تماماً في كل الأقاليم الواقعة تحت سلطة الأمير وكان الأمير صارماً فيما يخص قضية أمن الطرق والأسواق وكانت العقوبات قاسية بالنسبة لمن كانوا يعترضون القوافل المحملة بالبضائع ٣، وكان سلطان فاس معجباً بجهود الأمير ونجاحاتها، وذلك أن القوافل القادمة من المغرب كانت تهاجم خلال الفترة

١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٤.

٢ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٢.

٣ المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

التي قبل مجيء الأمير عبد القادر للسلطة وبيعته مما كان يجعل المبادلات التجارية بين البلدين نادرة للغاية ١.

وكان الأمير يعين محتسباً وهو ما يشبه المفتشين وكان في نفس الوقت يعمل على التحكم في أسعار ونوعية البضائع في الأسواق ويراقب الأخلاق التي كانت سليمة ومحترمة، ومنذ اتفاقية دي ميشال أصبح الفرنسيون الذين كانوا يحتلون الموانئ لا يستلمون أية بضاعة أساسية من دولة الأمير، من حبوب وماشية وأصواف إلا بترخيص منه. كان الإقليم الخاضع للأمير أكثر أمناً كما كان النظام به أكثر استتباباً، مما هو عليه في مناطق النفوذ الفرنسية وفي المغرب، وكانت الشرطة الفعالة لدولة الأمير تهتم بالأخلاق الحميدة وتحارب الذميمة، وتحارب الكحول والتدخين والمقامرة ٢... الخ.

٩. الدبلوماسية:

إن المعاهدة الأولى المسماة "دي ميشال" الموقعة بين الحكومة الفرنسية والأمير تختص بشروط التعيين المتبادل للممثلين، مع أنه قد كان هناك جدل بين الفرنسيين والأمير حول عبارة ممثل بالنسبة للطرف الأول وتصل بالنسبة للثاني.

مهما كانت العبارة، فإن الأمر كان يتعلق بدبلوماسيين معتمدين عند كلاً من الطرفين، ذلك أنه قد اعترف ضمناً في هذا الاتفاق، ولو على جزء من الإقليم بالسيادة الزمنية والروحية لعبد القادر "أمير المؤمنين" كان الأمير بفضل اختيار هؤلاء الوكلاء الدبلوماسيين من بين اليهود، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من رعاياه مثلهم مثل غيرهم من الجزائريين، وذلك لمهارتهم الدبلوماسية وكذلك لمعرفةهم لكلتا اللغتين، وكل الدبلوماسيين فقد كان هناك ثلاثة مهمتهم تتمثل في السهر على التطبيق الدقيق للمعاهدة وتبادل أصحاب الجنح والجنائيات والفارين من الجيش، وتطبيق الأحكام الصادرة في كلتا المنطقتين.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

كانت فرنسا في هذه الفترة تحتل مدن الجزائر وهران، أرزيو، ومستغانم، وكان قناصلة الأمير حسب بن أشنهو هم على التوالي مادوخاي "مردوش" وبن دوران والحاج حبيب، ومحمد بن يخو وخالفه بن حمود.

وقد كان هناك أوروبيون يمثلون الأمير في الجزائر مثل كارافيني غير أنه قد اعتبر من قبل فرنسا شخصية غير مرغوب فيها وذلك تمهيداً لأزمة ١٨٣٩م وهذا ما زاد في حدة التوتر بين فرنسا والأمير وهو ما أدى إلى استئناف الأعمال العدوانية، على الرغم من الروابط الوثيقة التي كانت تجمع الأمير بسلطان فاس، فإنه لم يكن بين الدولتين علاقات دبلوماسية بالمعنى المعروف وإنما تبادل للوفود في فاس، ومكلف واحد بالأعمال هو الحاج بن جلون في فرنسا كان غالباً مبعوث الأمير إلى باريس هو ميلود بن عراش الذي يمكن اعتباره آنذاك كسفير معتمد لدى الحكومة الفرنسية.

وأخيراً، فإذا كانت هناك علاقات تجارية لهذه الدولة الفتية مع إسبانيا وخصوصاً مع إنجلترا، هذه الأخيرة التي كانت تحابي الأمير، وكانت في نفس الوقت تعمل على التقرب من فرنسا، فإنه لم يوجد أي تمثيل بين هذه البلدان والأمير، وعلى العكس من ذلك فإن الأمير كان منذ توليه وحتى الشهور الأخيرة من كفاحه على علم تام بما كان يجري ليس في فرنسا فقط، وإنما كذلك في الدول الأوروبية الأخرى ١.

١٠. المخابرات:

لقد كان له مصلحة أخبار حقيقية ويرجع الفضل في ذلك إلى مبعوثيه الذين كانوا مركزاً كبيراً للمبادلات، وكانت له بمثابة قاعدة للإمداد ليس لتوريد الأسلحة والذخيرة فقط، بل وكذلك لنشر وجمع الأخبار وكان يتابع ما يصدر من جرائد أوروبية ويكلف من يقوم بترجمتها، وحسب ميلود بن عراش سفيره فوق العادة في باريس، فإن الأمير كان له ابتداء

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

من ١٨٣٨م عميل يتجسس لصالحه، وهو جنرال فرنسي متقاعد يقيم في باريس حيث كان يتمتع بنفوذ كبير وكان يخبره بكل ما قد يهمه ١، وكان هذا الجهاد المرتبط بالأمير يتابع تحركات الفرنسيين وعملاءهم داخل القطر الجزائري بحرفية عالية.

١١. الثقافة:

قبل الاحتلال الفرنسي كان التعليم ينشر عن طريق الزوايا وكان كل من العلماء والفقهاء ومثلهم الطلبة أو المدرسون هؤلاء وأولئك يجودون بعلومهم ومعارفهم كل منهم في القبيلة الخاصة به وقد كان تعليم المواطنين من بين انشغالات الأمير منذ توليته، وهذا ليس بغريب من قبل زعيم يعترف بقيمة العلم والمعرفة والثقافة.

وهكذا فقد كانت جهوده التوحيدية تتماشى بالتوازي مع إقامة نظام تربوي عام، وقد أقيمت في الأرياف مثلها مثل المدن المدارس، حيث لم يكن التلاميذ يدرسون القرآن فقط، وإنما القراءة والكتابة والحساب وكان هذا التعليم مجانياً، مثلما كان التعليم ذو المستوى الأعلى الملقن في الزوايا والمساجد، هاهو ذا ما كتبه الأمير حول هذا الموضوع: "كان أولئك الذين يبتغون قدراً أكبر من التقدم في دراستهم يرسلون مجاناً إلى الزوايا والجموع فكانوا يجدون فيها طلبة قادرين على تكوينهم في التاريخ وعلوم الدين، كنت أخصص للطلبة راتباً منتظماً كانت قيمته تتفاوت حسب علمهم وجدارتهم، وكانت أهمية تشجيع التعليم تبدو لي من الضرورة بمكان، بحيث أنني أكثر من مرة عفيت عن حكم الإعدام على مجرم لسبب وحيد هو كونه طالباً" ٢.

كان الأمير يحرص بنفسه على صيانة الكتب والمحفوظات، وكان يعطي القبائل أوامر دقيقة من أجل صيانة الكتب، ويأمر بعقوبة صارمة في حق كل من يمسك متلبساً بإتلافها أو تمزيقها، هكذا فقد أنشئت مكتبة كبيرة لتجميع المؤلفات والمخطوطات ذات

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

القيمة، كان الكثير منها يؤخذ إثر المعارك أو يشتري أو يسلم من قبل الجنود الذين كانوا يجزون على ذلك.

لقد أتلقت هذه المكتبة ذات الأهمية البالغة من قبل القوات الفرنسية عند سقوط الزمالة في ١٨٤٣م وقد كان لهذا تأثير بالغ في نفس الأمير ١.

١٢. الصناعة:

لم يكن بحث الأمير وتخزينه للمعادن الخالصة ضرورياً فقط لصنع عملته، بل كذلك من أجل تكوين صناعة قادرة على جعله مستقلاً عن الخارج، وقد استطاع في سنة ١٨٣٩م أن يجمع بين ألفي قنطار من الحديد ومئتين من النحاس وقد تمخضت أبحاثه عن اكتشاف منجم للكبريت قام مباشرة باستغلاله، ومنجم آخر للرصاص، وقد جعل من مدنه قواعد صناعية بإنشاء مصانع ومخازن للبارود في معسكر مليانة، المدينة، وتاكدمت، ومعامل للسلاح في مليانة بفضل استخراج الحديد الخام من جبل زكار المطل على المدينة، كما أنه قد أنشأ مسابك المدافع في تلمسان، ولم تكن هذه المراكز مخصصة لصنع الأسلحة فقط، كذلك كانت تصنع الملابس للعسكريين والمدنيين على حد سواء.

كان الأمير دائم الانشغال بعدم الارتباط والتبعية للخارج، ونظراً لمحدودية إمكانياته وموارده فقد كان يعوضها بالشراء من المغرب عن طريق المكلف بأعماله في فاس، ومن وهران ومن مدينة الجزائر لكميات كبيرة من الحديد والصلب وصفائح الفولاذ والأقمشة والجوخ المخصصة بالدرجة الأولى لتجهيز جيشه، لقد كانت جبارة تلك الجهود التي قام بها الأمير بغية تعزيز البلاد بصناعة تمكنه على قدر المستطاع من تجهيز بلاده حتى يتحرر من التبعية للخارج ٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

يكتب الكونت دي سيفري في كتابه: «عبد القادر ومساجين الحرب»: كانت المشاغل والمخازن والمعامل والصناعات الحربية والسلمية والحصون والأسواق والمدن كلها تنبعث وكأنها نتاج أعمال سحرية^١.

غير أنه كان يلزمه التقنيون كذلك: وقد وجد تقنيين لصناعة النقد خاصة من الفرنسيين الذين كانوا في مجملهم من الفارين المعتنقين للإسلام.

وكان حريصاً على الاستفادة من فرنسا في جانب التقنية من خلال إرسال مواطنين إليها ولكن محاولاته باءت بالفشل من جراء التردد والتحفظ التي ظهر من جانب فرنسا.

وكان يحرص على الاستفادة من الخبراء وأهل التخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن واستفاد من خبير فرنسي كان مهتماً بالأبحاث المنجمية بعث به سلطان المغرب إليه ليقدم خدماته للأمير، وفعلاً بدأ التنقيب في جبل زكار واكتشف أن خام الحديد متوافر بكثرة وقد استوردت من إسبانيا عجلة مائية ومسقط مياه يستعمل كقوة دافعة وذلك لاستخدامها في إنشاء مصنع ذي فرن عال، ولإعطاء المشروع كامل أهميته كان الأمير يصير على معانيته بموكب من القادة السياسيين والعسكريين وقد حضر الأمير كل مراحل العملية بكل اهتمام وقلق، وعندما صُبَّ قضيب الحديد قام الأمير أمام الملاء بتقبيل المهندس، وعندما برد الحديد أخذه الأمير بين يديه وتفحص كل أوجهه ثم عرضه على كل مرافقيه وأنصاره^٢.

لقد كان الأمير يهتم بالتطور والرفي وبالرغم من أن الأمير كان ابن بيئة محافظة وأسرة متصوفة ومنطقة ريفية منعزلة، إلا أنه كان قريباً من مدينة معسكر التي كانت مقراً لسلطة باي الغرب، ثم إنه قضى بعض الوقت في التعليم بوهران التي كانت قبل فتحها ١٧٩٢م مدينة ذات طابع إسباني. وكان الأمير عميق التمسك بالدين وتعاليمه وبنصوص القرآن والسنة وتمكناً من التراث العربي والحضارة الإسلامية: يحفظ الشعر والأمثال والخطب

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٦.

والحكم، ويعرف حياة الفلاسفة والرياضيين والأطباء ومع ذلك وجد نفسه بحكم ظروف بلاده على قمة هرم السلطة، فكان عليه أن يوائم بين التقليد والتجديد بين التراث التليد والحضارة الغربية الغازية.

وقد استجاب الأمير لضغط هذه الحضارة في عدة مجالات دون التضحية بمقدساته، فأدخل نظاماً ومصانع وأجهزة لا عهد لقومه بها، وقد عرفنا ذلك عنه، وفي بعض مراسلاته مع الفرنسيين سيما مع ملك فرنسا لويس فيليب، وردت عبارات تدل على أنه كان ينتظر أن يتعاون مع الفرنسيين على إدخال المفيد من الحضارة الأوروبية على شعبه ١.

لقد كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب وأمازيغ الجزائر شعباً واحداً ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة سواء للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للأخلاق والتعليم. كان الأمير ينشد توحيد الشعب وتوعيته وإحقيقه بركب العالم المتقدم وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر ٢.

كل المؤرخين الفرنسيين يذكرون رسالته المؤثرة التي بعث بها إلى الملكة أميلي في هذا المضمار: عوض أن تبعثي إلي بجبائلك الأحماد كي يقاتلوني، فليأتوا ليساعدوني على أن أضع في بلادي أسس حضارة تكونين قد أسهمت فيها، فتكونين قد حققت هدفين اثنين تنزلهن السكينة على قلبك النابض بالأمومة وتسعين كلاً من رعاياك ورعايانا، وعسى الله أن يحفظ لك كل ما هو عليك عزيز وغال.

لم يكن هناك رد عملي وفعلي فروح الغزو والسيطرة التي كانت المحرك الدائم لفرنسا، لم تكن تطيق أن ترى أمة إسلامية عصرية على وجه الأرض ٣.

^١ حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

^٢ حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

^٣ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٦.

١٣. إنشاء المشافي:

اجتهد الأمير عبد القادر في تطوير دولته وأحدث أموراً كثيرة، ومن أهمها إنشاء المشافي العامة والخاصة، فكان في كل مقاطعة عدة مستوصفات ومشافٍ خاصة بالمقاتلين تصحبهم في كل موقعة ومعركة، وعيّن لكل مشفى أربعة أطباء أكفاء يرأسهم طبيب مشهور ومن مشاهير الأطباء في دولة الأمير: الحكيم أبو عبد الله الزراولي، وكان عالماً بخصوص الأعشاب على اختلاف أنواعها، ومن اختصاصاته إخراج الرصاصة من العضو المصاب بوضع نوع من الأعشاب على الجرح فتخرج الرصاصة من دون الحاجة إلى جراحة بعد وقت قصير وبسهولة ومن دون ألم. وكان إنشاء هذه المستشفيات أحد أهم المنجزات التي كان له فيها فضل كبير ١.

واستعان الأمير بالعلماء وفقهاء الإسلام في الجزائر والمغرب لكي يكون على ثقة عن عدم تجاوز دولته أحكام الشرع في قراراتها ودفعته الظروف الجديدة إلى طلب التطوع من السكان لخدمة مزارع الدولة وأملاكها التابعة لبيت المال بشكل نظام تعاوني عرف "بالتدوير" ٢.

رابعاً: معاركه ومعاهداته

١. إخضاع القبائل:

كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة وعفا عمنّ يستحق العفو، وعاقب من يستحق العقاب، وعاد سالكاً طريق الساحل حتى وصل إلى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد بن طاهر قد دخل في محادثات مع حاكم وهران الفرنسي وطلب منه احتلال المرفأ،

١ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ٤٦.

٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨١.

فقبض عليه الأمير وساقه إلى معسكر حيث أمر باعتقاله، بعد أن عين من يسير أمور الميناء.

وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل التي تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب^١، وكانت قبيلته فليطة تشتمل على بطون وعشائر، وكان من عاداتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابطة وبقي هذا شأنها منذ عهد موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وسَطَّتْ على أموالها، وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالبطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيّة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليطة وما جاورها من القبائل رسلاً يطلب إليهم الالتزام بالشرعية ويبلغهم قرار الشعب الجزائري الذي أصبح بموجبه أميراً للبلاد، فكان جوابهم العصيان ورفض الطاعة، فأسرع بجيشه قاصداً قبائل فليطة فهاجمها وكان أوامره إلى الجند: ألا يحرقوا بيتاً ولا يقتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة ولا يهلكوا غرساً ولا شجرة، وبعد انتصاره عليهم استأنموا فأمنهم وردّ عليهم أموالهم وولى عليهم عمالاً "أي حكماً بالمعنى الحديث" يثق بهم^٢.

٢. الهجوم على وهران:

تناهت إلى مسامع الأمير أن حاكم وهران الفرنسي قد أغار على قرية الدبة جنوبي قلعة هواره، ونكّل بأهلها، وأخذ القضية السيد قدور الدججي أسيراً، فسارع إلى قطع الطريق على العدو ومنعه من تحقيق هدفه، وما إن اقترب العدو من "الدار البيضاء" حتى أدركه الأمير واندفعت سيول فرسان الجيش المحمدي تسابق الريح نحو القوات الفرنسية، وكانت أهازيج الحرب تخرج من صدور هزتها الحماسية وملأها الإيمان وأنهمال المقاتلون من الأودية والمرتفعات واستشهد في ذلك اليوم من القادة المسلمين علي بن حبيب الرحاوي والميلود المغراوي، أما العدو فقد كانت خسائره كبيرة فادحة.

^١ المصدر نفسه.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

كانت هذه أول معركة للأمير داخل البلاد، وحملت رياح النصر أنباء انتصارات الأمير إلى القيادة في مدينة الجزائر، وفي الخامس عشر من نيسان عام ١٨٣٣م عُزل الجنرال "بويه" حاكم وهران المهزوم وعُيّن الجنرال "دي ميشيل" مكانه حاكماً على المدينة، فسار إليها بقوة كبيرة فوجدها تحت حصار جيش الأمير مغلقة الأبواب وبلغه أن الأمير قبل رجوعه إلى "معسكر" كلّف بعض القبائل بمراقبة حصون المدينة ومساعدة الجيش المحمدي على متابعة حصار وقتال الفرنسيين، وعندما لم يستطيع الدخول إلى المدينة ابتنى حصناً بالقرب منها في منطقة تدعى "بنفور" وأخذ يشتري ضمائر ضعيفي الإيمان من أفراد القبائل المجاورة والدوائر لمساعدته^١.

٣. الإصلاح بين القبائل:

عندما وصل الأمير عبد القادر إلى ناحية نهر "مينة" تناهى إلى مسامحه أن قتالاً نشب بين قبائل البربر فوصل في الوقت المناسب وأصلح بينهم وعاقب مثيري الفتنة وعقد صلح بينهم وقعه رؤساؤهم نصه كما يأتي: قد أبرمنا بحول الله وقوته، الصلح المبرم بين أولاد الأكراد وقبيلة أولاد شريف، وقبائل يسلم وقبائل الشرقية ومحونا أثر ما كان بينهم من بقايا حميّة الجاهلية وألزمنا كل فريق منهم بالانضباط وطاعة الأنظمة المرعية في الدولة، وبرفع كل قضاياهم إلى من وليناه أمرهم، وجعلنا عقوبات شديدة على من يخالف الأنظمة أو ينقض أمر هذه المصالحة أو يتسبب بإفسادها فيكون قد عرض نفسه لسخط الله وغضبه^٢.

كان الأمير يؤكد أن الغاية الوحيدة لقبوله هذا المنصب وهذه القيادة هي أمن البلاد واطمئنان الشعب على نفسه وأمواله وأعراضه وتمتعه بحقوقه الدينية، ثم طرد الغزاة الفرنسيين ولا يمكنه ذلك إلا بمساعدة أبناء هذا الشعب بالمال والرجال، وإن المكاسب التي تحصل عليها الدولة هي عائدة إلى الشعب، وكان في أكثر خطبه التي يضطر إليها

^١ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ٥٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٠.

يقول: لا أظن أنه يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تدفعونها للجباة أبتغيها لنفسي أو لنفقاتي الشخصية ولعلكم تعلمون بأني من سلالة عريقة وأن عائلتي مليئة، وكان الشعراء والوعاظ ورجال القوافل والمنشدون في الأسواق يؤكدون هذه المعاني وقد جاء في بعض الأناشيد الشعبية في بلاد القبائل أن الأمير لا يطمح أبداً إلى العرش والعظمة، وأن رغبته فقط هي أن يخضع الناس لأوامره كإخوة ليدخل معهم مدينة الجزائر ويطرد الفرنسيين منها وعندما لا ينفع الإقناع كان الأمير يلجأ إلى الحزم والقوة وعندما ينتصر كان الحزم ينقلب حلماً، والقوة عفواً، ولكنه لم يكن يرحم الذين يتعاونون مع الفرنسيين ويثبت عليهم ذلك، وكان يستشهد بالآية الكريمة " وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا " (النساء، آية : ١٠٦).

ولدى عودة الأمير عبد القادر لمدينة معسكر بلغه خلع ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان للطاعة، فسار إليه وهزمه ففر ولجأ بضريح الولي أبي مدين فلقق به ودخل الضريح وأمن ابن نونة وعاد لمعسكر بعد أن رتب شؤون تلمسان ١.

٤. وفاة والده واستمرار المعارك:

وفي طريق عودته من تلمسان بلغه نبأ وفاة والده وذلك في ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ الموافق تموز ١٨٣٣م، وبعد قيامه بمراسيم دفن والده العظيم علم أن الفرنسيين المتحصنين على البحر في منطقة مهاجر، راحوا يتعاملون مع بعض قبائل الناحية بالبيع والشراء فباغت جنود الحامية وهم خارج الحصن يرعون قطعانهم فأمعن فيهم قتلاً، فلابدوا بالفرار وعادوا للحصن فأسر بعضهم وغنم سائر قطعان مواشيهم وكان أمام المرسى عدد من المراكب وصلت للتو فتوجه لها وغنم ما فيها من مؤونة وذخائر. وعندما وصل الخبر للقائد العام الفرنسي بالجزائر قام بعزل الجنرال بويه وعيّن مكانه الجنرال دي ميشيل حاكماً على وهران في ١٥ نيسان، أبريل ١٨٣٣م، ووصل وهران فوجدها محاصرة من

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٢.

طرف المسلمين وبعد أيام علم بحضور الأمير نفسه، فخرج بقوات ضخمة لنجدة حصن عقور الذي هاجمه الأمير وتصدى الأمير للقوة الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال بوبريص فهزمها وشتت شملها وهرب عساكر العدو نحو سور المدينة وعلم بعد هذه المعركة أن قبائل أرزيو جددوا علاقاتهم مع الفرنسيين بإيعاز من رئيسهم المعتقل في معسكر، وعلم من عيونه المبتوثة في المنطقة أن شخصاً اسمه طوبال يخرج كل يوم مع ضباط فرنسيين في رحلات صيد، فترصد لهم الأمير وهاجمهم وجردهم من سلاحهم وأسرههم وعندما علم جنود حامية أرزيو الفرنسية بالهجوم ركبوا المراكب وهربوا إلى وهران، ودخل الأمير أرزيو فقبض على رؤوس القبائل التي تعاونت مع العدو، وأصلح بين سكانها وترك حامية تحمي المدينة وعاد لمعسكر فكون مجلس قضاء حاكم القاضي أحمد بن الطاهر البطيوي وحكم عليه بالإعدام.

وعندما لاحظ الفرنسيون نجاح الأمير في تجميع الشعب حوله وكبح القبائل التي أبدت تعاوناً معهم، قاموا بعمل يمس هيبة الأمير فغزو مستغانم مباغتة ودخلوها، ففر أكثر سكانها إلى الريف المحيط بها، وعلم الأمير بذلك فتوجه بجيش ضم الكثير من القبائل التي هبت لندائه بالجهاد وكان العدو قد قام منذ دخوله المدينة بتحصين سورها ونصب المدافع عليها وحاول الأمير تدمير السور بالمعاول والفؤوس فلم تفلح محاولته، فانسحب بجيشه إلى مخيمه وأمر بأن يحفر نفق من المخيم إلى السور ووصل النفق السور فحفر تحت أسسه وملئ بالبارود وأضرمت النار فانفجر لكن الانفجار لم يكن كافياً فقد فتح فتحة صغيرة لا تكفي لدخول الجيش للمدينة وعندما تأكد الأمير أن الجيش الفرنسي تحصن بالمدينة ويرفض الخروج لمنازلته وأن اقتحامها غير ممكن، عاد إلى مدينة معسكر.

وما إن اقتنع القائد الفرنسي دي ميشيل من رفع الأمير للحصار حتى خرج من مستغانم وتوجه إلى أرزيو فاحتلها وترك حامية في حصنها ثم عاد إلى وهران وفي طريقه أغار على قبيلتي الدوائر والزماله فأسر عدداً من رجالهم ونسائهم، وعندما طلبوا رد أبنائهم الأسرى

اشترط عليهم الانتقال إلى ضاحية وهران والإقامة بها وقبول الخضوع للسلطة الفرنسية، وفي نيته استعمالهم كوسيلة تضمن موارد التموين لجيشه بالحبوب والمواشي فقبلوا وانتقلوا إلى حيث أراد العدو، وعلم الأمير بذلك، فأرسل وفداً حاور رؤساء القبيلتين وبين لهم أن رضوخهم لإرادة العدو خروج عن الإسلام فتراجعوا، وعادوا إلى منازلهم الأولى وأفسد بذلك خطة القائد الفرنسي الذي فشل في فك عزلته.

واتبع الأمير خطة تتمثل في إرسال كوكبات من الفرسان خفيفة تغير على القبائل التي تتعامل تجارياً مع العدو وتعاقبها وتفرض عليها تطبيق أوامره بصرامة بعدم التعامل مع جيش العدو، وتغير على حاميات العدو بعد أن ترصد خروج جنودها خارج الأسوار فتعمل فيهم قتلاً وأسراً وغنيمة، فاشتد الحصار على العدو الذي صار يأتي بتموينه عن طريق البحر من خارج منطقة وهران ١.

وأمر الأمير القبائل بعدم التعامل مع الفرنسيين وعدم بيعهم أي شيء، وكانوا يعتمدون في تموينهم على حبوب ومواشي هذه القبائل. وأحس الجنرال دي ميشيل بالخطر الذي يتهدد قواته التي صارت محاصرة بلا غذاء، ونظراً لعدم استطاعة قواته الخروج من وهران ومحاربة الأمير فقد قرر فتح مفاوضات معه، وأرسل للأمير عدة رسائل تجاهلها في بداية الأمر ظناً منه بأنها مجرد حيلة القصد منها تهدئة المعارك ريثما تصله إمدادات جديدة، لكن عندما اقتنع الأمير بجدية الطرف الفرنسي في البحث عن التوصل إلى اتفاق رد على الجنرال بعد أن استشار مجلس شورته، وأرسل وفداً من وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود وتقابل الوفدان خارج مدينة وهران في ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٩هـ الموافق ٤ / ٢ / ١٨٣٤م وبعد مفاوضات طويلة برهن فيها الوفد المفاوض الجزائري مقدرة التفاوض، اتفق الطرفان على صيغة الاتفاق وتحرك الوفد الجزائري نحو معسكر تعرض مسودة الاتفاق على الأمير ٢.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٤.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٥.

ولقد بقي الأمير بعيداً عن أهله وعائلته طيلة اربعة عشر شهراً متصلة في تلك الفترة من حياته حيث نظم قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

تسألني أم البنين وإنها
لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني
أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لا متهيئاً
وأحمي نساء الحي في يوم تمّوال
يثقن النساء بي حيثما كنت حاضراً
ولا تثقن في زوجها ذات خلخال
أمير إذا ما كان جيشي مقبلاً
وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأول
وإن جال أصحابي فإني لها تال
أدافع عنهم ما يخافون من ردى

فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة
وأصدرها بالرمي تمثال غربالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وبي تنقي يوم الطعان فوارس
تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحمما
أقول لها صبراً كصبري وإجمالي
وأبذل في الروع نفساً كريمة
على أنما في السلم أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيين تعلمي
بأن مناياهم بسيفي وعسالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه
على ضامر الجنين معتدل عال
سلي البید عني والمفاوز والربا
وسهلاً وحنناً كم طويت بترحالي
فما همّي إلا مقارعة العدا
وهزمي أبطالاً شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي
أهاب ولو أصبحت تحت الشرى بالي^١

٥. معاهدة ديمشال:

توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل
حذب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب
الظمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي، ولما طرحت الميزانية المخصصة

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٠٤.

لمواصلة الحرب في الجزائر أمام البرلمان الفرنسي للمناقشة تم إقرار تكوين لجنة من طرف الملك لويس فيليب في ٧ جويلية ١٨٣٣م عرفت فيما بعد باللجنة الأفريقية مهمتها تقصي الأوضاع وجمع المعلومات والحقائق وتقديم اقتراحات وجاءت اللجنة إلى الجزائر ومكثت مدة ثلاثة أشهر، من ٢ سبتمبر ١٨٣٣م إلى ٩ نوفمبر ١٨٣٣م، خلصت إلى نتيجة مفادها ضرورة احتفاظ فرنسا بالنقاط الرئيسية التي تم احتلالها وهي مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة والجهات المحاذية لها فقط، باعتبارها ممتلكات فرنسية بأفريقيا دون الدخول في عمق التراب الجزائري، وذلك لإنقاذ الشرف القومي الفرنسي، كما عللوا ذلك، فوافق البرلمان على هذه المقترحات، غير أن الجنرال فوارول لم يكن ينتظر نتائج اللجنة وراح يأمر الجنرال تريزل للهجوم على ميناء مدينة بجاية ويحتله في ٦ أكتوبر من نفس العام وخلال تلك الفترة استطاع الأمير عبد القادر أن يضرب حصاراً اقتصادياً على المدن المحتلة بعدما أصدر قراراً بمنع المبادلات التجارية مع المحتلين وأصبحت الحاميات الفرنسية في مأزق خطيراً أمام هذا الحصار لأنها كانت تعتمد على القبائل الجزائرية في تموينها بضرورات الحياة وأمام هذا الوضع راح الجنرال ديمشال يستغل كل حادثة ليكتب إلى الأمير رسائل من أجل فتح مفاوضات لعقد اتفاق سلمي معه، منها الطلب الخاص بإطلاق سراح الجنود الفرنسيين الذين اعتقلوا بعد أن هاجمهم قوات المجاهدين وقتلت منهم وطلب من الأمير يرجوه فيه العفو عن الأسرى المنكودو الحظ ويذكره بأنه شخصياً قد سبق له أن أطلق سراح أسرى من العرب من دون شرط عندما سقطوا أسرى في يده بعدما هجم عليهم في ٨ ماي ١٨٣٣م وكان نص رسالته كالتالي: إنني لا أتردد في أن أكون البادئ في إتخاذ هذه الخطوة إن وضعي كما هو، لا يسمح لي أن أفعل ذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك، لذلك فإنني أطلب حرية أولئك الفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. إنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، مادمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض

أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب، ومن دون شروط، بل قد عاملتهم أحسن معاملة، فإذا كنت تود أن تكون رجلاً عظيماً فيني أرجو أن لا تتأخر في الكرم وأن تطلق سراح أولئك الفرنسيين الذين هم الآن رهن يدك^١.

وقد رد الأمير عبد القادر على رسالة الجنرال ديمشال بتحرير مختصر يُظهر دقة أفكار الأمير وحسن سياسته، فقد جعل اللوم على فرنسا التي أرسلت قواتها وجيشها عبر البحار لمحاربة الجنرال^٢، فأرسل الجنرال ثانية يطلب الأسرى، ولما لم يستجيب له الأمير أيضاً أرسل للمرة الثالثة كتاب تهديد، فأجابه الأمير برسالة يقول فيها: أنتم لا تُقدِّرون قوة الإسلام، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على هذه القوة، وانتصارات الإسلام معروفة لديكم ونحن وإن كنا ضعفاء كما تزعمون، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو والحرب سجل يوم لنا ويوم علينا، غير أن الشهادة في سبيل الله هي ما نصبو إليه، ودويّ القنابل وأزيز الرصاص وصهيل الخيول هي أطرب إلينا من صوت الغواني، فإن كنتم جادّين في الوصول لاتفاقية وعقد صلات ودية بيننا وبينكم فأفيدونا لنرسل لكم رجلين من كبار قومنا للمفاوضة حيث أننا لاحظنا من رسائلكم المتعددة رغبتكم في الجنوح إلى السلم^٣. وكان في نيّة الأمير من هذه الخطوة مناورة سياسية يحقق بها هدفه للاستعداد والبناء وليس معاهدة ترمي إلى الصلح الدائم.

وفور تسلم الجنرال ديمشال رسالة الأمير أوفد مردخاي موسوي لتسليمه رسالة جديدة عدل فيها من لهجته يقول فيها: إلى سمو الأمير عبد القادر أيها الأمير لم يكن بعيداً أبداً عن فعل أي أمر حسن، فإن كان سموكم يقبل أن يتفاوض في أمر معاهدة بيننا، نوقف

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٧٥.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٦.

^٣ المصدر نفسه، ص: ٥٦.

بها سفك دم أمتين اقتضت الإرادة الإلهية ألا تكونا تحت سلطة واحدة، سيكون لي أمل كبير في الحصول على نجاح اتفاقية المفاوضة بيننا^١.

وكان تاريخ رسالة الجنرال هذه في كانون الأول من عام ١٨٣٣م، وعندما تسلّم الأمير هذه الرسالة وقرأها أيقن أن عدوه وقف موقف المستغيث، فعقد اجتماعاً حضره جميع أفراد مجلس الشورى والأعيان وأطلعهم على مضمون رسالة الجنرال دو ميشيل، وبعد تدارس الموضوع الذي كان يحتاج لأكثر من اجتماع قرروا بالإجماع تأجيل الردّ على الرسالة بشكل رسمي، واكتفوا بإبلاغ الرسول رأيهم هذا: أي تأجيل الردّ على الرسالة.

وصلت الرسالة الشفوية إلى الجنرال، ثم أخذت رسائل الجنرال تتوالى في طلب الهدنة وفي الرابع من فبراير - شباط عام ١٨٣٤م أرسل الأمير وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود للتداول في أمر الهدنة مع الجنرال ديمشال وكانت المقابلة بين القادة الفرنسيين ومندوبي الأمير خارج مدينة وهران على بعد فرسخين منها، وجرت المباحثات بشكل ودّي.

وقد كان في ذهن مندوبي الأمير صورة كاملة لما يجب القبول به وما لا يجب الاتفاق عليه، لذلك جاء صك الاتفاقية وفق إرادة الشعب الجزائري ومصالحه في تلك الفترة من التاريخ، وفي يوم السابع عشر من شهر شوال عام ١٢٤٦هـ الموافق السادس والعشرين من شهر فبراير - شباط عام ١٨٣٤م وقّع الاتفاقية الجنرال ديمشال وبعد ذلك عرض ابن عراش الإتفاقية المذكورة على الأمير فوقّعها بدوره وقال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن الميلود بن عراش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده الخاص في عقد المعاهدة، استقبل استقبالاً رسمياً فيه كل معاني الاحترام، وكان أمراء الجيش الفرنسي مصطفىين كلّ على حسب رتبته العسكرية يستمعون لما جاء في صك الاتفاقية وبعد تلاوتها وقّعها الجنرال ديمشال^٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٧.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٨.

كانت بالأمير حاجة ماسة جداً إلى الهدنة لتقوية الجبهة الداخلية، وتنظيم جيشه الفتّي واعتبر هذه الهدنة مناورة عسكرية يتفرع فيها لبناء الدولة الإسلامية وتقوية الوحدة الوطنية، ذلك أن عصيان بعض القبائل ووقوف البعض الآخر مع الفرنسيين أربك قواته وأرهق قدراته على الاستمرار في الكفاح ضد المستعمر الغاصب ومن جهة ثانية تمكن بهذه الهدنة من التركيز على جبهة واحدة مهمة، لأن الحرب على عدة جبهات كانت خطيرة وقاسية لذلك لابد من تحييد إحداها.

ولم ترتح الحكومة الفرنسية لهذه الاتفاقية، على الرغم من توقيع الملك عليها، وكانت ترى فيها مكاسب كبيرة للعرب، ومع الأيام أخذت تفكر بشكل جدّي في نقضها.

قال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن دولة فرنسا قد حاولت أن تنقض هذه الاتفاقية، واستعملت الكثير من المكائد، لكن ذكاء الأمير هذا الشاب الحديث السنّ ودهاءه السياسي عرقلا مساعيها وأطالا مدة الهدنة ١.

. نص معاهدة ديمشال:

تمكن الأمير عبد القادر في المرحلة الأولى من مواجهة الجيش الفرنسي وإجباره على التمسك والاكتفاء بالبقاء في مدن مستغانم، أرزو، ووهران، واضطر الجنرال الفرنسي ديمشال أن يبرم معاهدة مع الأمير عبد القادر في سنة ١٨٣٣م والتزم فيها الطرفان بما يلي:

. يعين الأمير وكلاء له في مدن مستغانم ووهران، أرزو، كما تعيّن فرنسا وكلاء لها في معسكر.

. احترام الديانة الإسلامية.

. التزام الفريقين برد الأسرى.

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٨.

. إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

. التزام كل طرف بإرجاع كل من يفر إلى الطرف الآخر.

. لا يسمح لأي أوروبي أن يسافر داخل البلاد إلا إذا كان يحمل رخصة من وكلاء الأمير وموافقة الجنرال الفرنسي^١.

كانت شروط الجنرال مكتوبة بالفرنسية وموقعة من الأمير وشروط الأمير مكتوبة بالعربية وموقعة من الجنرال، وهذا يؤكد أهمية اللغة في تجسيد السيادة الوطنية في دولة الأمير عبد القادر.

وبعد تبادل الوثائق جرى حديث طريف بين الجنرال والوزير الميلود نورده في شكل حوار:
. كنت عازماً قبل عقد المعاهدة أن أطلب من دولتي عشرة آلاف جندي زيادة على ما عندي، وأخرج من هذه المدينة وأتابع محاربتكم مدة شهر، وما يدريك يا ميلود أن حملة كهذه من شأنها أن تلحق الضعف بسلطانكم؟

. يا سيادة الجنرال إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام ولو فعلت ما قلت وخرجت بهذه القوة كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم تعبت، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال؟

وتملك الجنرال العجب من بلاغة هذا الجزائري الذي رد على صلفه وغروره في تواضع وإيجاز مبرزاً تكتيكاً عسكرياً لم يكن يخطر على بال.

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١١.

وبعد المعاهدة عيّن الأمير سفراءه سماهم وكلاء في مدن الجزائر ووهران وأرزيو متجنباً إعطاءهم لقب سفراء حتى لا يعترف بملكية هذه المدن لفرنسا، ويوحي بأنها جزائرية وأن ممثليه فيها مجرد وكلاء له يقيمون في أرض جزائرية وهذا يبرهن على رقي دبلوماسية دولة الأمير، وعيّن الفرنسيون سفيراً لهم في معسكر الكومندان عبد الله ويسون وهو من ممالك مصر الذي انخرط في صفوف الجيش الفرنسي.

اعتبرت المعاهدة نصراً للأمير، فقد إعترفت رسمياً باستقلال الأمير الذيفاوض الجنرال الفرنسي عن طريق مندوب عنه وفوضه بالتوقيع عليها، واحتفظ لنفسه بالمصادقة عليها مثله مثل ملك فرنسا، وكتأكيد على سيادة دولة الأمير فقد نصت المعاهدة على تبادل التمثيل القنصلي وتبادل المجرمين بين الطرفين، وناقش وزير الدفاع الفرنسي الشروط التي فرضها الأمير في هذه الاتفاقية، لكنه وافق عليها في النهاية بهدف كسب الوقت ريثما تعد العدة للسيطرة الكاملة على سائر البلاد الجزائرية، وصادق الملك على المعاهدة من ضمن الشروط التي فرضها الأمير على المفاوض الفرنسي احتكاره لتجارة الحبوب، وألا تشتري فرنسا الحبوب الجزائرية إلا عن طريقه وضمن هذا الشرط في ملحق خاص بالمعاهدة، وبالرغم من أن الطرف الفرنسي وقع على هذا الملحق، إلا أن فرنسا تراجعت فيما يتعلق بهذا الشرط بدعوى أن الملحق كتب بالعربية^١ والحقيقة إنه لم يكن ملحقاً، إنما كان بنداً داخلياً في صلب المعاهدة، كشروط الأمير^٢.

٦. اعتراف سلطان مراكش وبسط الأمير لنفوذه:

في العاشر من شهر تموز عام ١٨٣٤م وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام أمير المغرب الأقصى لتهنئة الأمير عبد القادر بالانتصارات الباهرة، حاملاً إليه الهدايا الثمينة مع كميات وافرة من الأسلحة والذخائر وعدد من الجنود الفرنسيين الذين فروا إلى المغرب

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

الأقصى وألقي القبض عليهم هناك وقد أرسلهم السلطان إلى الأمير عبد القادر ليرى رأيه فيهم، فسلمهم الأمير إلى السلطات الفرنسية حسب مضمون المعاهدة ونصوصها^١. وبعد المعاهدة شرع الأمير عبد القادر يطبق خطته التوحيدية، فقام على الفور بمهاجمة القبائل الرافضة لمبايعته قرب تلمسان وأخضعها وذلك يوم ١٢ / ٧ / ١٨٣٤م، وكان لهذا الانتصار أكبر الأثر في بسط نفوذه على غرب البلاد باستثناء مدينتي وهران ومستغانم وقلعة تلمسان.

بعد أن دان الغرب للأمير توجه إلى ناحية مدينة الجزائر وحاول إخضاع القبائل هناك، لكن ديمشال أبلغه أن هذا العمل سيسيئ إلى علاقاته مع فرنسا، وطلب منه عدم الاقتراب من مدينة الجزائر وشجعه على السيطرة على قسنطينة والأقاليم الداخلية وظل الوجود الفرنسي مقتصرًا على مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة. وانطلق الأمير في توحيد القطر تحت سلطته والحد من توغل الفرنسيين داخل البلاد، فقام بضم تيطري إلى دولته بالرغم من احتجاج ديمشال وانتهاز فرصة قيام أتباع الطريقة الدرقاوية بثورة دينية فهاجم مليانة ومدينة واحتلها، وتمكن بذلك من الإقتراب من مدينة الجزائر شعر الفرنسيون بأن الأمير ييسط نفوذًا من شأنه أن يجمع الشعب كله تحت دولته، فبدأوا يحيكون المؤامرات ضده فدفعوا بعض القبائل القريبة من مدينة وهران أن تتمرد عليه ولكن الأمير هزمهم وطلبوا منه الأمان واستجاب لهم.

وعاد الأمير إلى مدينة معسكر بعد أن أعاد القبائل المتمردة إلى سلطته في مساحة واسعة من الوطن. وتوجه إلى مدينة تلمسان فدخلها واستقبله سكانها استقبالا حافلا وأقام فيها زمناً قام بإصلاح أمورها وعلم وهو في تلمسان أن بعض عشائر الدوائر والزماله تحركت نحو وهران للاحتماء بالمحتل، فسارع إليها ورد بعضها، ونزل بوادي الكحيل فحضر له

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

رؤساء عشائر الدوائر فأمرهم أن يتركوا المنطقة وينتقلوا إلى ناحية معسكرهم وعيّن لهم محلة العرقوب ليقيموا فيها منازلهم.

قام الأمير بحثّ الناس على العمل المجدي من زرع ورعي وتجارة، تحسّيناً لأحوال الرعية، وسرعان ما عم الأمن واختفى الشقاق بين القبائل بسبب قيام خلفاء الأمير بحل النزاعات وفقاً لشرعية الله، وتمكّن هذا الأمير الشاب خلال عشرين شهراً من تاريخ بيعته من بسط سلطته على مناطق واسعة بواسطة الترغيب والترهيب مع رجحان كفة الترغيب، وكان المواطنون يستجيبون للأمير طواعية اقتناعاً منهم بأن حكمه مبني على أحكام الشريعة الإسلامية، ولم تشذ سوى عشائر الدوائر والزمالة لتعودها منذ عشرات السنين على العيش على استغلال الشعب واكتساب المال من الناس بدون حق، مستغلين التفويض الذي منحه لهم الحاكم في عهد الأتراك^١.

وقد تمكن الأمير بفرض شرط في معاهدة دي ميشيل تبين عن فهمه لأمر الاقتصاد. وينص هذا الشرط على أن العمليات التجارية التي يقوم بها الفرنسيون لشراء المواد التموينية لا بد وأن تتم في ميناء أرزيو تحت نظر ومراقبة موظفي إمارته وأن كل البضائع التي تأتي من الداخل تدخل هذا الميناء ومنه تصدر لفرنسا وأوروبا، وترسل منها المواد التموينية إلى مدينتي وهران ومستغانم اللتين يحتلها الفرنسيون بالقدر الذي يكفي أهلها.

كان موظفو الإمارة يشترون البضائع من الناس ويقومون بشحنها إلى أوروبا، وسخط التجار الفرنسيون على هذه المعاملات التجارية التي جمدت سائر نشاطهم، وغضبوا على الجنرال دي ميشيل الذي قبل هذا الشرط التجاري المدمر لهم وشكوا للجنرال الذي أجرى اتصالاً مع الأمير الذي أمر بتخفيف هذه الإجراءات التجارية، علم الأمير أن

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٠.

سكان وهران ومستغانم المحتلتين يعودون لمنازلهم، فأمر الأمير وكلاءه بمنعهم من العودة حتى لا يستغلوا من المحتل، وحتى يبقى هذا معزولاً عن الأهالي^١.

٧. استبدال الجنرال ديمشال:

استبدلت الحكومة الفرنسية الجنرال ديمشال الذي فشل في نظرهم، وذلك بإعطائه للأمير قوة بالمعاهدة التي وقعها معه وعيّن بديلاً له كحاكم لوهران الجنرال تريزل، كما عيّن الكونت دوروان دورلون والياً على الجزائر، مع تكليفه بالمحافظة على المعاهدة لكن الجنرال ما إن وصل وهران حتى راح يبيت الدسائس ضد المعاهدة التي لم يكن يؤمن بها. واتفق أن توافق وصول تريزل وهران مع اتصال سكان تيطري بالأمير وإرسالهم بيعتهم له، وفكر الأمير في ذلك ملياً، ثم قرر عدم اتخاذ قرار فيها إلا بعد الاتصال بالوالي الفرنسي، فأرسل وزير خارجيته الميلود بن عراش رسالة إلى الكونت يهنئه فيها بتوليته الولاية ورد فيها: إن معتمدي ابن عراش وجهته إلى حضرتكم ليلبغكم التهنئة والتبريك من قبلي على الجزائر، وقيامي بالمحافظة على أمور المعاهدة وأوعزت إليه أن يفوضكم في أمور تعيين على إجراؤها، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبال والمناطق التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية، وخشيت أن يكون ذلك سبباً مكدرًا لما بيننا من المصافاة.

وقد أوحى الأمير برسالته أن يده ينبغي أن تكون طليقة في جميع الأقاليم ماعدا المدن الأربع التي بيد الفرنسيين، وكان يريد أن يركز على جواب الكونت لتبرير ضم التيطري إلى إمارته.

وبعد أن أكرم وفادة مبعوث الأمير رد الكونت بالرسالة التالية: وصلني كتابكم وبلغني معتمدكم ما تعلق به إرادتكم في الجهة الشرقية، وحيث إن جعل مقاصد سموكم توطيد

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩١.

الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها وإني آمل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد، ولك أن تعتقد بأنك لا تقوم في كل أرض تقصد الاستيلاء عليها، بشرط أن تكون لك قوة على أخذها^١. وكان الكونت يضع بين عينيه وصية حكومته: بأن لا يغضب الأمير عبد القادر، وأن يعمل على كل ما من شأنه تجنب طلب قوات عسكرية من باريس، وشعر الأمير بأن يديه طليقتان فقرّر التوجه إلى تيطري، وعندما تأهب للسفر كتب إلى حاكم الجزائر يخبره بذلك فكان جواب الكونت ما يلي: فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي أرى أن هذا العزم خال من الصواب، ليكن في علمكم أن الجنرال ديمشال لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على إيالة وهران، ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات، ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير، فلا يكون لكم طلب إلا على إيالة وهران، وبناء على ذلك فلا نسمح لكم أن تدخلوا إيالة تيطري، ولا أن تتجاوزوا وادي الشلف شرقاً ونهر أرهيو إلى كوجيلة، وعلى العموم فلكم أن تحكموا في البلاد التي هي لكم الآن بحسب شريعة الإسلام، وبذلك نكون أصدقاء ولا أقدر أن أرضخ لعساكركم أن يدخلوا ولاية تيطري، لأن كل ما يجري هناك يخصني وإني مستمر مع ساكني الأقاليم على السلم، ومرتكز على تعيين مراكز فرنسية في البلدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسباً، ورد الأمير على مراسلة الكونت برسالة قال فيها: لقد وصلني تحريككم وتعجبت مما ذكرتموه فيه. إن مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الإصابة، لأن محافظتي على السلم لا يجهلها أحد، ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما أجريه في وطني وقصارى الأمر أنه لا يبعد أن يكون بغض أهل الفساد القى في ذهن حضرتكم من أوجب أن يكون جوابكم على هذا الأسلوب وعلى كل حال فإني عدلت الآن عن النهوض إلى تيطري، إبقاء للسلم ورعاية له^٢.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٣.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

٨. محاربة الأمير للشعوذة والدجل:

كانت الوفود تتسابق مقدمة الطاعة للأمير عبد القادر مثل رئيس قبيلة أنكاد حليف الدوائر، وابن عربي رئيس قبيلة أولاد خويدم وغيرهما.

وقف الأمير متأملاً في رسالة الكونت ولم يتابع السير ورأى التريث وعدم الذهاب إلى تيطري، إذ كان لا يريد أن يأتي حصاد مكاسب المعاهدة قبل الأوان وهو لم يستكمل بعد بناء الدولة والجيش ولا يزال أمامه الكثير من المصاعب لتحقيق الوحدة الوطنية داخل البلاد، فجمع المجلس العسكري لدراسة الأمر وفي هذه الأثناء كان سكان إيالة تيطري يقيمون الزينات ويستعدون لاستقبال أمير البلاد ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، وعندما طال انتظارهم له، ظهر بينهم رجل اسمه الحاج موسى بن حسن ويُعرف بأبي حمارة، جاء هذا الرجل منذ زمن من مصر، فاستوطن بلاد أولاد نائل وأظهر النسك والصلاح وعندما تأخر الأمير في دخول إيالة تيطري جمع أبو حمارة حوله بعض المريدين وخطب في الناس طالباً منهم الطاعة له فقاوموه وأطلقوا عليه وعلى جماعته النار من مدفع كان في حوزتهم من أيام الحكومة العثمانية، فانفجر هذا المدفع فأوهمهم هذا الرجل أن تلك معجزة من معجزاته وكرامة له، فحدث شغب كبير وبلبله وسادت الاضطرابات إيالة تيطري ووصلت أخبار تلك الاضطرابات إلى القوات الفرنسية^١.

وانتظر الأمير عبد القادر ماذا يفعل الفرنسيون مع أبي حمارة وعندما تأكد أنهم صمتوا عن ذلك قرر التحرك نحو تيطري وبخاصة بعد علمه أن عشائر الدوائر والزمالة بدأت تتحرك ضده متشجعة بحركة أبي حمار وأوعز لأخيه الكبير محمد سعيد أن يراقب الفرنسيين من ناحية مستغانم وأرزويو، وإلى البوحمدي وإلى تلمسان أن ينحدر بجيشه نواحي وهران ليشغل حاكمها وتوجه هو إلى تيطري بعد أن وافق المجلس العسكري

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

بالإجماع. ولما علم أبو حمارة جمع جموعه وخطب الناس وواعدهم بالنصر، وقال لهم: آية نصرنا ستكون أن مدفع ابن محيي الدين لن يعمل فينا، وأن باروده عند المواجهة سيصير ماء. ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد.

وقرر الأمير مواجهة أبي حمارة واتخذ هذه المواجهة عملاً تربوياً للقضاء على الخزعات التي تشوه الإسلام والبدع والتقى الجمعان في بلاد وامري وكان قد شاع بين الجنود تخوفهم من كرامة الدجال المزعومة فألقى الأمير فيهم الخطاب التالي الذي برهن فيه عن سخطه على الخزعات والدجل والبدع وحرصه على تحرير أبناء بلاده من ظلمات الجهل ليدخل بهم بوابة الحضارة والعصور النيرة، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه، أما بعد فاعلموا أن الحق تعالى قلدي هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خير هذا الرجل فإن تركته وشأنه أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة، وينشأ عن ذلك من المفساد ما يعسر علينا إصلاحه، هذا وإني أختبر أمره الذي كاد أن يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم إلى تشتيت الشمل وتبديد الجمع، وذلك إني أطلق عليه مدافعي فإن كان الأمر كما زعم، فأنا أول مطيع له بعد اختبار أحواله من جهة الشرع وإن كان الأمر يخالف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الوقت^١، ثم أمر بالزحف وإطلاق المدافع على أبي حمارة، فلما نزلت القذائف على جموعه انهزموا بعد أن تصوروا أن كرامة قائدهم ستجمد القذائف في مدفعها، وتفرقوا في الجبال والأودية، وفر الدجال تاركاً نساءه وأولاده وسائر سلاحه وعتاده في مخيمه، وانطلق جنود الأمير يطاردون فلول الضالين، وشعر الأمير بالخداع القبائل التي تحارب مع الدجال، وفتح لرؤوسائها المجال للاتصال به عندما علم برغبتهم فتقدموا منه وطلبوا منه العفو، وبينوا له أنهم كانوا واقعين تحت سحر كراماته المزعومة، فعفا عنهم، وجاء الطلب من أبي حمارة برد نساءه وأولاده له، فاستجاب الأمير لطلبه، ثم

^١ المصدر نفسه، ص: ٤٩٥.

توجه الأمير إلى المدينة فدخلها وجاءته الوفود من سائر أنحاء الولاية فبايعته، وبعد أن قام بإصلاح شؤونهم عين خليفة على الولاية وهو السيد محمد البركاني.

وشاع خبر هذا النصر العظيم وحاول الجنرال تريزل أن يتخذ من سيطرة الأمير على ولاية تيطري نقضاً للمعاهدة وطالب بشن حرب على الأمير، لكن الحاكم العام رفض مقترحه قائلاً: لست مأموراً من الدولة بنقض المعاهدة وغير مستعد الآن لفتح باب الحرب ويجب علينا أن نتعامل مع الأمير بالحكمة، ونسعى معه لتجديد المعاهدة مادام في المدينة التي استولى عليها وعلى إيالتها ونتغاضى عما فعله ونتجنب الصدام به، فوافق أعضاء قيادته على ذلك^١.

٩. الحكومة الفرنسية تسعى لتعديل بنود المعاهدة:

في الرابع من يوليو عام ١٨٣٦م وصل وفد من الحكومة الفرنسية برئاسة سنت أيبوليت وبندران يحملان هدايا فاخرة إلى جانب صورة عن تعديل بنود في معاهدة دي ميشيل حررها مستشارون سياسيون وعسكريون ونص هذه الشروط:

- يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على أفريقيا.
- تكون سلطة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران المحدودة بنهر الشلف ونهر أرميو إلى كوجيلة.
- تعطى الرخصة العامة للإفراج للسفر في سائر جهات البلاد.
- إعطاء الحرية التامة للتجارة الداخلية.
- لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الغلال والبضائع إلا في الأساكن التي بيد الفرنسيين.
- يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للأمن على ذلك.

^١ المصدر نفسه، ص: ٤٩٦.

ومعنى هذه الشروط تجريد الأمير من أي نوع من أنواع السيادة وجعله مجرد موظف في الإدارة الفرنسية^١.

استقبل الأمير الوفد ثم أمر بإكرام قادتهم بتقديم واجب الضيافة، وتركهم للاستراحة وطلب اجتماع المجلس الاستشاري المكون من اثني عشر رجلاً بما فيهم الأمير، وبعد جلوسهم قرأ عليهم رسالة التعديل، فكان رأي كل منهم مطابق للآخر، وهو أن الجنرال تريزيل لم يعد أمامه سوى خيار واحد وهو الخضوع لسلطة الدولة الجزائرية في كل ما يتعلق بداخل البلاد، وأن الأمير يستطيع فعل ما يشاء لذلك يريد الآن تعديل المعاهدة بشكل تصبح فيه لاغية، وقال الأمير عبد القادر مخاطباً أعضاء المجلس: نحن الآن في مكانة ممتازة بفضل جهادنا، أما طلب اعترافنا بسيادة فرنسا في البند الأول فهذا أمر مستحيل^٢. ثم جلس وراء مكتبه الخشبي وأمسك بريشته وكتب بخط يده جواباً على المقترحات واحتججه بشدة على تعديل بنود المعاهدة وأنه يراه خرقاً صارخاً لمعاهدة ديمشال وكتب: لقد أعطينا أمراً لوكيلنا ميلود بن عراش ليؤكد لكم عن أفضل الطرق لإقامة الهدوء بيننا وبينكم ونطلب:

. أولاً: الاستمرار بالوضع الراهن.

. ثانياً: رفضنا طلبكم باعتبار ملك فرنسا ملكاً على أفريقيا.

. ثالثاً: إن البند الأول في المعاهدة ينص على التوقف على الحرب بيننا وبينكم فقط، ولا ينص على الاعتراف بسلطة فرنسا.

وختم الرسالة ولم يسلمها إلى الوفد إلا بعد أن اصطحبه برحلة استعراضية إلى إقليم تيطري ووهران، وظهر الضابط سانت هيوليت، وعند دخول موكب الأمير إيالة تيطري كانت أشعة الشمس في طريقها إلى المغيب وراء الأفق، ولكنها أضفت على هذا الموكب الكثير من المهابة وأخذت زغاريد النساء تسمع من بعيد، وطلقات البنادق تختلط

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٧.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٦.

بأصوات الرجال "الله أكبر" تعلن عن قدوم موكب أمير البلاد الرسمي، تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم ظهر أمير البلاد ببرزه الأبيض ممتطياً صهوة جواده الأسود وقد مرّ وسط الزحام الشديد وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً: ما هذه القوة الإلهية والسياسية الحكيمة التي جعلت أميرنا يتخذ من أعدائه أتباعاً له، وليس ببعيد عنه يجعلهم يستسلمون له ويعتقدون أن أي مقاومة له تعتبر مجرد جنون.

عاد الوفد إلى مدينة الجزائر مبهوراً بقوة أمير البلاد وشعبيته التي تفوق الوصف، وسلموا الرسالة الجوابية إلى الكونت وبعد قراءتها كتب فوراً رسالة جوابية قال فيها: بعد التحية والتعظيم، قد وصلني من سموكم بيد رسولي السنت أيوليت ومن الأفضل إجراء مباحثات معكم شخصياً عن قرب ويمكن أن يكون في مدينة وهران، لقد أراد الحاكم بعد هذه الرسالة الاجتماع بالأمير في مقره ولكن تريزيل أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة لأنها خطوة تفسر بضعف الدولة الفرنسية، عدا عن التزلف للأمير عبد القادر وهذا فعل في غير مصلحة فرنسا، فاقتنع الكونت وترك الأمر للجنرال تريزيل^١.

١٠. حاكم وهران تريزيل ينقض معاهدة ديمشال:

وما إن غادر الكونت وهران حتى راح تريزيل يطبق خطة تآمرية مستفزة للأمير عبد القادر، وفكر فوجد في عشائر الدوائر والزماله ضالته فأخذ يغريهم بالأموال والحماية، فأذعنوا والتحقوا بالسلطة الفرنسية، وكتبوا وثيقة استسلموا فيها إلى القوات الفرنسية، وأصبحوا بموجبها رعايا فرنسيين، وبعد توقيع الاتفاق عيّن الجنرال تريزيل مصطفى بن إسماعيل قائداً عليهم ومحمد المرازلي نائباً له، وجندهم جميعاً وسلحهم بأحدث الأسلحة ووهبهم الرتب العالية والميزات المغرية ودخل على الأمير في أحد الأيام أربعة رجال من مخبرات دولته وأعلموه بأمر تلك القبائل وذلك الاتفاق الخطير، فأرسل على الفور كتاباً

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٨.

إلى مصطفى بن إسماعيل زعيم قبيلة الزمالة يذكره بالقسم الذي أقسمه على مبايعته عام ١٨٣٢م ويذكره أيضاً بأنه مسلم جزائري عربي، وقول الله تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا لَهُمْ عُرْسًا وَإِنتَاعًا" (النساء، آية : ١٣٩).

وقوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة، آية : ٢).

ثم طلب منه الرجوع إلى منازل القبائل قرب تلمسان^١، ولم يكتف الأмир بإرسال هذا الكتاب إلى الزعيم مصطفى بن إسماعيل والزعيم المرادي، وإنما بعث خطاباً إلى شيوخ تلك القبائل وعممه جاء فيه: أما بعد، فليكن في علمكم جميعاً أنه طالما قد نصحناكم ووعظناكم وبيننا لكم ما يجب عليكم شرعاً أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا إليه، والآن بلغ السيل الزبى، فلا بد أن ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها آباؤكم، وتتركوا منازلكم التي أنتم فيها الآن وترجعوا إلى منازلكم الأولى بقرب تلمسان، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم لما يحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته^٢.

ورفض هؤلاء عرض الأмир فاتصلوا بالجنرال تريزيل طالبين الدعم المادي والعسكري والدعم الفرنسي وبعث بمطالبهم إلى الحاكم العام للموافقة على ما تم الاتفاق عليه بين القبائل المتمردة والجنرال تريزيل، وعبر الحاكم العام عن تحفظه للجنرال وأرسل مبعوثاً خاصاً للأمر يفوضه حول هذه المسألة، لكن تريزيل أخبره غاضباً بأن يعتبره مستقيلاً من منصبه في حال إصراره على رفض التعهد بحماية القبائل المتمردة على دولة الأмир عبد القادر، فاضطر الحاكم العام للموافقة على اقتراحه، وجاء رد الأмир حاسماً في رسالة أرسلها للحاكم العام جاء فيها: إن ما قام به حاكم وهران مخالف لنصوص معاهدة ديمشال، التي تنص على أن هروب رعية أحد الطرفين يردده للآخر. إن الحكومة الفرنسية

^١ المصدر نفسه، ص: ٧٨.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

ملزمة بأن ترد إليّ كل مذنّب هارب ولو كان رجلاً واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيّتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي والآن أبلغك البلاغ الأخير إنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديماً، وإلا فيني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى أنهم لو أدخلتهم إلى وهران لقلّة دينهم فلا بد أن ألحقهم وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم فإن كنت لا بد مصراً على موقفكم فاطلب وكيحكم من عندي واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد^١.

كان للغة المادة والمكاسب الدنيوية والمراكز الفانية والمغريات التي قدمها الجنرال تريزيل لزعماء القبائل المتمردة أثرها، وجمع مصطفى بن إسماعيل الناس في إحدى الساحات وخطب فيهم قائلاً: إن الفرنسيين سيقدمون لنا كل ما اتفقنا عليه من الهبات والأموال والمواشي والحماية أيضاً والسلاح وإنني اعترفت خطأ برئاسة ملك فرنسا على البلاد ومحاربة كل من يقف في طريق ذلك^٢.

١١. إعلان الحرب:

دعا الأمير عبد القادر مجلس الشورى والمجلس العسكري لاجتماع طارئ فور التأكد من هذه الأخبار، وبعد مناقشة هذا الوضع المستجد، أقر الجميع الخروج إلى المساجد وكان يوم الجمعة وبعد الصلاة اعتلى أمير البلاد المنبر، وخاطب الناس قائلاً: كلكم تعلمون أن الله قال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ" (الأنفال، آية: ١٢٣). إن هؤلاء المحتلين لا عهد لهم ولا ذمة عاهدناهم فنكثوا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا وهدموا هذا الصرح الإسلامي العريق من أساسه على حين غفلة،

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٩.

وها هم قد خدعوا قبائل الدوائر والزمالة من ضعيفي الإيمان والنفوس وفقدان الشعور بالكرامة.

أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلم جميعاً إلى الجهاد، ومن قتل منا قضي شهيداً، ومن بقي حياً نال العز وثواب الجهاد.

ثم رفع سيفه وهزه ثلاث مرات وقال: إن كل حفنة تراب من أرض الجزائر هي أرض محتلة، فصاح الرجال بصوت واحد: "الله أكبر" وصاحوا: إننا نعاهدك يا ناصر الدين على الشهادة أو النصر.

خرج نداء الحرب من المسجد مدوياً وعلا نشيد المقاومة يملأ الآفاق، وأسرع الكثير من الرجال لتسجيل أسمائهم في الديوان العسكري، وتقدموا شيوخاً وشباباً تمهيداً للانضمام للجيش النظامي^١.

أ. معركة المقطع وانحزام الجنرال تريزيل:

في الأول من أيام سنة ١٨٣٦م سار الأمير على رأس جيش من ألفي فارس وألف من المشاة لملاقاة الجنرال تريزيل الذي بدوره خرج من وهران بفرقة من الخيالة وخمسة آلاف جندي وأربعة مدافع جبلية وعدد كبير من المركبات الاحتياطية، تتقدمهم مجموعات من الدوائر والزمالة، هذه المعلومات نقلت إليه عن طريق جهاز مخابرات دولة الأمير وأكدت له أيضاً أن قوات العدو وصلت إلى تلال مدينة وهران نظّم الأمير قواته بأن جعل البوحميدي قائداً للمشاة في الميمنة وبو شقور قائداً للميسرة، وجعل مكانه هو في الوسط وخيم السكون برهة من الزمن، ثم نودي الله أكبر، وملأت أصدااء هذه الصيحة الروابي والأحراش وإذ بهدير مدافع الفرنسيين يصم الآذان، وبدأت معركة حامية الوطيس، كان الفرسان المجاهدون من مهرة الرماة، فحاصروا العدو من كل الجهات وتغلبوا عليه.

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٠.

وأخذ الفرنسيون المنهزمون يتسارعون إلى داخل الأحرار من دون تنظيم تاركين وراءهم أسلحتهم ومعداتهم الحربية وقتل منهم عدد كبير وكما ذكر المؤرخون أمثال الدوق أريون: كان من القتل الكمندان أودينو بن المارشال دون دي تريجو، مما أثر سلباً في معنويات الجنود الفرنسيين واحتل الأمير منطقة سيله، وسيطرت قواته على جميع تلك النواحي، وقد قام القتال يومين متتالين دون توقف وقد أجهد العطش المجاهدين، إذ طال عليهم القتال، لكن الله أكرمهم بالنصر، واستمر العدو منهزماً إلى وهران عن طريق أرزيو، فخطط الأمير لملاقاته عند نهر هبرة المعروف بالمقطع، واختار عدداً من الفرسان الأشداء وبينهم عمه علي بو طالب، ففاجأوا الجنرال تريزيل مع من تبقى معه من قواته قرب النهر، فدبّ الذعر في القوات الفرنسية المنهزمة، وأخذ بعضهم يرمي نفسه في الماء لدى سماعهم صهيل خيول المجاهدين، وخاض الأمير ومن معه لججاً من الدماء تحت وابل من الرصاص، وأسرع عدد كبير من جنود العدو الغازي واستولى على سائر العجلات وما فيها من ذخائر، وهكذا استمر المجاهدون على الرغم من التعب الشديد من تمشيط المنطقة.

ولم يجد الجنرال تريزيل مسلماً يسلكه هارباً منهم فاندفع مع من تبقى معه من القوات إلى ساحل البحر يرجو الخلاص، ولكن وعورة المنطقة والجهل بطبيعتها حالت بينه وبين الانسحاب المنظم، ودبّت الفوضى بين جنوده، وغرقت أكثر العجلات بمدافعها في تلك المخاضات الخطرة، واقتحم أكثرهم سبيل النهر تاركين وراءهم قتلى وجرحى كثيرين، وبدأ الليل يجيش بالعمّة وأخذ الظلام المرعب الممزوج بمدير المياه وأصوات الرصاص يملأ الفضاء الرحب، وفي سرعة الوميص، بعد قليل من الراحة، عادت للمجاهدين حماسهم للقضاء على فلول العدو المنهزم، وكان الأمير في المقدمة وتكللت جميع خططه بالنجاح، وتمت هزيمة الجنرال الذي وصل مدينة وهران ليلاً بأسوأ حال متخفياً مع قليل من الجنود المجاهدين الذين استشهدوا في هذه المعركة "المقطع" الآغا قدور بن بحر، ومن أعيان

الجيش العربي خليفة بن محمود الذي كان وكيلاً في مدينة أرزيو، والسيد محمد بن الجيلاني الورغي والسيد محمد المشرفي الذي كان أيضاً من قادة المجاهدين طلب ناصر الدين الأمير عبد القادر أن يتم دفن هؤلاء المجاهدين وفق الشعائر الإسلامية وبعد ذلك اتجه إلى نواحي سيك وبعث بالأسرى والغنائم إلى العاصمة "معسكر" ثم كتب إلى نوابه في مليانة والمدينة يبشرهم بما تحقق من الانتصار وبهذه المناسبة نظم له ابن عمه علي بو طالب الذي رافقه في هذه المعركة، وكان إلى جانبه قصيدة مطلعها:

رمى يا كهف الأنام للعلی

وكل باغ سُقته للردی

بُشرى لك الفتح الذي أحرزته

هنئت بالنصر وإدراك المنى^١

ولما بلغ حاكم مدينة الجزائر المحتلة خبر هذه المعركة أصدر فوراً أمره إلى الجنرال تريزيل بالتخلي عن منصبه كحاكم لمدينة وهران، وعيّن مكانه الجنرال دو لورانج وقال أحد المؤرخين إثر هذه المعارك التي خسر فيها الفرنسيون الآفاً من الجنود بين قتيل وجريح: إن بعض نواب المجلس في باريس أعلن أن احتلال الفرنسيين للجزائر هو من الأعمال الشائنة التي تُضر بسمعة فرنسا^٢.

وقال تيري رئيس الحكومة: إن غزونا الجزائر عملية خاسرة إلى الآن لم تنجح، ولا أقول ذلك انتقاداً لمقدرة قواتنا العسكرية... الخ

وبعد انتهائه من الكلام علا ضجيج النواب في المجلس، واختل نظامه، ثم اجتمعوا مرة أخرى بعد استراحة واتخذوا قرارات منها عزل الكونت دو رولان حاكم مدينة الجزائر وتولية المارشال كلوزيل مكانه، والهجوم على عاصمة الأمير معسكر واحتلالها^٣.

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

^٣ المصدر نفسه، ص: ٧٣.

ب . الأمير يفرض حصاراً على المستعمر ويهاجم مدينة الجزائر:

أرسل الأمير من عاصمته لخليفته بمليانة السيد محيي الدين بن علال وأمره بأن يجمع جيوشه ويهاجم مدينة الجزائر، فانطلق على رأس خمسة آلاف مقاتل فقاموا بتدمير قرى ومزارع الكولون بمتيجة وقتلوا منهم الكثير ووصلوا حتى أبواب مدينة الجزائر، ثم عادوا محملين بالغنائم والأسرى، كما أمر خليفته في تلمسان البوحميدي أن يتحرك بجيشه ويشاغل وهران، وفي أيام استطاع الأمير أن يفرض على المدن التي يحتلها الفرنسيون حصاراً خانقاً^١، وشارك بنفسه في حصار مدينة الجزائر وكان الأمير يعمل على تحقيق مقولته بأنه لن يسمح للطير بالتسرب إلى المدن التي يحتلها الفرنسيون، حتى أضحي هؤلاء الغزاة مغلولي الأيدي وفي أشد الضيق كأنهم أسرى داخل حصونهم يحاولون التخلص من الحصار بشق الوسائل^٢.

ج . معركة مدينة "معسكر" عاصمة الأمير:

وصل الجزائر الجنرال كلوزيل مصحوباً بالدوق دورليان ولي العهد الفرنسي، وأحضر معه إمداداً عسكرياً هاماً وفي الحال قرر التوجه لوهران واحتلال عاصمة الأمير، وعلم الأمير في الوقت المناسب بتوجه العدو^٣، وجمع الأمير المجلس العسكري ومجلس الشورى وعقد جلسة عمل قال فيها: لقد بلغني أن المارشال الجديد يستعد لاحتلال هذه المدينة ظناً منه أنه بذلك يكسر شوكة قدراتنا ويضعف معنوياتنا، وباعتبار أن مدناً من أجمل مدن العالم، وبصورة خاصة تلمسان ومعسكر هذه المدينة الرائعة التي تحتل موقعاً جغرافياً مميزاً، فإذا أراد العدو الوصول إليها سيصل منها بعد قطع مسافات واسعة من السهوب المتعرجة والوعرة المسالك. وكما علمت أن إمدادات ضخمة وصلت كلوزيل، وأنه مصمم على دخول عاصمتنا، وأنا لا أريد حرباً تقوم بداخلها تزهق فيها أرواح السكان الأمنين

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

^٢ الأمير عبد القادر سيرة مجيدة، ص: ٧٥.

^٣ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

وحامية حصن سعيدة لا تستطيع الصمود أمام اثني عشر ألف جندي مدرب، لذا أقترح ترك كلوزيل بداخلها ولكن قبل ذلك نخليها من السكان، فإذا دخلها وجدها خالية وإذا طال احتلاله لها قال أحد أعضاء المجلس مجيئاً الأمير: حينذاك نعد هجوماً كبيراً على مدينة الجزائر لنخرجهم منها ونستنسخ فرصة ابتعاد عشرات الآلاف من الجنود الذين كانوا يجمعونها مع قادتهم سأل آخر: ما الغاية من هذه الخطة أجاب الأمير: أولاً: المحافظة على السكان من شيوخ وأطفال.

ثانياً: إنقاذ هؤلاء السكان من ويلات الحرب داخل المدينة، والتي ستكون حرب شوارع تهدم أثناءها الدور وتخترق المتاجر ومن لم يمت بقنابل المحتلين سيموت فزعاً ورعباً من أصواتها التي تسبب الأذى لآذان الأطفال وربما تصيبها بالصمم، هذا إذا نجوا من الحرائق والقتل برصاص المحتلين.

ثالثاً: إذا جمعنا قواتنا وحاولنا منعهم من الوصول إلى هذه المدينة فشلنا لا سمح الله، بهذه الحالة ألا يخرج كل مسؤول منا أهله وعائلته منها قبل دخول الأعداء، ويبيدهم عن ساحات القتال إلى أمكنة آمنة؟ كما هي العادة في مثل ظروف كهذه الحالات، فأنا شخصياً أشعر بأن كل أم مؤمنة من هذا الشعب هي أُمِّي، وكل أخت هي أختي، وكل أب هو أبي وأخي، فالذي أريده لعائلي أريده لكل عائلة في هذا الوطن.

رابعاً: إذا جهزنا أنفسنا للدفاع عن المدينة والوقوف في وجه اثني عشر ألف جندي مهاجمين، واستطعنا الانتصار عليهم وإجبارهم على الانسحاب بعد أيام، أو ربما أسابيع، ولاشك أن كلوزيل سيعيد الكرة للمرة الرابعة وكم ستكون أعداد الخسائر من الشهداء، وما سيكون حجم التدمير لمدينتنا، وبحال فشلنا في إنقاذ مدينتنا ودخلها كلوزيل منتصراً بعد تكبيدنا خسائر فادحة ماذا نكون قد ربحنا؟ فخيم الصمت على المجلس ثم بعد دقائق رفع أكثر الرجال من أعضاء المجلس أيديهم بالموافقة على الخطة.

وبسرية تامة تم نشر الأوامر بإخلاء المدينة وبطريقة نظام البريد المتحرك، يعني كل جار يخبر جاره، وكل زميل يخبر زميله وأمسك الأمير بيد والدته يساعدها العربة التي كانت أمام داره، فسارت بجميع أفراد عائلته ليلاً نحو قصر كاشرو، وهو قصر قديم شيد في غابة. وهي أرض ملكاً لعائلة الأمير منذ غابر الأزمان وتقع على بعد أميال من مدينة معسكر بناه أجداد سيدي محيي الدين والد الأمير منذ قرون، كان بناؤه على الطراز الأندلسي عدد غرفه ثلاثة وأربعون غرفة، وعدد من الحمامات، وخارجه إسطبلات واسعة للخيول، وبئر ماء وكان لا زال صالحاً وماءه عذب، واستضافت عائلة الأمير في هذا القصر عدداً كبيراً من الأقرباء والجيران وصل كلوزيل إلى مشارف مدينة معسكر بعد ثلاثة أيام من السير، ولم يصادف أي كائن في طريقه أو صعوبات كبيرة ودخلت قواته المدينة فوجدتها خالية من الحركة، وكأنها مدينة أشباح، كانت المتاجر مغلقة وعندما فتحت بالقوة وجدت فارغة، لا أسواق لبيع الخضار والفواكه ولا مخازن ولا مطاحن تعمل، والمخافر خالية من الحرس، حتى المياه كانت مقطوعة وكانت قوات كلوزيل تكاد تسقط من الإعياء والعطش والجوع وكان يأمل ويمنيّ جنوده بغزو المخازن وحوانيت الأطعمة فور وصولهم المدينة، وقبل دخولهم في معارك لاحتلال المدينة وإجبار الأمير عبد القادر على الاستسلام وخروجه من عاصمته إما أسيراً أو قتيلاً، ولكن كلوزيل لم يجد أحداً يقاتله في المدينة، وكما يذكر المؤرخون أن اليهود فقط من سكان المدينة رفضوا تركها، وعندما دخل كلوزيل أسرعوا بالمشول بين يديه وقدموا الطاعة ولكن لم يقدر أن يفيدوه بشيء، ولم يتمكنوا من تهدئة روعه من هول المفاجأة لأنهم كانوا أعجز من معرفة فكر الأمير وما كان يخطط له، فشاركوا كلوزيل في شكوكه الذي لم يأمر جنوده بدخول أي دار خوفاً من مفاجأة قاتلة تنتظرهم بداخلها، ولم ينم كلوزيل تلك الليلة وهو يذرع أرض غرفة أحد المخافر التي اختارها وهو يفكر ويتساءل عن سر فراغ المدينة من السكان وظن أن هناك مخططاً لإفناء قواته، فأخذت الشكوك والهواجس تملأ رأسه، وفي

صباح اليوم التالي أمر جنوده بالانسحاب من المدينة والعودة بما بقي معهم من المؤن الغذائية التي كانوا يحملونها من وهران، واعتبرها كافية حتى وصولهم إلى المقر، انسحب آخر جندي من معسكر يجزّ أذيال الخيبة ويرتجف من البرد وغزارة الأمطار^١.

وصل الأمير أخبار عودة قوات كلوزيل من حيث جاءت وعلى نفس الطريق وكان محتبئاً داخل الأدغال على المرتفعات المحيطة بالطريق، ولم يكن باستطاعة كلوزيل اكتشافها، وعندما شاهد الأمير بمنظاره الحربي جيش العدو يسير ببطء يجر عرباته وخيوله المثقلة بالعتاد وانتظر حتى وصل أمامه آخر جندي، وأمر القائد مصطفى بن التهامي باصطحاب كوكبة من الفرسان ليخبروا سكان مدينة معسكر بزوال الخطر ويساعدهم على العودة إليها حذر الأمير المجاهدين من إطلاق أي رصاصة على جيش العدو، ثم أمر بالتحرك داخل الأدغال بهدوء، والتخفي بأغصان الأشجار، كان جيش العدو يسير على الطريق وفوقه على المرتفعات، الآف المقاتلين يسرون بسرعة أكبر لقطع الطريق عليه، ولم يأمر أمير البلاد بالهجوم إلا بعد أن عمّ الظلام، حينذاك انهمال الفرسان على الجند الذين فوجئوا بالهجوم فأخذوا يضعون المتاريس يختبئون وراءها ويطلقون النار على غير هدى، فدبت الفوضى بينهم، فوصلت أخبار الهجوم إلى كلوزيل الذي كان يسير في مقدمة جيشه، فعاد ونظم صفوفه، ولكن قوات الأمير كانت أسرع بالهجوم عليه من مواقعها في أعالي الهضاب غير مباليين بقنابل المدفعية وأصوات الرصاص، فهجموا على عربات المدفعية واستولوا عليها والتحم الفريقان حتى منتصف النهار وكثر عدد القتلى في جيش كلوزيل فأمر بالانسحاب، فكان جنوده يفرغون العربات من العتاد والذخيرة ويضعون مكائحاً جرحاهم، ويفرون نحو طرق وعرة، واكتفى الأمير بهذا الانتصار والدرس الذي كبّد فيه كلوزيل خسائر فادحة، وكانت قواته بأشد الحاجة إلى الراحة، فعاد بها إلى

^١ الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٦.

المخيم، فوصله ليلاً، وكعادته قبل دخول خيمته توضأ وصلى جماعة صلاة العشاء بعد سماعه صوت مؤذن المعسكر، وسجد شكراً لله.

وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر أمر بالاستعداد للرحيل والعودة إلى العاصمة، فأطلقت المدفعية كالعادة ثلاث طلقات إشارة للرحيل والعودة إلى العاصمة، ولبت الأمير بينهم برهة من الوقت ترفع أثناءها أعمدة الخيام وتحمل الذخائر ويمتطي الفرسان صهوات جيادهم، وعادة الأمير دوماً بعد هذه الاستعدادات الخروج من خيمته والقفز على جواده ثم يشب به وثبتين، ثم يتقدم الجيش بالمسير، عمت الأفراح بالمدينة عندما وصلت أخبار بقدم طلائع الجيش الجزائري، وظهر الفارس المنتصر إنه ناصر الدين الأمير عبد القادر ابن محيي الدين على أبوابها، فعلت أصوات النساء بالزغاريد والرجال بصوت واحد "الله أكبر" واصطف رجال المراسم بألبستهم العسكرية بعودة أمير البلاد إلى عاصمته^١.

د. توالي المعارك بين الأمير والمرشال كلوزيل:

علم الأمير عبد القادر بواسطة عيونه أن المرشال كلوزيل قرر الهجوم على تلمسان وأنه أرسل عملاءه من قبائل الدوائر والزمالة لفتح الطريق له، فقرر الأمير تطبيق نفس الخطة التي طبقها في مدينة معسكر، وذلك بإخلاؤها من سكانها الذين غادروها بما خف وزنه من الأثاث والمتاع، ووصل كلوزيل تلمسان يوم ١٣ / ١ / ١٨٣٦م على رأس جيش ضخم من ١١٠٠٠ جندي فوجد الأمير في استقباله ودارت المعركة من الفجر إلى الزوال، وخرج الذين كانوا متحصنين بالقلعة وفتحوا أبوابها للعدو يوم ١٢ يناير فمكنوه من احتلال المدينة، وفرض كلوزيل ضريبة باهظة على السكان حتى على عملائه وذلك قصد تغطية نفقات الحرب واضطر الناس لبيع مجوهرات نسائهم لدفع الضريبة وكان المرابي اليهودي لازاري وسيطاً يشتري المجوهرات بأبخس الأثمان وكانت خسارة العائلات مضاعفة وشارك في هذا النهب الضابط المملوكي التركي العميل يوسف، فضج الناس من

^١ الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٧.

ذلك، وقد كتب الضابط بيلسييه دي ريننو على ذلك فقال: كل هذا تم باسم فرنسا، لقد كان الجيش يشعر بالعار والخذلان^١، وبقي الأمير يترصد خروج كلوزيل من تلمسان، وخرج بعد أن ترك حامية بها قاصداً وهران ووجد جيش الأمير أمامه ودارت معارك بين الطرفين لمدة عشرة أيام وهزم كلوزيل ولم يتمكن من الوصول إلى وهران فعاد إلى تلمسان وتحصن بقلعتها وبقي بها أياماً، ثم حاول الخروج منها فالتقى به الأمير وحاربه وألحق بقواته خسائر كبيرة وصمم كلوزيل على التقدم سالكاً طريقاً آخر عبر الساحل فوصل مرسى رشكون وتحصن بها فحاصره الأمير مدة شهرين كاملين قضاها في مناوشات قتالية وعندما يئس من التقدم بقواته براً استنجد بنائيه فأرسل له مراكب نقلته مع جيشه بحراً بعد أن حمل ما أمكن حملة من العتاد.

غادر كلوزيل وهران إلى الجزائر بعد أن نصّب الجنرال دار لانج والياً عليها والجنرال بيريجو قائداً على الجيش.

كانت قبائل حجوط مستمرة في حملاتها على الكولون والمراكز العسكرية في المتيجة، والباي العميل ابن عمر هرب من مليانة وهو يعيش بالجزائر، والعميل محمد بن حسين الذي عينه الحاكم العام بابا التيطري ثار عليه المواطنون فهرب وتخفى في مطامير للحبوب، فأرسل كلوزيل قوة إلى المدية ضمن حملة دامت ١٢ يوماً من ٢٩ / ٣ إلى ٩ / ٤ / ١٨٣٦م، فاحتلها وترك عليها العميل الباي بن عمر وتركت له كمية من السلاح والعتاد لكن هذه الحملة فشلت فما إن عاد الجيش للعاصمة حتى ثار سكان مدية على الباي العميل واعتقلوه وساقوه مكبلاً إلى الأمير، خرج الجنرال بيريجو من وهران على رأس ٣٠٠٠ جندي نحو تلمسان وتمكن من ربط الصلة بهذه القوات بين المدينتين، وعلم الأمير فانتقل إلى ندرومة ليتمكن من مراقبة تحركات العدو، واتصل بالقبائل التي كانت تقيم بوادي تافنة ورتب قواتها ووزعها على مواقع اختارها، ثم هاجم العدو بغتة يوم ٧

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٢.

نيسان . أبريل وألحق به خسائر كبيرة اضطره إلى أن يتخذ خطة دفاعية على شكل مربعات متجهاً إلى وهران ١، وكان الأمير يقوم بالهجوم على أطرافها يقتل ويأسر ولم يصمد المدفعيون الفرنسيون للهجوم فتخلوا عن بطارياتهم التي غنمها المجاهدون وبعد عناء كبير تمكن الجنرال من الوصول إلى وهران ولكن بعد خسائر كبيرة في الجنود والعتاد. بعد هزيمة الجنرال بيريجو قررت الحكومة الفرنسية إرسال ٣٠٠٠ جندياً وعلى رأسهم بوجو إلى وهران لمحاربة الأمير وفي ١ / ٧ / ١٨٣٦م توجه إلى تلمسان لفك الحصار عن حاميتهم المحاصرة من الأمير، وعندما التقى بالأمير دارت معركة في واد سكاك غير متكافئة يوم ٦ / ٧ / ١٨٣٦م هزمت فيها قوات المسلمين، وتمكن بوجو من فك حصار تلمسان وربطها بوهران، وعاد لها فأخبر باريس بانتصاره.

قام الأمير بجمع جموعه وفرض حصاراً طويلاً على تلمسان دام تسعة أشهر، لدرجة أن كافينياك قائد الحامية الفرنسية بما قال: كنت أشتري القط الواحد للأكل بأربعين فرنكاً. ويروى أن الأمير قرأ صحيح البخاري في هذا الحصار أربع مرات وفي أثناء الحصار علم أن الأتراك بالمدينة قد تمردوا وأثاروا الفتنة، فترك قيادة الحصار لابن عمته مصطفى بن التهامي، وتوجه على رأس كوكبة من فرسانه إلى المدينة فأنزل العقاب على رؤوس الفتنة وأعاد النظام لها وولى عليها أخاه مصطفى بن محيي الدين ثم عاد إلى تلمسان وهكذا تمكن الأمير بعقريّة عسكرية وتنظيمية فذة من ومواجهة كل هذه المشاكل وإيجاد الحلول لها، كان يقطع مئات الكيلومترات حاثاً القبائل على الصمود والتنظيم، ويقوم تحت الخيمة أشهراً محاصراً للعدو دون كلل ٢.

وقد لخص المؤرخ الفرنسي ألكسندر بالمار هذا كله فقال: لقد تمكن الأمير عبد القادر من إعادة بناء قوته التي اعتراها التفكك والتلاشي ثلاث مرات:

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٣.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٤.

الأولى: عندما استولى الجيش الفرنسي على عاصمته.

الثانية: عندما غزا تلمسان.

الثالثة: بعد معركة سكاك. وكل حادثة من هذه الحوادث كانت كافية لإسقاط أعظم سلطان، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل منه فرنسا على طائل. ولهذا فإني أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة لا تفارق ذاته طرفة عين، ومن هنا نعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوة^١.

كان الأمير عبد القادر في حروبه يهتم بأخلاق الفرسان ويأمر جنوده بعدم التمثيل واحترام الأسرى، فقد كانت العادة عند القبائل في تلك الأصقاع قطع رأس العدو وتقديمه على حرية للزعيم أو القائد، وكان لكل رأس مكافأة، ولكن أوامر الأمير عبد القادر منذ توليه قيادة حكم البلاد كانت تقضي بأن يجلد كل مقاتل يحمل رأساً، وبتقديم مكافأة مجزية لكل من يأتي بأسير حياً وهذا قرار اتخذته منذ اليوم الأول ووضعه ضمن قوانين الجيش وكانت تعليماته إلى كل مقاتل يأسر جندياً فرنسياً أن يحسن معاملته وكان هذا القرار من طرف واحد.

أما العدو فقد كان يقوم بأعمال يندى لها جبين الإنسانية بالنسبة للأسرى والمواطنين على حد سواء، من هذه الأعمال قطع رأس الأسير أو جذع أذنه وكانت تُعطى علاوات للجيش، منها علاوة ١٠ فرنكات لكل جندي فرنسي عن كل أذن لأسير جزائري. ولم يبطل هذا القانون إلا في عهد نابليون الثالث. كتب أحد الجنود الفرنسيين رسالة إلى قائده الجنرال مونتياب جاء فيها: قطعت رأسه وعصمه الأيسر وجئت إلى المعسكر أحمل رأسه على حرتي ومعصمه معلق بسوار بندقيتي تلك هي الطريقة التي يجب أن نحارب بها العرب، يجب ترحيل جميع العرب من هنا إلى جزر الماركيز، يجب سحق من لا يركع تحت أقدامنا^٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٠٤.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٨.

١٢. مقاومة أحمد باي بنواحي قسنطينة:

عندما استقر الأمر لأحمد باي في مدينة قسنطينة جمع أعضاء الديوان وتباحث معهم في المسألة المتعلقة باعتراف فرنسا باياً على أن يواصل دفع الجزية إليها، فكان رد جميع أعضاء الديوان هو الرفض لأن قسنطينة تابعة لباشا الجزائر وتمثل لأوامره وهي بدورها تتمثل لأوامر إسطنبول ولهذا لا بد من الكتابة إلى السلطان محمود الثاني والحصول على موافقته، وفي هذه الأثناء علم أحمد باي أن القائد الفرنسي في الجزائر قد عزله من منصبه وعيّن في مكانه سي مصطفى شقيق باي تونس، وبذلك صارت قسنطينة تابعة لتونس حسب رأي الجنرال كلوزيل الذي كان يحكم الجزائر وهذا هو الذي دفع بالباي أحمد أن يعيّن بن عيسى خزانجياً أي أمين الخزينة، ويضرب النقود باسمه.

وعندما تمكنت فرنسا من ميناء عنابة بدأت تهدد أحمد باي بالإطاحة به وأرسلت جيشاً قوياً بقيادة كلوزيل للقضاء عليه ولذلك جند أحمد باي ١٥٠٠ رجل من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان واستعد لمواجهة الجيش الفرنسي في وواد الكلاب واد الأحد الذي يوجد تحت سيدي مبروك، لكنه انسحب إلى مدينة قسنطينة عندما شعر أنه غير قادر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى، وبناء على ذلك استدرجهم الباي أحمد إلى المدينة ثم هاجمهم من الخلف ومن داخل المدينة وألحق هزيمة بالفرنسيين الذين قهرتهم الطبيعة حيث إن الأمطار الغزيرة التي تهطلت في تلك الأيام قد ساهمت في التأثير سلبياً على خطط الفرنسيين واعترف الحاج أحمد باي أنه كان على استعداد للتفاوض مع الجيش الفرنسي والاحتفاظ بمرتبه كباي، ولكنني عندما رأيت أنهم جاءوا بباي ليستبدلوني وأكثر ليهينوني إذ اختاروا لهذا الغرض مملوكاً من تونس، ولم أعد أرى شيئاً آخر غير المقاومة النشيطة، وهو ما فعلت وقد كان علي أن أفعله من قبل ١، وبدون شك فإن هذه الهزيمة الثقيلة التي لحقها الحاج أحمد باي بالفرنسيين في عام ١٨٣٦م هي التي دفعت الجيش

^١ المصدر نفسه.

الفرنسي إلى إعداد جيش ضخم يتكون من ١٦٠٠٠ جندي يقودهم كبار جنرالات فرنسا المعروفون بقدراتهم القتالية تحت قيادة دامريمون وفي اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٨٣٧م ابتداء الجنرال دامريموت قائد الحملة الفرنسية ورئيس أركانه بيريقو العمليات العسكرية ضد قوات أحمد باي وذلك انطلاقاً من سطح المنصورة المطلّة على مدينة قسنطينة. وقد حاول أحمد باي أن يعتمد نفس الخطة التي ساعدته على الانتصار في المرة الأولى وهي مواجهة الجنود الفرنسيين من داخل المدينة المحصنة وضربهم من الخلف، لكن هذه المرة لم تنجح الخطة لأن عدد جنود الفرنسيين كبير، وتمكنوا في هذه المرة من معرفة فجوة ساعدتهم على التسرب إلى المدينة واحتلال الثكنة الكبيرة التي كانت توجد بالمدينة، وعندما رأى ابن عيسى خليفة أحمد باي والمسؤول عن الدفاع، أن الفرنسيين تسربوا إلى المدينة وأن المقاومة أصبحت غير مجدية أمر السكان أن يخرجوا من المدينة. وقد استشهد في هذه المعارك محمد بن البجاوي قائد الدار، وذلك بالإضافة إلى شخصيات كبيرة في المدينة، ولكن الشيء الذي ينبغي التذكير به هنا هو أن الجنرال دامريموت ورئيس أركانه بيريقو قد لقيّا حتفهما في بداية المعارك حيث أن الباي أحمد قد صوب مدفعه الكبير الموجود في باب الجديد نحو مكان تجمع القادة الفرنسيين وتمكن من إطلاق النار على الفرنسيين وقتل رئيس العمليات العسكرية ورئيس أركانه وقد خلفه في منصب القائد العام للقوات الفرنسية الجنرال فالي الذي استولى على المدينة فيما بعد، لكن الجنرال كومب مات هو الآخر في معارك قسنطينة وكذلك زميله الجنرال كارامان الذي توفي بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للباي أحمد فإن هذا الاحتلال لمدينة قسنطينة سنة ١٨٣٧م ما هو إلا بداية للمقاومة الجزائرية ضد قوة الاحتلال الأجنبية وبالفعل فقد اجتمع بقادة المقاومة وأعد معهم خطة تقضي بقطع جميع الاتصالات مع مركز القوات الفرنسية بمدينة عنابة، لكن أحد مساعديه المقربين بو عزيز بن قانة فقد سلطته في الصحراء لصالح فرحات بن

سعيد، اعترض على خطة الباي أحمد واقترح عليه أن لا يبقى الجيش في قسنطينة وإنما يتوجه إلى الصحراء حيث يوجد فرحات بن سعيد الذي أصبح يعمل مع الأمير عبد القادر الذي اعترف به شخصياً على قبائل الصحراء وخوفاً من وقوع انشقاق في صفه وافق الباي أحمد، وأثناء ذهابه إلى الصحراء بعث إليه الفرنسيون رسالة يطلبون فيها منه الاستسلام.

ومع أن فرحات بن سعيد كان يعتبر هو الخليفة المعتمد من طرف الأمير عبد القادر على الصحراء، فإنه كان ينوي الذهاب إلى قسنطينة والتحدث مع أحمد باي أو الفرنسيين، إلا أن ذهاب أحمد باي للصحراء حسب نصائح بن قانه دفع بسعيد بن فرحات أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم مقابل أن يعترفوا به كشيخ للعرب وأن يمدوه بجيش قوي ليحارب أحمد باي وبن قانه ولكن الفرنسيون رفضوا اقتراحه هذا وطلبوا منه أن يقوم بهجوم على أحمد باي ويأتيهم برأسه وأنداك يعترفون به وبالفعل دخل مع أحمد باي في معركة حامية الوطيس ضد أعدائه ولكنه انهزم وهرب إلى وادي سوف. ثم إن مرض أحمد باي وعدم قدرته على جمع وتوحيد الصفوف لمحاربة الفرنسيين وتمركز الجيش الفرنسي في كل المناطق، قد أنهكت قواه وأجبرته على التفاوض مع فرنسا والاستسلام لها يوم ٥ جوان ١٨٤٩م. كما هو معروف رفض التوجه إلى فرنسا ومات بمدينة الجزائر سنة ١٨٥٠م وتم دفنه بزاوية سيدي عبد الرحمن.

وباختصار، فإن أحمد باي قد قاوم الفرنسيين لمدة ١٨ سنة وقد ظن الفرنسيون أنه ضعيف نظراً لعدم وجود قبيلة تحميه وتشد أزره لكنه فاجأهم وتحدى جبهة الخونة في الداخل وجبهة باي تونس وقاوم حتى النهاية^١.

وهو صاحب المقولة الشهيرة: لا وطن لي إلا الجزائر، ولا دين لي إلا الإسلام، ولا لغة لي إلا العربية^٢.

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١٩.

^٢ الحاج أحمد باي د. بو ضرساية بو عزة، ص: ٧.

وهو صاحب المقولة الأخرى: إذا كان المسيحيون بحاجة إلى بارود سنزوّدهم، وإذا نفذ خبزهم، سنقسم خبزنا معهم، ولكن حتى وإن بقي أحد منا على قيد الحياة لن يدخلوا قسنطينة ١.

لاشك أن أحمد باي من الشخصيات المتميزة سياسياً وعسكرياً إلا أنه عدم دخوله تحت زعامة الأمير عبد القادر أضعفته وأضعفت موقف المقاومة، وبعد أن توحدت معظم قبائل ومدن الجزائر وأجبرت الدولة الفرنسية على الاعتراف بالأمير عبد القادر، وتبرم معه المعاهدات الرسمية وترسل الدول الأجنبية قناصلها، وعرض الأمير عبد القادر مرات عديدة على أحمد باي بأن ينضم إليه ويتحالف معه كان عليه أن يستجيب لوازع الوحدة وتوحيد الصفوف ضد المحتل الفرنسي.

كان الأمير عبد القادر يحترم أحمد باي ولم يكن له أي خصومة أو بغضاء، وأشاد بجهد أهالي قسنطينة، والشيخ ابن البجاوي ومن معه من العلماء والأبطال والذين أبوا إلا الموت تحت أسوار بلدتهم على الحياة تحت سلطان فرنسا ٢.

١٣. اختراق المخابرات الفرنسية لدولة عبد القادر:

استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرب من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر، فمن المعروف أن الحملات الاستعمارية الكبرى، باتجاه العالم الإسلامي، كانت تسبقها حملات مركزة للجوسسة للتعرف على الأرضية التي سيتم احتلالها، وكان من العادة أن يقوم بالمهمة مجند في أجهزة المخابرات لديه خبرة واسعة بالأرضية وأكبر مثال على هذا الجاسوس بوتان الضابط في الهندسة العسكرية الذي أرسله نابليون بونابرت إلى الجزائر عام ١٨٠٨م وقام بإجراء

^١ المصدر نفسه، ص: ٣٥٣.

^٢ حوار مع عبد القادر الجزائري، ص: ١٠٤.

دراسة دقيقة والتي على أساسها تم احتلال الجزائر، لكن بعد الغزو العسكري سرعان ما اكتشف المحتل أن هناك مساحات كبيرة لم يتمكن من غزوها، فاحتلال الشعوب يقتضي التعرف بدقة على جغرافيتهم النفسية وخريطة عقولهم، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حركة الجوسسة الاستعمارية وذلك بإرسال رجال ونساء حتى يتغلغلوا في الشعوب وينفذوا إلى أعماق النسيج الاجتماعي ويقدم التقارير الدقيقة والوافية عن تجربتهم في الداخل وستظل أسماء مثل ليون روش بارزة في مسيرة حافلة لهؤلاء الذين اخترقوا وتغلغلوا إلى أعماق المجتمع، فلم تكن التقارير العسكرية والأمنية كافية للسيطرة على هذه المجتمعات، بل كان من الواجب النفاذ بعمق في ألياف الحياة الاجتماعية والدينية والتجوال في دروسها والدخول إلى عمق أعماقها، فليون روش الجاسوس، كغيره من الجواسيس ندبته الحكومة الفرنسية في بداية غزوها للجزائر ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام، وأن يتوصل أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته، ففعل ذلك ونجح وأقام معه حوالي سنتين، كان خلالها يبعث بكل تفاصيل دولة الأمير عبد القادر إلى حكومته الفرنسية، ولم يكتف بهذا فقط، بل تخصص في نشب الفتن بين الأمير عبد القادر والقبائل الأخرى، فكان هدفه إضعاف قوة المسلمين وتشتيتها من حول الأمير^١.

أ. قصة دخول ليون روش الجزائر:

ولد بفرنسا بمدينة غرونوبل في يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٠٩م وبعد وفاة أمه كليمونتين شمبانو ذهب عند عمته وبدأ دراسته الثانوية في ثانوية غرونوبل ثم أكملها في ثانوية تورنون ونال شهادة البكالوريا عام ١٨٢٨م وبعدها بدأ دراسته الجامعية في جامعة غرونوبل في تخصص الحقوق وبقي يدرس لمدة ستة أشهر فقط، ثم رحل إلى مرسيليا بعد أن أرسله أبوه للعمل هناك مع تاجر صديق له، فعمل معه وسافر بين فرنسا وشرق أوروبا، وزار

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٧.

العديد من دول شرق أوروبا وكان عمره آنذاك يقارب العشرين عاماً، كان أبوه الفونس محلقاً بخدمات العتاد العسكري في الجزائر منذ الحملة الفرنسية ١٨٣٠م واهتم بالعمل الفلاحي في ضواحي الجزائر واقتطعت له مزرعة في سهل متيجة مساحتها حوالي ٢٠٠ هكتار وكان يقوم بخدمتها بعض الجزائريين، ونظراً لتعدد مهامه، كتب إلى ابنه يطلبه للحضور ليساعده في الفلاحة بعد أن غاب عنه مدة طويلة وجاء إلى الجزائر بعد انقطاعه عن والده لمدة أربع سنوات وعاش في مدينة الجزائر واختلط بالأهالي، الجزائريين والأتراك والكراغلة والحضر وتعلم اللغة العربية على يد رئيس مجلس قضاء الجزائر الشيخ عبد الرزاق بن بسيط وتمكن من اللغة العربية وتحدث بها بطلاقة وتعرف على العلماء والقضاة وأعيان المجتمع وعرض نفسه كمترجم بين الفرنسيين والأهالي وكان تعلمه للغة أمر مدروس ووسيلة مهمة للاختراق الاستخباراتي^١.

ب . مطية الجوسسة:

جعل من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كان قد كلف بها من قبل.

كانت المخابرات الفرنسية أوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة واستغلت المخابرات الفرنسية معاهدة التافنا التي جاء في بندها الرابع على السماح للمسلمين بالعيش أينما أرادوا، ولهم الحرية المطلقة في الانتقال من دولة الأمير إلى الأماكن التي يحتلها الفرنسيون وكذلك يباح للفرنسيين أن يسكنوا دولة الأمير فأوعزت المخابرات الفرنسية إلى ليون روش لمهارته في اللغة العربية ومعرفة تقاليد الجزائريين وثقافتهم، لالتهاق بمعسكر الأمير والتظاهر باعتناق الدين الإسلامي والدخول في وسط جيشه والتقرب منه للتعرف على أحواله والقيام بمهمته، غادر ليون روش مقر أبيه بإبراهيم رايس واستقر عند قبيلة بني موسى في منطقة متيجة وقد كانت تربطهم به علاقة سابقة،

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٨.

إذ كان يخرج معهم في رحلات للصيد خلال السنوات الماضية، وأعلن إسلامه ونطق بالشهادة، وسمي بعمر بن عبد الله. وبدأ بإقامة الصلاة وإعلان الشعائر الإسلامية علناً، ومن بني موسى بدأ ينظم اتصالاته مع بعض الفرنسيين والجزائريين بهدف جمع المعلومات الكافية حول أحوال دولة الأمير عبد القادر الفتية ووصل إلى مدينتي بوفاريك والبليدة وأظهر إسلامه أمام الحاكم لجلب نظره، واستبشر به خيراً، وفرح به أشد الفرح لاعتقاده في أن الله قد هدى نصرانياً من الشرك إلى الإيمان، فاستضافه وأكرمه وقدمه لمرباط المدينة سيدي بلقاسم سيدي الكبير، الذي وثق به على حسن نية، فأقام عنده وعمل على إقناع سيدي بلقاسم بتركته والتوسط لدى الأمير حتى يلتحق به ويقدم خدماته له وعاد ليون روش إلى أولاد سيدي موسى وحمل متاعه في طريقه إلى مليانة ففتحت له الطريق ووصل إلى مدينة مليانة حيث كان يقيم صديقه عمر باشا الذي كان يعلم أن ليون روش ينافق ويتظاهر باعتناق الإسلام، فاستضافه وقدم له النصيح عن كيفية سيرته وأوصاه بالحد في تحركاته والفتنة في سلوكه لكي لا يجلب شكوك المسلمين حوله وفي هذه الأثناء كان خليفة الأمير محمد بن علال غائباً عن المدينة، فاتصل ليون روش بنائيه وكتبه قدور بن رويلة، وشرح له قصته المزيفة عن دخوله في الإسلام وأنه يريد الالتحاق بالأمير عبد القادر ليقدم له خدمات جليلة واستبشر قدور بن رويلة ووعدته بأن يصطحبه هو بنفسه إلى معسكر الأمير ويطلب من الخليفة محمد بن علال أن يقدمه للأمير شخصياً. وعندما سار الأمير عبد القادر إلى الشرق وعسكر على ضفاف وادي نوغة جيء به عند الأمير، فاستقبله فصار يخبره ويؤكد له أنه اعتنق الدين الإسلامي بكل إخلاص وطلب منه الدخول في خدمته^١.

وأمر الأمير عبد القادر أحد العلماء بالاعتناء بهذا الشاب وتفقيهه في أمور الدين الحنيف وقراءة القرآن وآداب الشريعة الإسلامية، وفي وقت قصير أتقن ليون روش هذه العلوم

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٣.

وسرّ الأمير لذلك، واستجاب الأمير لطلبه الزواج من إحدى الفتيات المسلمات، وهكذا أصبح ليون روش مسلماً ومقاتلاً أيضاً إذ كان يشارك في المعارك في تلك الفترة^١. وشرع ليون روش يرتب أمور عمله لأداء مهمته الحقيقية كجاسوس، ووفق في جمع المعلومات ومراسلة الفرنسيين وتعريفهم بأحوال الأمير العسكرية والسياسية وغيرها، ووصف الأمير في تقاريره وصفاً دقيقاً في شخصه ومناقبه ولباسه وأوصافه الجسمية والخلقية والدينية والثقافية وبين عدله واحترامه لتعاليم الإسلام وهيبته واحترام الجنود والمواطنين له ولم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالأمير ودولته وقع عليها إلا أرسلها في تقاريره، وفي بداية عام ١٨٣٨م أثناء إقامته في مدينة تلمسان حين أوفده الأمير عبد القادر ليتعلم القرآن وتعاليم الإسلام شك فيه أهلها من نواياه الحقيقية وأخبروا الخليفة البوحميدي، ولما أحس ليون روش بالعيون تراقبه فرّ إلى مدينة وهران إلى أن وصل إلى خيام بني عامر قرب عين تموشنت، وفي خيمة الآغا انكشف أمره، فاسترجع أدراجه إلى الخليفة البوحميدي، ودافع ليون روش عن نفسه من تهمة الفرار إلى العدو دون إذن مسبق والخيانة العظمى التي تستحق الإعدام، وفضلاً عن ذلك طلب وثيقة سفر ليتوجه إلى الأمير عبد القادر ويشتكي له من قسوة المعاملة التي لم تكن تليق بمكانته واتخذ موقف المهاجم أمام الخليفة البوحميدي وراح يعاتبه على عدم الثقة فيه رغم أنه مبعوث من طرف أمير المؤمنين، وأن قلبه يعمره الحب والرغبة في الإسلام وله الحق كغيره من المسلمين في حسن المعاملة، حينها اعتذر البوحميدي له في أدب ووعدته بمنحه رخصة السفر وتوفير الأمان له إن رغب في ذلك، ولكنه حذره من العودة إلى مثل ما قام به من عملية الفرار وفي شهر فيفري ١٨٣٨م، بعث ليون روش برسالة مطولة إلى جهاز المخابرات فصل فيها النظام الإداري والعرفي الذي كانت تسير عليه قبائل غرب الجزائر وشرح لهم ما عرفه

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٦١.

عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية التي كان يمارسها الأهالي.

وفي أوائل شهر أبريل ١٨٣٨م وصل إلى مدينة المديّة فجثا أمام الأمير عبد القادر راکعاً باکیاً واشتکى إليه من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له وأنهم اعتبروه كافراً وليس مسلماً أتى من أجل خدمة الأمير ولنصرة الحق على الباطل، وإظهار النور على الظلام^١، وبالغ في التضرع والخداع حتى حنّ قلب الأمير عليه، باعتباره مسلماً غريب الديار وصدّقه وأصبح من حاشيته وعيّنه كاتباً ومستشاراً ورفيقاً يقرأ عليه ويترجم له ما يكتب في الصحف الفرنسية، وكان يحضر حتى في مجالسه السرية التي كان يعقدها مع كبار دولته^٢، وكان اختراقاً هائلاً وعظيماً ساهم في القضاء على دولة الأمير ومن الأسباب التي أدت إلى إضعافها وتكسير مقوماتها ومؤسساتها.

ج. انكشاف أمر الجاسوس:

في نهاية عام ١٨٣٩م سافر الأمير عبد القادر إلى تلمسان لتنظيم شؤون الدولة والجهاد دون أن يترك أية أوامر تخص ليون روش، فانتهاز فرصة غيابه وخادع الناس بمهمة مزعومة إلى مدينة مليانة ليتفقد مصانع الأسلحة وأخذ كل ما يحتاجه من وثائق من بينها خريطة جغرافية جزائرية، وجهاز بوصلة وخاتمه بصفته كاتب الأمير ورافقه جاسوس آخر هو ايزدور الذي كان يعرفه منذ أن كان يقيم عند أبيه من قبل، كما أخذ عدداً من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخداع بها كل من اعترض طريقه ويساعده في معرفة المواقع، وتوجه نحو مدينة وهران فاراً نحو الجيش الفرنسي ولما وصل إلى منطقة معسكر أخبر من اعترضه من أهلها أنه ذاهب في مهمة إلى معسكر وتلمسان بأمر من الأمير إلى وكيله في وهران، ووصل ليون روش بصحبة رفيقه إلى مركز الجيش الفرنسي في ناحية الكرمة بالقرب من وهران، ثم انتقل من هناك إلى مقر حاكم الإقليم ونسي الأمير ودولته وطفق

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٤.

^٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٥.

يحارب مع الجيش الفرنسي ويطارد قوات المجاهدين حتى سنة ١٨٤٤م فكرمته دولته الفرنسية وعيّنته بأعلى المراكز وكافأته على نجاحه في المهمة التي كلف بها^١.

وذكرت الأميرة بديعة الحسني الجزائري في كتابها القيم: بأن ليون روش استطاع تزوير رسالة باسم الأمير عبد القادر إلى أمير مكة مقلداً خطّه ووقعها بختمه الخاص وهرب حاملاً الرسالة إلى فرنسا ومنتجهاً إلى باريس وأطلع حكومته على الرسالة فحملته هدية ثمينة، وأمرته بالسفر إلى مكة، فارتدى اللباس الجزائري وأخذ الهدية والرسالة وسافر إلى مكة فوصلها معزراً مكرماً وهناك قابل الشريف محمد بن عوف أمير مكة وسلمه الرسالة والهدية، فأكرم أمير مكة وفادته وعامله معاملة رسل الملوك، وبعد أيام كما هي العادة وكما كانت تقضي التقاليد العربية سلمه أمير مكة رسالة جوابية، ومعها هدايا ثمينة إلى الأمير عبد القادر، فرجع حاملاً هذه الأشياء إلى فرنسا وسلم إلى حكومته الرسالة التي كان يُفترض تسليمها إلى الأمير، وبعد قراءتهم الرسالة تأكدوا أنه لا علاقة للأمير بأمير مكة، ولم يسبق أن ساعده بشيء وبعد نجاحهم في هذه العملية التجسسية أعادوا الكرة مرات عديدة، فمرة كانوا يرسلون الجواسيس على أنهم سيّاح ومرة على أنهم تجّار، ولكن جميع تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إلا أنه بعد هروب ليون روش وافتضاح أمره أصبح الحذر شديداً لدى المسلمين والأوامر صريحة وواضحة بهذا الخصوص.

وقد ألف ليون روش كتاباً تاريخياً بعنوان: "اثنان وثلاثون سنة في الإسلام" أصبح مرجعاً كبيراً لكثير من المؤرخين والكتّاب، وقد وصف فيه مقابلته الأمير في معسكر عين شلالة فقال: رأيت وسط المعسكر خيمة كبيرة يقف ببابها جمهور كبير إنها خيمة السلطان، وكان جالساً وحده في صدر الخيمة، فغضضت من بصري وتقدمت نحوه ببطء، ثم ركعت ولثمت يده كما هي العادة عندهم، ظننت أنني أحلم عندما رأيت عينين خضراوين تحيط بهما أهداب سوداء كثيفة، كان يحمل بيده مسبحة وتحيط بوجهه لحية

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٩.

سوداء حربية، ولو بحث فنان عن صورة لعابد من عبّاد القرون الوسطى يضعها على لوحته فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجاً أفضل من الأمير بفرنسه الأبيض وجلسه اللطيفة، وعلى الرغم من مكانته العظيمة التي كانت تسمح له بالتعالي والسّموّ، كان طيباً لبقاً، ولم يكن أحد من الحُرّاس بجانبه ١.

١٤. معاهدة تافنة:

استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران ومحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة البني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتمح الجيش جنودهما واستولى على مواشيهما وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر، يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهما ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته وبعث رسولاً يخبر الأمير أنه عُيّن دامرمون حاكماً عاماً خلفاً لكلوزيل المعزول يوم ١٢ / ٢ / ١٨٣٧م وانتشرت أقاويل في باريس مفادها: أن الأمير عبد القادر هو المعجب الكبير بالمدينة الغربية، ويعمل من أجل تجنيد شباب القومية العربية وتصور الفرنسيون أن بإمكانهم أن يجعلوا منه أميراً مسلماً بالاحتلال يحكم الداخل لصالح فرنسا وعيّن الجنرال بوجو قائداً للجيش الفرنسي في وهران الذي وصلها على رأس ١٥٠٠٠ جندي بتعليمات صارمة بضرورة عقد صلح جديد مع الأمير ووقف الحرب معه.

وجاء هذا القرار الفرنسي بعد أن تمكن الأمير من فرض حصار صارم على المدن المحتلة من الفرنسيين وأرسل الفرنسيون إلى الأمير عبد القادر ابن دران اليهودي ليفاوض الأمير على الهدنة.

١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥١١.

أرسل الجنرال بوجو الرسالة الأولى عارضاً شروطاً شديدة رفضها الأمير الذي أجاب برسالة عرض فيها شروطه، ورد بوجو على الشروط بشروط مخففة وهو يلقبه بسلطان العرب وأرسل الأمير مرة أخرى جواباً على الرسالة بشروط رفضها بوجو وقرر وقف التفاوض والخروج للحرب، فخرج واحتل تافنة، وعلم الأمير فأرسل رجاله يستنفرون القبائل للجهاد، وعندما تأكد بوجو من قوة تحرك الأمير وألا قبل له بمواجهته الآن تراجع وقرر العودة للمفاوضات.

وعاد الجنرال بوجو إلى الجزائر في نيسان . أبريل ١٨٣٧م مشترطاً عدم رضوخه للحاكم العام بالجزائر، رابطاً علاقته مباشرة مع وزارة الحربية، واستقر في وهران ودخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر، واشتكت الوزارة بأنه كان يتجاوز تعليماتها وبأنه تنازل كثيراً للأمير وكرر يوجو مع الأمير ما سبق أن فعله ديمشال ١.

انتدب الأمير ممثلاً له يتفاوض مع بوجو، وطلب هذا أن يعترف الأمير صراحة بالسيادة الفرنسية على مناطق محددة وتكون للأمير سيادته.

ورفض الأمير شروط بوجو الذي عرض عليه مناطق أخرى لاسترضائه كولاية تيطري، ومن باب إثارة الحزازات بين بوجو والحاكم العام بالجزائر، كان يفاوض الاثنين، فاندلع جدال بين القائدين الفرنسيين حول اختصاص كل منهما، وتدخلت الحكومة الفرنسية فكلفت بوجو بمفاوضة الأمير.

أرسل الأمير مرة أخرى مبعوثاً هو السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان، وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠ / ٥ / ١٨٣٧م وشروطها مختصرة كما يأتي:

أولاً: يعترف الأمير بسلطنة فرنسا على مدينة الجزائر ووهران.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٢.

ثانياً: يبقى لفرنسا في إقليم وهران ومزغران وموگران وأراضيها ووهران وأرزيو بحدود معينة يصير كل ما بداخلها من الأراضي للفرنسيين.

ثالثاً: على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم الجزائر بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني، وألا يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر.

رابعاً: ليس للأمير سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يسكنوا في البلاد التابعة لفرنسا.

خامساً: يمارس العرب الساكنون في أراضي الفرنسيين ديانتهم بحرية.

سادساً: على الأمير أن يدفع للجيش الفرنسي ٣٠.٠٠٠ كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة آلاف رأس بقر، يؤدي ذلك على ثلاثة أقساط.

سابعاً: يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

ثامناً: على فرنسا أن تتخلى للأمير على أسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها.

تاسعاً: تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين.

عاشراً: يكون رد المجرمين بين الطرفين.

حادي عشر: يتبادل الممثلون بين الطرفين.

بعد التوقيع المعاهدة طلب الجنرال بوجو أن يجتمع بالأمير فعين له هذا مكاناً وتاريخاً، وجاء الجنرال في جيش ضخم قصد التأثير على الأمير، وأعد الأمير عدته وجاء في موكب كبير على رأس جيش يتكون من ١٥٠٠٠ فارس، سائرين بنظام عجيب في سهل يموج بهم وظهر الأمير وقد أحاط به نحو مائتين من رؤساء القبائل ممتطين لخيول عراب، متمنطقين بأسلحة مصقولة والأمير يتقدمهم على جواد عربي أسود من أجل ما عرف

بين جياذ عصره، وحوله ستة من السياس. تقدم منه الجنرال فتصافحا ثم ترجلا، ودار الحوار التالي بين الرجلين:

. إنك تكسب أيها الأمير بهذه الهدنة حيث إنني بمدتها لا أخرب المواسم.
. هذا لا يضرنا يا جنرال، حتى إني أعطيك الرخصة بأن تخرب ما تقدر عليه، ولا يمكن لك أن تخرب إلا بمقدار زهيد، ومع ذلك عند العرب حبوب وافرة.
. أظن أن العرب لا يفكرون مثلك فهم يرومون الصلح بعضهم أثني علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت ومنهم حمادة الصقال.
. فأجاب الأمير مبتسماً: ما هي المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا؟
. لا تكون أقل من أسبوعين.
. حيث إن الأمر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصللة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا.

ثم افترق الرجلان، ويروي ابن رابح أحد ضباط الفرسان الذين كانوا في حرس الأمير: أنه عندما وقف الأمير لوداع الجنرال قَرَّب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه، وبعد أن صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت إلى الفرس وعلا عليه في أقل من لحظة، وحركه بركابه فمرق بين الخيل مروق السهم، واندفع به ثلاث دفعات متوالية وعلى وتيرة واحدة، فانبهر الجنرال لذلك، وتعجب من سرعة ركوب الأمير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى، وبعد أن سار الأمير على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع، أمر الجنرال أحد ضباطه أن يرجع إلى المحل ويأخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً.

نالت اللغة العربية موقعها السيادي بالمعاهدة وهو موقف ثابت للأمير، فقد ورد في نصها ما يأتي: حرر نص المعاهدة على شطرين عربي وفرنسي، فكتب الأمير اسمه بخطه على

الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة وكتب الجنرال بوجو اسمه بخطه على الشطر الفرنسي بخاتمه الرسمي وأعطى بوجو ٥٠٠٠ بندقية للأمير وصادق الملك لوي فيليب على المعاهدة بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٨٣٧م، وقد علق عليها رجال السياسة الفرنسيون: على أنها جعلت الأمير الأقوى بدون نصر عسكري، لكن في ذهن الجنرال بوجو فكرة يعمل من أجلها وهي تأمين جانب الأمير والتفرغ للإعداد لاحتلال قسنطينة وهزم أحمد باي، ثم العودة ومحاربة الأمير. وهذا ما لم يفهمه أحمد باي الذي رفض باستعلاء الانضواء تحت راية الأمير الذي يعتبر أقوى قائد عرفته المقاومة، ولو كتب لهذين الرجلين أن اتفقا لأمكن للتاريخ أن يغير مجراه^٢.

وبعد المصادقة على المعاهدة أعطى بوجو أمراً للجنرال كافينياك بإخلاء تلمسان التي دخلها الأمير في موكب مبهر، واستقبله الشعراء بقصائدهم وأنشد هو قصيدة حيا فيها تلمسان ورد فيها:

ونادت أعبد القادر المنقذ الذي

أغشت أناساً من بحار هواها

لأنك أعطيت المفاتيح عنوة

فزديني أيا عز الجزائر جاهاً

وما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته^٣، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة.

أ. محاربة من شقوا عصا الطاعة:

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

^٣ المصدر نفسه، ص: ٥١٦.

ما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة، وبدأ بقضية محمد بن عبد الله البغدادي، فقد سبق أن حضر هذا الدعي من بغداد قبل سنوات، وزعم أنه من ذرية الولي عبد القادر الجيلاني، وأكرمه الشيخ محيي الدين والد الأمير، واستغل انشغال الأمير في ترتيب أمور دولته فتوجه إلى قبائل الزناخرة وأولاد نائل، والتقى بأكبر مشاغب ضد الأمير وهو مختار محمد بن عودة الذي قدمه على أنه البديل للأمير ووصفه بأنه محمد بن عبد الله المنتظر، فاجتمع له خلق كثير، فقرر الأمير وضع حد لذلك وتوجه له على رأس ثمانية آلاف فارس وألف من مشاة وقطع من المدفعية والتقى بالمنشقين في بلاد أولاد مختار، ودامت المعركة ثلاثة أيام تعب فيها الأمير في كسر شوكتهم، ثم نصره الله عليهم.

توالى عليه شيوخ القبائل بالناحية فشفعوا في العصاة فقبل الأمير شفاعتهم وعقد لمحمد بن عودة رئيساً على قبائل الناحية بعد أن طلب العفو.

أما عن البغدادي ففي أثناء هروبه تمكن بعض أنصار الأمير من أسره وتسليمه للأمير الذي عفا عنه أيضاً، فانتقل للمغرب الأقصى واستقر به.

بعد هذا الانتصار قام الأمير بجولة بالجنوب فقدمت له وفود من الأغواط عرضت عليه طاعتها وطلبت منه تعيين من يسوس أمورهم، فعين السيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى الأغواطي، وأقام بالمدينة فاستقبل العديد من الوفود التي قدمت له من سائر أنحاء القطر حيث ألقى في الجهاد درساً في التوحيد.

وخرج من المدينة على رأس جيشه بهدف تقويم اعوجاج قبائل وادي الزيتون، فهزم جموعهم وأسر رؤساء الفتنة، وجمع العلماء للحكم على هؤلاء الذين سبق لهم أن شقوا عصا الطاعة وشملهم عفو الأمير، فحكم عليهم مجلس العلماء بالإعدام، ومثل أمامه ١٨ رجلاً منهم لتنفيذ الحكم فيهم فطلب منهم التوبة، فأجاب أحدهم: إن قطع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة، فأمر الأمير الجلال فقطع رأسه، ثم توالى الثاني والثالث فقطعت رؤوسهم

إلى أن وصل الدور لشيخ هرم فقدم له وهو يرتعد خوفاً فهجم أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الأمير بقولها: بحق الله ووالديك وأولادك أن تغفو عن والدي. فلما سمع الأمير كلامها غلبت رحمته على غضبه وأمر بالعفو عن والدها وعن الباقيين، واحتضن البنت وقبلها لتسببها في حلمه، وأعلن العفو عمن خالفوه ورد أموالهم لهم، ولما سمعت القبائل المعارضة هرعت إليه وطلبت العفو وعاد إلى المدينة بعد أن ثبت كل رئيس قبيلة على قبيلته^١.

ب . التصدي للمتمرد محمد التيجاني:

سبق أن استقبل الأمير وفوداً من قبائل الأغواط الشراقة حيث طلبوا منه قبول انضمام ناحيتهم إلى دولته، فقبل وعيّن على ولايتهم السيد الحاج العربي، لكن محمد الصغير التيجاني رفض الانضواء تحت راية الأمير واستطاع التأثير على بعض القبائل فتبعته، فتوجه له الأمير على رأس جيش يوم ١٢ / ٦ / ١٨٣٨م قوامه ٦٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة وثلاثة مدافع وست هاونات ووصل المنطقة بعد عشرة أيام سيراً في الصحراء، وكان التيجاني يتحصن في حصن بعين ماضي، حاول الأمير فتح ثغرة في الحصن، أو نفق يتسلل منه جنوده، لكن المحاولات باءت بالفشل، فقرر فرض حصار منيع عليه دام ستة أشهر، وعندما عض الجوع سكان الحصن، ضغطوا على التيجاني الذي أرسل يوم ١٩ نوفمبر . تشرين الثاني إلى خليفة الأمير السيد الحاج مصطفى التهامي، يستأمن على نفسه وأهله وسكان الحصن وطلب منه منحه مهلة أربعين يوماً لإخلاء الحصن، فعرض الخليفة الأمر على الأمير، فقبل وأخلى الحصن في التاريخ المحدد وأمر الأمير بتدميره^٢.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٨.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٢١.

كان محمد التيجاني يعتقد أن الأمير عبد القادر سينهزم وخطب في مريديه بقصره بعين ماضي قائلاً: إن عبد القادر سيفشل بحربه ضد فرنسا حتى إن انتصر لا يفيدنا بشيء فنحن التيجانية خلفاء الله في أرضه ١.

بهذه القناعة كان التيجاني يتعامل مع أمير البلاد الذي كان يعتبرهم من المرابطين على الرغم من ملاحظاته على بعض أفكارهم وتصوراتهم ولكنه اعتبرها بينهم وبين رب العالمين، ولكن عندما قرأ رسالة بخط محمد التيجاني مرسلّة إلى المارشال فاليه كتب له فيها: اشغل أنت الأمير من جهة البحر، وأنا سأشغله من جهة الصحراء. هذه الرسالة لم تصل إلى فاليه لأنها وقعت بيد فرسان الأمير أثناء أحد المكائن، ومنذ ذلك الحين والأمير يتحين الفرص لإخضاع هذا المتمرّد الذي كان يظنه من المتعبدين فخاب ظنه فيه والذي لم يقتصر عمله على عدم دفع الزكاة التي فرضت على أساس شرعي فقهي، وإنما تطال إلى درجة الخيانة ٢.

كان في ذلك المكان من الأغوات جنوب الصحراء نبع ماء منذ أقدم العصور، سمي المكان باسم العين "عين ماضي" شيد فيه أجداد محمد التيجاني ثلاث مئة بيت وقصراً منيفاً وأبراجاً تحيط بها جدران كثيفة من الحجر، وزاوية تدرس فيها الطريقة التيجانية التي من أهم مبادئها عقيدتها هو السلام، وهذا ما جعل الأمير وأركان دولته في البداية يظنون بهم الخير والصلاح، ولكن الأيام كشفت حقيقة هذه العقيدة، وأن مفهوم السلام عندهم هو القبول بحكم الأقوياء حتى لو كانوا من الغزاة المحتلين وتهينة النفوس لقبول الاستعمار والاحتلال على شرط عدم المساس بهيئتهم الشخصية ومصالحهم الذاتية البحتة، وأيقن الأمير أن الحرب ليست بينه وبين جنرالات المحتلين، فقط وإنما بين قوى الشر أيضاً في

١ الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ١١٥.

٢ المصدر نفسه.

البلاد، ومن خيمته داخل الأدغال أخذ يدير أعماله الإدارية، ويوقع على القرارات التي تستوجب توقيعه ١.

اضطر التيجاني نتيجة الحصار إلى التسليم ونزل على شروط الأمير عبد القادر وهي:

. أن يرسل الشيخ أحد أولاده ليظل رهينة عند الأمير ريثما يتم الجلاء عن الحصن.

. أن يدفع الشيخ مصاريف الحصار للدولة.

. له الحق بأخذ جميع أمواله بلا استثناء ٢.

فقبل التيجاني هذه الشروط ووقع عليها، وأرسل ابنه فأمنه الأمير وأحسن معاملته، وقبل انتهاء المدة كان الشيخ قد خرج بأهله من الحصن، وبعد ذلك بأيام وقبل عودة قواته إلى مراكزها أمر بتهديم الحصن والصور وسائر الأبراج وسواها بالأرض وغور ماء الآبار، فسارعت أكثر القبائل المحيطة بالحصن إلى دفع الزكاة وكاتب وفد منها أمير البلاد وعندما جلسوا بين يديه قال لهم: أيها المسلمون، لقد نصرنا الله على العصاة أيها الرجال إننا نبني دولة تصون أعراضكم وتحميها وتؤمن لكم العزة والكرامة وتحمي أموالكم ودينكم، إن الله سبحانه وتعالى أراد لي تحمل هذه المسؤولية التي ليست مسؤوليتي وحدي إنها مسؤوليتكم وبناء الدولة والمحافظة على نظامها وقوانينها هي جهاد، لأن الجهاد في سبيل الله ليس فقط قتال العدو وإنما أيضاً البناء وتقوى الله فاتقوا الله في أنفسكم وفي دولتكم الإسلامية ونظامها الإسلامي الإلهي العظيم الذي تجدون فيه حلولاً لجميع المشاكل التي تعترض حياتكم الاجتماعية والزراعية والاقتصادية، قفوا بقوة في وجه تحديات المحتلين وإغراءاتهم فهي مؤقتة وزائفة فعلت أصواتهم "الله أكبر" وخرجوا وألستهم تلهج بالدعاء للأمير البلاد ٣.

١ المصدر نفسه.

٢ المصدر نفسه.

٣ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١١٨.

كانت معاملة الأمير للأسرى الذين وقعوا في قبضته من اتباع التيجاني أثناء الحصار متقدمة ومتميزة فقد كان جلّ هؤلاء الأسرى يقيمون مع المقاتلين بنفس الخيام يأكلون معهم ويصلون خمس أوقات في اليوم معهم، وبعد أيام أعادوهم إلى الحصن، فأخبروا ذويهم عما شاهدوه من قوة جيش الأمير ونظامه، وشاعت هذه الأخبار كالنار في الهشيم بين سكان الحصن، فذهب عدد من المريدين لمقابلة شيخهم قائلين: أنظر ما آل إليه حالنا وأنت الذي علمتنا عدم مجاهدة بعثة العدو، وإن كان أقوى منا، وهذا العدو مسلم مثلنا يصلي صلاتنا ويتكلم لغتنا ونحن من بايعناه منذ سنوات، ولقد سمعنا أن الفرنسيين المحاصرين في وهران اضطروا لأكل القبط والفئران نتيجة الحصار الذي فرضه الأمير عليهم فهز الشيخ رأسه وأمرهم بالخروج من الحصن رافعين الراية البيضاء طالبين مقابلة الأمير ١، وتمّ بعد ذلك ترتيب أمور الاستسلام وفق الشروط التي تمّ ذكرها.

ج. مراجعة علماء المغرب الأقصى:

كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة فأرسل جماعة برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهة إلى علماء المغرب الأقصى طالباً منهم الإجابة عليها، وقد أجاب عليها شيخ الإسلام الإمام التسولي. وقبل الاتصال بالعلماء قصدت البعثة سلطان المغرب حاملة رسالة من الأمير.

وكانت الأسئلة تدور حول: كيف تعامل القبائل المنهمكة في المحرمات والعصيان؟ كيف يعاقب الجواسيس والنصاب؟ وما هي الأشياء التي لا يجوز بيعها للنصارى؟ كيف يعاقب العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال؟ كيفية تحريم ترك الإمام ونواب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم؟ وما هو حكم المتخلف عن

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٦.

الاستنفار للجهاد وما العقاب المسلط عليه؟ وما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس؟ ما هي الأمور التي تجوز أن يتصالح حولها مع العدو؟ ما هي المصادر التي يجوز أن يرتزق منها الجيش في حال فراغ بيت المال في الحال والأبدان والمال؟ ما حكم من ساكن العدو الكفور ورضي بالمقام معهم في ما لهم من البلاد والثغور؟

كان قصد الأمير من هذه الاستشارة القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر به الله بشهادة علماء متعمقين في الشريعة وأصول الدين^١.

د. التوسع في بناء الحصون ومصانع الأسلحة:

كانت معاهدة التافنة هدنة مؤقتة يلتقط فيها أنفاسه ويزيد فيها من قوته العسكرية والاقتصادية لا غير ولقد ذكر الصحفي البريطاني شارل هنري شرشل بعضاً من نصوص هذه المعاهدة المهمة وبناء على ذلك اعترف سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بسلطة الأمير مرسلاً إليه الهدايا الثمينة وكتب ليون روش فقال: لقد خلع المبعوث الرسمي للسلطان عبد الرحمن في ٣ يوليو من عام ١٨٣٩م قفطان المبايعة على الأمير عبد القادر، وهذا يعني اعترافه به كملك مع الهدايا النفيسة، وكذلك هذا حذوه أمير الحجاز وغيره من الحكام الذين اعترفوا بهذه الدولة الفتية^٢.

وبهذه الهدنة المؤقتة نظم الأمير الكثير من الأمور التي تهم الشعب والجيش، وشيّد الكثير من القلاع والحصون: فأمر ببناء حصن من الخط الفاصل بين السواد والصحراء وحصون أخرى منها حصن سعيدة، وحصن سبدو في الجهة الغربية، وحصن تاكمدت الشهير في الجهة الجنوبية والشرقية وحصن بوغاز، وحصون سبأ وعريب وبو خرشفة وحصن طازة، وذات جولة مرّ بحصن طازة ورأى المنشآت التي شُيّدت في أقصر زمن وحمد الله وشكره، وارتجل هذه الأبيات وأمر بكتابتها على باب الحصن بخط كبير مقروء:

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٥.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨١.

الله أعلم أن هذا لم يكن
منيّ على الأمد الطويل دليلاً
كلاً وإن منيتي لقريبة
منيّ وأصْبَحُ في التراب جديلاً
ورضا الإله هو المنى ويكون
من بعد انتفاعُ الخلق طويلاً

كما أن مصانع عديدة أنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد آخذة بالعمل وهي تنتج قناطر من البارود يومياً وأنشئت مصانع كثيرة في قلعة بني راشد وحصن بلال وحصن شرشال، كما تصنع المدافع في تلمسان وغيرها من المدن والحصون.

هذه المعلومات العسكرية، كانت تصل إلى السلطات الفرنسية بواسطة خبراء من جنسيات مختلفة بسرية تامة ويضيف دولا كروا: وإلى الآن يوجد ثلاثة مدافع في متاحف باريس نُقش على سبطاناتها بالخط العربي الجميل "عُمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين سنة ١٢٥٥ للهجرة".

وقد أمر حينذاك كلُّ من يحصل على بارودة فرنسية أن يسلمها إلى رئيس معامل السلاح ويأخذ ثمنها اثني عشر ريالاً جزائرياً، وجعل الأمير في الحصون الكثير من الكوادر الصناعية لإصلاح الأسلحة وسروج الخيل، وكان أغلبهم من المسلمين القرداحية المشهورين بهذا النوع من العمل ووضع الحاميات المسلحة في المضائق والنقط الهامة في البلاد، كمخافر أمن وجعل ألبستها في الشتاء الجوخ الأحمر^٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ٨٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٨٥.

كتب الصحفي شرشل فقال: إن هذا الشاب على الرغم من صغر سنه بنى دولة فيها جميع المؤسسات الرسمية التي لم يسبق لغيره أن أسسها قبل في تلك البقاع من العالم، ومنها فتح المدارس والمشافي الحكومية.

هـ. المارشال بيجو يخشى من توسع دولة الأمير:

أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي، وأنه في طريقه لإنشاء إمبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر وما زال يعتبرها مدينة محتلة مع اعترافه بسيطرة الفرنسيين عليها، لأنه أمر واقع ولا يستطيع نكرانه ورسائله إلى الملك تدل على ذلك، وعلى مفهومه للمعاهدة، وبهذا المنطق بدأ المارشال بيجو يقنع زملاءه من المارشالات، والوحيد الذي كان يجد أعذاراً للأمير، كان الدوق أرليون الذي اشتهر بذكائه وصرح ذات يوم للمارشال فاليه برأيه قائلاً: إنني لا أستطيع المشاركة في أمر يهدد السلام مع الأمير عبد القادر ولا أريد استفزازه، وهذه قناعتي ولا أوافق على احتلال مليانة والمدينة ونسف المعاهدة ولكن بيجو كان مصمماً على التخلص من المعاهدة بأي شكل ١.

بعث المارشال بيجو في رسالة في ٢٤ نوفمبر / تشرين ثاني عام ١٨٤١م إلى وزير الدفاع: هل نستطيع أن نجري في كل مكان..؟ هل نستطيع أن نصد جميع الضربات؟ هل نستطيع تجنيد مائة ألف رجل لملاحقة رجل واحد هو عبد القادر؟ من الواضح أننا لا نستطيع ذلك مستحيل لذلك يجب علينا الوصول إلى السكان الذين يمدونه بالعون، لا بد من عمل متواصل لحصاره وتقويض أركان قوته من الداخل.

توهمت فرنسا أن هذه الاتفاقية ستجنبها شرواً كثيرة كانت تتهيب لها، منها دخول قواتها الصحراء واجتياز جبال أوراس الصعبة المسالك والمختلفة المناخ لاحتلال كامل التراب

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٠.

الجزائري، وكما تدل الأحداث كانت تفضلّ بالدرجة الأولى التحالف مع الأمير، ثم تحقيق السيطرة الاقتصادية، ومن ثمّ السيطرة السياسية وهذا أفضل لها من خوض غمار حروب ومعارك دامية طويلة الأمد ترهقها اقتصادياً وعسكرياً ولكن الأمير كان صعب الانضواء مدركاً تمام الإدراك مجريات الأمور^١.

ظل الأمير على هدفه الراسخ وهو أن بقاء الفرنسيين في الجزائر . رغم إنتصاراتهم . إنما هو بقاء السحابة الصيفية وكان يرفض رفضاً قاطعاً الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر في كل المواقف والمراسلات. وكان على يقين من أن موجة التاريخ وإن تصاعدت مع الفرنسيين في عهده، فإنها ستتحسر وتراجع لا محالة وتتكشف بعد ذلك عن فظائع ارتكبت في حق الإنسانية تحت غطاء الموجة العاتية، فقد كتب رسالة إلى بوجو سنة ١٨٤١م إن فرنسا ستمضي وستراجع نحن، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع وعندئذ سنعود. وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: هل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع؟ تلك هي صورة مروكم بالجزائر^٢، وبعد ثلاث سنوات من الهدنة وجد كبار السياسيين والعسكريين في فرنسا أن هذه الاتفاقية هي هدنة مؤقتة وليست صلحاً كما أرادوها، وأن الاستمرار فيها ينطوي على أخطار كبيرة على المصالح الفرنسية وتؤكدوا أن الأمير عبد القادر بدهائه السياسي وقدراته العسكرية وفريقه المتميز ومجالسه الشورية التي لاحقوها تنمو يوماً بعد يوم، وشعبيته التي تزداد انتشاراً واتساعاً سنة بعد سنة، كان تهديداً لمصالحهم ورأوا ضرورة القضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم في مفهومهم الاستعماري وهكذا بدأت الخطط تحاك في باريس وأخذت الإمدادات العسكرية والمالية تتواصل بجرأاً إلى مدينة الجزائر ووصلت أخبار هذه الإمدادات إلى أسماع الأمير بفضل

^١ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ٨٦.

^٢ حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ص: ١١.

جهاز مخابراته، فبعث إلى خلفائه في الولايات والثغور ينهّهم ويحذّره من غدر الأعداء ويأمرهم بالتأهب للقتال إذا دعت الحاجة لذلك.

كان الأمير يريد إطالة أمد الهدنة، فعمد إلى إرسال رسائل إلى ملك فرنسا يشرح له مساوئ بعض بنود المعاهدة ومغبة انتهاك حرمة البلاد من قبل قواته في بلاد ليست له. ويطلب منه ترك المطامع في التراب الجزائري واحتلاله على الرغم من إرادة أهله قائلاً: وإن ما أقام به أوجبته عليّ شريعة الدين، الذي أؤمن به وإن واجبي القومي والديني يأمرني بعدم التخلي عن شبر من أرض وطني وقواتكم تحتل قسماً عظيماً من بلادنا، وتحاول التوسع على حساب شرفنا وكرامتنا وهذه كلها أسباب تلزمننا باستنشاق الحرب وبالله المستعان، فاسحبوا وكلاءكم من بلادنا والمسؤولية عليكم وحدكم. كانت هذه آخر رسالة كتبها الأمير قبل إعلان الحرب ١.

خامساً: استئناف الحرب

قام المارشال بيجو بإرسال قوة مسلحة من جنوده دخلت مناطق دولة الأمير من غير إذن من السلطات، وهذا خرق صريح لبدن من بنود المعاهدة ومرت بباب الحديد وجاءت الأخبار عن طريق المختصين للأمير، فكتب إلى سلطان المغرب رسالة حدثه فيها عن استفزازات المحتلين، طالباً منه النصح فجاء جواب السلطان ومختصره ما يلي: بعد الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبيه الكريم ابن عمنا، ومحل ولدنا الذي نظم به الله شمل الأمة وجلّى بنور صدقه الشدائد، حامي حمى الإسلام الأمير المجاهد الحاج عبد القادر بن محي الدين، أيدك الله بنصره وتوفيقه وقد وافانا الوفد من جنابكم وعملاً بحسن ظنكم قابلهنا بالقبول الحسن، فأنت والحمد لله من دينك على بصيرة، ومن سياستك على أقوم سيرة، فقد مارست أحوال العدل سلباً وحرباً، واطلعت على بعض دسائس الأعداء فأمرهم كله غدر، فكن على بصيرة وأبدي تحبباً ووداداً وانتظر غدرًا

١ الأمير عبد القادر، سيرته المجيدة، ص: ٨٨.

وعناداً، ولقد فعل ذلك بالأندلس وأهلها، أعدل شاهد وبرهان، وليس الخبر كالعيان، قال تعالى: "حُدُّوا حُدُوكُمْ" (النساء، آية : ٧١).

وقال تعالى: "وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ" (آل عمران، آية : ٧٣).

وأي خير يحبه العدو للمسلمين، فإذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة الدين كللت المطالب، وإنما الأعمال بالنيات أيدكم الله بالتوفيق من عنده، ونسأل الله أن يجدد بك الآثار، ويجعلك من الأئمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك، آمين من الولي عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد في أواخر ذي القعدة ١٢٥٤هـ وأرسل مع هذه الرسالة عدداً وافراً من الأبقار والأنعام وهدايا من المفروشات وفهم الأمير عبد القادر من جواب السلطان تأييداً لما سيقرر ١.

١. اجتماع الأمير مع أعيان الدولة:

وفي السادس من شهر كانون الأول عام ١٨٣٩م عقد اجتماعاً دعا إليه كبار زعماء القبائل وأعضاء مجلس الشورى ووزراءه وقادة الجيش وأطلعهم على رسالة السلطان عبد الرحمن ورأيه ومرور الجنود من باب الحديد وأمور أخرى تدل على إمكانية الغدر وعدم الوفاء وقال: إنني أقترح إعلان الحرب لثلاث نفاجاً بما لا تحمد عقباه، شكل الأمير فوراً وزراء حرب، ولم يفرض ضرائب على السكان مع أن زعماء القبائل عندما سمعوا نداء الحرب تسابقوا لتقديم أنفسهم وأمواهم ولكن لم يطلب منهم شيئاً سوى عدم تقديم العون للمحتلين، وكانت استطلاعات الرأي وحماس السكان حتى في زمن السلم تقول: إن أمير البلاد إن فرض شيئاً لا يكون لنفسه، لأنه ملئ بمزارعه في القيطنة وحول قصر كاشرو تمده بأكثر ما تحتاج إليه عائلته من الأموال، وأنه يعيش حياة بسيطة ليس فيها أثر للأبهة والعظمة وعظمة الملوك، وإن واردات الدولة من المناطق الشاسعة بالإضافة إلى الزكاة يبدو أنها ساهمت في بناء الدولة ٢.

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢١.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

٢. معارضة بعض القبائل للحرب:

جاءت المعلومات الاستخباراتية للأمير بأن قبائل أولاد نائل وأولاد مختار وموسى وعبيد شكّلوا وحدة لمعارضة العودة إلى الحرب وأنهم يستعدون لمقاومة الجيش النظامي للدولة، ويجهزون رجالهم، فعرض الأمر على أركان قادة الجيش، وأخذ القرار بالتصدي لهم وأمر أمير البلاد بن علال بتجهيز قوة من ١٢ ألف فارس وعدد من المدافع لمحاصرة تلك القبائل وإرهابهم وفي الموعد الذي حددوه لابن علال خرج من مدينة معسكر وكان قد مضى عليه أسابيع لم يدخل داره فيها، فأرسلت إليه زوجته للعودة إلى الدار وليوم واحد فأجابها برسالة قصيرة كتب لها فيها: أنتِ منذ اليوم الأول لمبايعتي قبلت عقد زفاني إلى أخرى وهي بلادي وما عليك الآن إلا الصبر الجميل، قال تعالى: "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" (البقرة، آية: ١٥٥).

دام حصار هؤلاء ثلاثة أيام كانوا خلالها يتحصنون وراء متاريس أقاموها فوق المرتفعات قرب حصن بو غار، وعندما أدركوا أن لا فائدة لهم من تلك التحصينات استسلموا وتقدم ابن المختار شخصياً ورمى سلاحه أمام الأمير وطلب العفو، ولم يكتفِ الأمير بالعفو عنه وإنما عينه قائداً على تلك القبائل التي هزمت من غير قتال، وهكذا أصبح ابن المختار من أكثر المناصرين إخلاصاً للدولة، وتقدم الزعماء لتقديم الولاء للأمير، والترحيب به وتكونت حول الأمير دائرة واسعة من الرجال فخاطبهم الأمير بقوله: إننا لم نأت إليكم لإخضاعكم بالقوة، وإنما جئت إليكم كمجاهد يقاتل لإعلاء كلمة الله وهزم المحتلين لبلادكم، وإذا قُلتُم أن أعداءنا أقوى منا فالله سبحانه وتعالى قال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَاسِرِينَ" (آل عمران، آية: ١٤٩).

. وقال تعالى: "الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" (النساء، آية: ١٣٩).

. وقال تعالى : " بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " (النساء، آية : ١٣٨).

واستمر الأمير بمخاطبتهم بكل ود ومحبة ثم قال: إن الله بشّرنا فذكر في كتابه : " كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ " (البقرة، آية : ٢٤٩).

واعلموا أن الفرنسيين قد تركوا بلادهم وجاءوا لأخذ أرضنا والاستيلاء على خيرات بلادنا ليزيدوا من رفاهية شعوبهم، غير أننا سنكون الشوكة التي وضعها الله في عيونهم، وإذا وقفتم معي فسنعيدهم إلى بلادهم خاسئين، ولا أطلب منكم سوى المحافظة على قوانين دولتنا الإسلامية، إنني أدعوكم إلى الجهاد في سبيل الله، ولن أولي عليكم إلا من تريدونه وتقبلونه، واقترح بن سالم، ثم طلبوا من الأمير قبول ضيافتهم، ووضعوا أمامه أطباقاً مغطاة باللحوم، من كل قبيلة قصعة، فاضطر الأمير لمجاملة الجميع فتذوق من كل قصعة لقمة وغادروهم ومنذ تلك الزيارة لمناطق جرجرة أصبح اسمه ملهماً لشعرائهم وموضوعاً لأغانيهم الشعبية، وأصبحت قوة الأمن أثناء الهدنة على درجة عالية من اليقظة وبات الناس آمنين في تجوالهم وحياتهم وأصبحت المرأة تستطيع، كما يذكر المؤرخون، أن تخرج وحدها من غير خوف واختفت البدع التي كانت تمارس في الزوايا، وعاد معظم السكان إلى هدي القرآن الذي كانوا مبتعدين عنه، ولم يعد أحد يتجرأ على شرب الخمر أو بيعه، وكذلك الميسر وحرم الغش على التجار وكان رجال الأمن بمثابة المحتسب في فجر الإسلام يتجولون في الأسواق، يراقبون الباعة والأسعار ويمنعون الغش والطغيان والفساد والمناصب الحكومية لم يكن يشغلها سوى رجال عرفوا بالسمعة الطيبة والنظيفة والشخصية القوية والنسب المعروف، كانوا قدوة يحتذى بهم وحكاماً صالحين^١.

٣. رسائل الأمير إلى ملك فرنسا وقادتها:

^١ المصدر نفسه، ص: ١٢٥.

عاد الأمير من مناطق جرجرة بعد اطمئنانه على سير الأمور فيها وكلف لجنة برئاسته بالتحقيق في مرور القوات الفرنسية من باب الحديد ودخولهم مدينة سطيف، وخرجت اللجنة بالتقرير الآتي: عندما شوهدت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتجه نحو مدينة سطيف، أسرع القبائل المقيمة في ذلك المكان وطلب شيوخهم مقابلة قادة الجنود، فقابلهم كبار الضباط وأطلعوهم على رخص من الأمير بتوقيعه وختمه تسمح لهذه القوات بالمرور كنزوار، وطلبوا من يرشدهم إلى باب الحديد، فرأى الشيوخ أن من واجبه إكرام الضيوف زوار دولتهم، ولم يكن أحد منهم قد سمع بإلغاء المعاهدة والعودة إلى الحرب فأرسلوا معهم من يرشدهم إلى الطريق وهم سعداء بتسهيل زيارة ودية للضيوف، وعادت تلك القوات بعد يومين إلى مدينة الجزائر وكأنها انتصرت، متخيلة أنها احتلت الجزائر كلها، فأقاموا لهم الزينات وقدمت الأوسمة، من جهة أخرى اعتبر أمير البلاد هذا الفعل غدراً ونقضاً هاماً للمعاهدة فأرسل رسالة غاضبة شديدة اللهجة إلى ملك فرنسا، ورسالة أخرى إلى المارشال فاليه الذي قاد الحملة قال فيها: إن القصد من فعلكم هذا إظهار التعدي على حقوقي وما ناقض للمعاهدة مبطل لها، وبناء عليه أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب، وبالله المستعان فارفعوا وكلاءكم من بلادي، وأنذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم، إن خرق المعاهدة جاء منكم، وحتى لا تتهموني بخيانة تعهداتي فإنني أخبركم إنني قررت استئناف الحرب، فاستعدوا إذن واتخذوا كل الاحتياطات التي ترونها^١.

٤. نداء للشعب والأوامر إلى خلفاء الأمير:

بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٦.

ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له يطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله وتطهير البلاد من المحتلين والغزاة ومما جاء في ندائه الموجه إلى الشعب: ليكن في علم سائر الخلفاء والأغوات والقواد وكافة المسلمين أهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقكم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانكم بالقوة والإمداد، إن الفرنسيين قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا في بلادنا بين قسنطينة والجزائر بدون إذن منا، فتأهبوا . أعانكم الله . للعرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم، وأجمعوا أمركم للذب عن موردكم وعيشكم وحيث إن ما في بيت المال من النفوذ لا يفي بنفقات الحرب، فقد تعين عليكم أن تفرضوا على أنفسكم ومن يليكم إعانة جهادية، وسارعوا بالحضور إلى المدينة، فإنني أنتظركم فيها. واعلموا أن النجاح موقوف على إخلاص النية فوجهوا قلوبكم إلى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته وتشديد أركان دينه بكم والسلام عليكم^١.

وأخذ الأمير عبد القادر يعقد اجتماعات يومية للمجلس الحربي ويصرح في كل مرة قائلاً للقادة: إن الوقت كالسيف إن لم نقطع به الوقت قطعنا، وإنني أشعر بإيقاع الزمن الذي يجب علينا استغلاله لصالح دولتنا يجب استدراج العدو إلى المناطق البعيدة عن المدن لئلا تصبح هذه المدن الرائعة ساحات لمعارك دامية وخرائب تحتضن جثث الأطفال والشيوخ والمرضى وتصبح نساؤنا عرضة للقتل أو الأسر، كان الأمير يتحرك بسرعة هائلة ينظم ويتفقد بنفسه حاميات الحصون والمشافي الميدانية، وكان يقول: إن الحاكم الذي لا يهتم بصحة شعبه يعتبر آثماً، ومن الأنظمة التي وضعها للجيش قانوناً يأمر بدقة اختيار الضباط بمواصفات محددة، أولاً: أن يكون الضابط صحيح البنية، ينحدر من أسرة معروفة أصيلة، لم يتهم بخيانة أو قتل مثقفاً دينياً، يقوم بالفروض المعروفة في الشرع ويمتاز بالشجاعة متخلياً بالأخلاق الإسلامية ورابط الجأش، ونظام الحاميات في الحصون يلزم

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

الضابط بالعيش مع جنوده يشاطرهم معيشتهم ويشرف على تدريبهم اليومي ومن مهمات هذه الحصون أيضاً حماية المدن ونصب الكمائن للعدو، ويذكر المؤرخون أن هذه الإستراتيجية غطت جوانب عسكرية عديدة هجومية ودفاعية، وبعد استكمال الأمير لهذه الجولات الميدانية والتنظيمات الإدارية والعسكرية والسياسية صدرت أوامره إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو^١.

٥. الزحف إلى معسكرات العدو وحصونه:

في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماعاً دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو وحصونه وعُيِّنَت أماكن وخطط وبرنامج مدروس لكل فرقة، وقبل أن تعطي ساعة الصفر تحرك الأمير على رأس فرقة نحو الشعبة الذي كان الحد الفاصل في أثناء الهدنة واشتبك هناك أو تلك الأحرار مع القوات الفرنسية وانتصر عليها وأمر بتشديد الحصار على مدينة وهران، وكلّف عدداً من فرسانه النظامية مراقبة جميع الطرق المؤدية إلى وهران واعتقال كلّ من يحاول فك الحصار والتجارة مع الأعداء المحتلين وقد كان أول من دفع حياته ثمناً للخيانة السيد المدني قاضي أرزيو الذي بعث إلى الحامية الفرنسية قطعاً من الأغنام يبلغ عدده ٣٠٠ غنمة و ٥٠٠ جواد، وحوكم ومن ساعده ونُفذ فيهم حكم الإعدام بالرصاص وحاصر "عين مالفي" واحتلها ثم تحرك على رأس قوة من فرسانه المشاة، وهاجم قبائل الدوائر والزماله في ضواحي وهران واكتسح معسكراتهم، وأسر الكثير من رجالهم^٢، وانطلق ابن سالم بقبائل الحجاجطة وغيرها فاكتسح المتبعة وهدم سائر

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٩.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨٩.

المزارع والمعسكرات ودمر في أيام ما بناه الفرنسيون في سنوات، وتحولت بوفاريك من قرية كولونيلية نموذجية إلى مقبرة دفنت فيها كل مشاريع الاستيطان.

ولم تكد تنتهي سنة ١٨٣٩م حتى هرب الكولون الناجون من القتل من المتيجة داخل مدينة الجزائر، فقد طاردهم المجاهدون حتى حديقة التجارب ثم عادوا إلى موقعهم بالمغانم والسلاح والذخائر^١.

وقد وصلت هذه الأخبار إلى بيجو الذي استشاط غضباً واستولى عليه الهلع، وجاء في التقرير السري الذي أرسله رجال الاستعمار إلى وزير الدفاع في باريس: إن الأمير عبد القادر يتابع ملاحقة جيشنا الذي هُزم في سيدي إبراهيم والمئات من جنودنا يتسابقون في أثناء الانسحاب إلى نواحي أرزيو وهم في غاية الإنهاك والخوف، ولم يبق إلا عدد قليل لم يقتل أو يؤسر^٢.

أ. تحرك المارشال فاله الحاكم العام:

في فبراير . شباط ١٨٤٠م تحرك المارشال فاله الحاكم العام على رأس جيش ضخّم نحو المدينة، فاحتل البلدة، ثم قصد المدينة فاعترضه خليفة الأمير بمليانة وناشبه الحرب واتصل القتال يوماً كاملاً، ولحقت أضرار جسيمة بالفريقين ثم عاد المارشال للجزائر وفي ١٥ / ٣ / ١٨٤٠م احتل الجيش الفرنسي شرشال وعلى رأسه المارشال فاله وكانت عبارة عن قرية صغيرة يسكنها البربر والكراغلة وقبل أن يصل شرشال اعترضته القبائل القريبة منها وأوقفت تحركه أياماً جعلت المارشال يفكر في العودة دون دخول شرشال، وتمكن من التقدم بعد أن كبده المقاومون خسائر جسيمة، ثم عاد المارشال للجزائر بعد أن ترك بها حامية، وكانت الإمدادات تتواصل من فرنسا إلى قواتها بالجزائر وفي أبريل . نيسان وصل الجزائر من فرنسا ابنا الملك الدوق دومال والدوق دورليان على رأس جيش ضخّم فخرج

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

^٢ المصدر نفسه

جيش قوامه ١٢٠٠٠ جندي بقيادة المارشال فاليه إلى المدية يصحبه ابني الملك، وكان الأمير بها فتحرك منها ورابط في مضيق موازية، واصطدم بالعدو ١١ / ٥ / ١٨٤٠م ودامت المعركة حتى سقوط الليل وفي الغد استؤنفت الحرب والتحم الجيشان واستعملت السيوف والحرايب والخناجر، وتمكن العدو من اختيار المضيق وتقدم المجاهدون يناوشونه نحو المدية، وكان كلما وصل غابة أو وادياً استقبله المجاهدون بكمين، وعندما أحس الأمير بأن جيش العدو واصل المدية أمر بإخلائها فغادر الناس منازلهم نحو الجبال المحيطة بالمدينة بما خف وزنه ودخل العدو المدية يوم ١٨ مايو - أيار وبعد أن ترك بها حامية من ٥٠٠٠ جندي وعلى رأسها الجنرال دوفيه وعاد للجزائر واصطدم بالكمائين والقنص التي كان ينصبها له الأمير من قمم الجبال وأطراف الوديان وغابات الزيتون، واستغرقت عودة الأعداء أياماً قضوها في أهوال، وقرر ابن الملك الدوق دورليان التوجه نحو مليانة فقتل في إحدى المعارك في الطريق فأشاع الفرنسيون أنه وقع من عربته فمات وقد سميت مدينة الأضام فيما بعد باسمه^١.

وعندما علم الأمير بتوجه العدو إلى مليانة تقدم نحوها بسرعة فوصل لها قبل العدو وأمر سكانها بإخلائها، واعترض المجاهدون الجيش الفرنسي على طويل ففرضوا قوته بحيث وصل مليانة منهوكةً وذلك يوم ٥ / ٦ / ١٨٤٠م. وكان المارشال فاليه قد أرسل وهو في الطريق رسائل إلى قبائل الناحية يدعوها فيها لطاعة الدولة الفرنسية، فأجابه شيوخ القبائل المذكورة برسالة جاء فيها: لقد ارتكبتم عظيم الذنب بتعديكم على بلادنا أولاً، ثم سعيكم في تغيير ديننا، أما علمتم أن سائر الأديان والنواميس الأزلية تأمر بالعدل وتنهي عن الظلم والتعدي على الحقوق، كما هو منصوص عليه في الإنجيل الذي أرسله الله على

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

نبيه ورسوله عيسى على نبينا وعليه السلام، فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر إلينا لتأخذوا بلادنا وتغيروا ديننا^١.

ويعترف الفرنسيون بالخسائر الرهيبة التي تكبدوها وهم يحتلون الجزائر قرية قرية، فقد لخص بيسكا توري الكاتب السابق للجنة الخاصة للتحقيق في معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن أفريقيا هي الخراب في السلم، والإنهاك وقت الحرب إن أفريقيا هي الشؤم هي الجنون.. وإذا تقرر الدفع فيها بدون حدود فأنا مع هجرها والتخلي عنها، وفي ١٨٣٩م يكتب الجنرال كفينياك يقول: إن المقاومة الجزائرية في فكر الشعب، تتمثل في مقتله للمحتل. وهكذا احتل فاليه ثلاث مدن بخسائر كبيرة وترك حاميات بها عجزت عن الربط بينها وفرضت عليها كوكبات فرسان الأمير المتحركة سجناء داخل ثكناتهم ينهشهم الجوع والمرض^٢.

وبسبب حرب الجزائر عملت بريطانيا على عرقلة النفوذ الفرنسي، ففي اتفاقية لندن ١٥ / ٧ / ١٨٤٠م أي بعد نقض معاهدة التافنة مباشرة، عزلت فرنسا ولم يسمح لها بالمشاركة فيها بحيث شاركت فيها الدول الكبرى الأربع فقط وهي: بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وأمام هذه الخسائر الجسيمة التي تكبدها الجيش الفرنسي تحت قيادة الجنرال فاليه لدى احتلاله للمدن الأربع وقتل ابن الملك، قررت الحكومة إعفاء فاليه، وتعيين الجنرال بوجو حاكماً عاماً للجزائر يوم ٢٩ / ١٢ / ١٨٤٠م ورأى بوجو تصفية مقاومة الأمير واحتلال الجزائر بالكامل، عسكرياً واستيطانياً تحت راية المسيحية التي جسدها البابوية التي ترى . كما كتب جوليان . ضرورة افتتاح الأرض التي شرفها القديس أوغستين من البرابرة^٣.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٣١.

^٣ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣١.

ب . الجنرال بوجو يطبق خطة تدمير الريف وحرقه:

لقد فهم بوجو بعمق أسلوب الأمير في الحرب المتمثل في تجنب المعارك الكبرى المفتوحة، واعتماد الغارات الخاطفة ولهذا فقد غير تكتيك الجيش الفرنسي وجعله يعتمد على المشاة في وحدات خفيفة صغيرة سريعة المناورة والتنقل المرتكزة على أدلة جزائريين بقيادة ضباط المكتب العربي بالجيش الذين يتكلمون العربية ويعرفون تقاليد البلاد، وكان يكره المدفعية ويرى لا فائدة منها في حرب الجزائر المؤسسة لا على المدن وإنما على الريف المزروع بقنابل يدوية فرحل وأمر بالتوقف على استعمال العربات واستبدالها بالغال والجمال لحمل الأثقال، ويرى أساس كل هذا تدمير البنية الاجتماعية للشعب بتدمير الريف والقبائل بحرق حقول حبوبه في مواسم النضج وقطع اشجاره المثمرة ومعاقبة كل قبيلة مقاومة بتجريدتها من أرضها وتمليكها للكلون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان الذي قدر عدده سي حمدان خوجة سنة ١٨٣٣م بعشرة ملايين نسمة.

كانت سياسة بيجو: دمر، إحرق، انهب، وعمل على حرمان خصومه من مواردهم وأرزاقهم حتى أن سكان مقاطعة وهران اضطروا ذات ليلة إلى اللجوء مع أطفالهم ومرضاهم إلى ثلوج جبال أطلس وعمدت القوات الفرنسية التي كانت تراقبهم إلى إغلاق منافذ المغاور التي لجأ إليها هؤلاء السكان في أعالي الجبال وذلك بأغصان الأشجار . اليابسة . ثم أوقدت فيهم النار فمات من بداخلها خنقاً بالدخان وشدد بيجو هجماته على المجاهدين بشكل لم يسبق له مثيل، محاولاً احتلال بعض القلاع وقام بجرائم ومذابح يندي لها جبين الإنسانية^١.

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٣٢.

وفي مراسلة للأمير إلى بوجو قال له: عندما يتقدم جيشك ننسحب، وعندما تنسحب نتقدم، نحارب عندما نرى ذلك مناسباً لنا، أنت تعرف أننا لسنا جبناء. إن مواجهة قواتك الضخمة مباشرة جنون ولهذا نقوم بإحداكها ثم نطاردها ونجهز عليها ويكمل ما تبقى من جيشك المناخ.

ويقول الضابط سانتارنو: إذا طاردناهم يطيطرون كالعصافير، وعندما نذهب يتبعوننا.

ج الإمدادات من فرنسا واستمرار بوجو في التدمير:

وصل بوجو للجزائر يوم ٢٢ / ٢ / ١٨٤١ م ومعه ٨٨٠٠٠ جندي علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وما أن وصل حتى أرسل له الأمير رسالة جاء فيها: أعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضربني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي وقضاه وإني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثاً من عساكركم التي تكافحوني بها، ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات السنين، وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية، أنا أعرض عليكم أن يخرج ابن الملك ليارزني، فإن غلبته تتوجهون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في أيديكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات، وإن غلبني فإنكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة وهزم الجنرال بيجو في معركة إيالة ووهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحادثة أسلحتهم وفي شهر أيلول جرت معركة مريرة قرب مستغانم خسرها أيضاً العدو الفرنسي وعلى إثر هذه الهزيمة طلب المارشال فالي المزيد من الإمدادات العسكرية من فرنسا، وفي السابع والعشرين من ذي القعدة وصل عشرون ألف جندي مدرب، فسار بهم من مدينة الجزائر ماراً ببليدة ومنها سار نحو المدية فاعترضته حاميتها ونشبت معركة دامت يوماً كاملاً من دون أن يحقق المارشال أي تقدم وخسر في هذه المعركة ما

يقارب من ثلاثة آلاف جندي بين قتيل وجريح وقد وصف أحد الصحفيين الحريين هذه المعركة بقوله: مع أن قواتنا كانت أضعاف قوات العرب، تفهقر جنودنا من المشاة النظاميين أمام هجمات قوات الأمير، فقد انقض العرب على القافلة التي كانت في الوسط كالسيل غير آبهين بالرصاص مما اضطر جنودنا لقطع الأحزمة والفرار بينما كان البعض يسقط في الأراضي الموحلة مما جعلهم يسيحون فيها وحتى مؤخرة الجيش أصابها الهلع، إذ لم تتوقع أن تكون ضربات العدو بهذه القوة^١.

ووصف الدوق أربليون أيضاً هذه المعركة فقال: هذه الجموع الكبيرة من قواتنا أصابتها البلبلة ولم تستطع الصمود فلاذت بالفرار، وبقيت تدور حول نفسها في ضياع ولهاث، فقد انتاب هذا الجيش نوع من الهذيان إذ كنا نرى بعضاً منهم عراة مجردين من السلاح يجرّون ويصيحون بأعلى أصواتهم أمام الغرب. والبعض الآخر لم يعودوا يبصرون فألقوا بأنفسهم في نهر ليسيحوا فيه وآخرون انحنوا أمام الشمس يلتمسون العون، علّهم فقدوا شعورهم حتى بغريزة البقاء^٢.

كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه إنها في المكان الرحب الواسع، في حرارة شمس أفريقيا المحرقة، في مكان ندرة المياه، إنها أيضاً في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا^٣.

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال بيجو ولامور سبير وشاغارنيه وكانوا يتساءلون: الحرب مستمرة ولكن هل يمكن أن نتساءل عمن يستحق مزيداً من الإعجاب؟ أهم جنودنا المدربون الشجعان المجهزون بأحدث الأسلحة؛ أمام الرجل الذي يقاتل مليوناً وستمائة ألف جندي بأقل من عشرة آلاف جندي محارب؟

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٥.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٦.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١٠١.

فارس ينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل المتعاونة معنا في المؤخرة ويدمر أجنحتنا ويقتل منا في حالات كثيرة، في الوقت الذي نظن أنه لاشك واقع في أيدينا ويشنت صفوفنا؟^١ قال الجنرال بيجو عن الأمير عبد القادر: خصم صنيدي نخشى بطشه.

ومنذ فترة وقعت في يدي رسالة من جندي قتل كان يؤد إرسالها إلى أهله في فرنسا سنة إحدى وأربعين. كتب: إلى والدي وإخوتي أخبركم بأن حياتي في خطر، إننا متجهون من مدينة الجزائر إلى المدينة ومليانة ولاشك أننا سنصادف أخطاراً ومهالك ولا أدري هل أعود أم لا. ولا يخفى أن الموت ينتظرنا في كل مكان واحتماله قريب، يوجد عندي ألفا فرنك أريد إعطاءها لوالدي لينفقها منها على أولادي، ولا يتركاهم بلا ألبسة جديدة. ثم أقول لكم إن رصاص العرب يصب علينا كالطر وسيوفهم تحصد رؤوسنا بقوة، هذه هي حالنا هنا.

هذه هي حال جنودنا ولكن إن استطعنا الوصول إلى جبهة العدو الداخلية وتمكننا من تفتيتها نكون قد حققنا نصراً كبيراً.^٢

بعد الإخفاق الذريع الذي مني به المارشال بيجو بدأ عملياً بإعداد خطة جديدة، تضمنت حملات عسكرية وغير عسكرية الغاية منها تفتيت الوحدة الوطنية ونشر الإشاعات الكاذبة وتضليل السكان ورجال القبائل وخلق معارك جانبية لا صلة لها بالدفاع عن الوطن، وقد استخدم العدو من جهة أخرى طرق التعذيب والترويع إلى جانب الترغيب السخي بالأموال والمراكز ونجح بيجو في هذا المجال بعد أن أخفق عسكرياً مدة خمسة عشر عاماً متوالية.^٣

٦. خطة بوجو الجديدة الزحف الشامل:

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وعقد الجنرال بوجو مجلساً عسكرياً وخطب قواته قائلاً: إن الأمير عبد القادر كما ترون قد نزل بجيوشه من جبال وانشريس وأصبح قرب التلال، وقد استعاد سائر بلاد الشلف ونهر مينة الجنوبية وأصبحت في قبضته وجميع من يحاذيها من عرب وبربر لم يخرجوا عن طاعته: لذا يجب علينا الخروج دفعة واحدة من قواعدنا في مدينة الجزائر واحتلال المدن والحصون مهما كلفنا ذلك من خسائر^١، وبعث بيجو بالرسائل إلى زعماء القبائل فجاءه رد من زعماء الشراقة والغرابة كبني ثقران وبني غدوة وهذا نصُّ الجواب:

إلى من اتبع الهدى:

لقد وصلنا تحريرك وفهمنا مرادك وهو دعوتنا إلى طاعتكم على أن تجعلوا بلادنا سعيدة مباركة ونحن نجيبك أن لا سعادة توازي سعادتنا بالجهاد وحماية الوطن والثبات في وجه مخططاتكم وإن ديننا يأمرنا بالدفاع عن البلاد، وبعدنا بالجنة عند الاستشهاد ويجب أن تنظروا إلى سلطاننا كما ننظر له نحن، فهو يقاتلكم بقوات قليلة العدد والعدة، فلا مزية لكم علينا وأنتم تملكون خزائن الذهب ودولتكم قديمة منذ ألف سنة وهي تجمع الأموال وتهيء الجيوش وجئتمونا بأعداد من الجنود بعدد نفوسنا وأشجارنا ومواشينا وجبالنا، فلا مزية لكم ولا فخر بأن تخرجونا من دورنا وتحرقوا أغلالنا وتغتصبوا أراضينا ومهما طال الزمن فالنصر لنا، لأن حركم ظالمة لا تكافؤ فيها ثم تعدوننا بأموال الدنيا والله سبحانه وتعالى وعدنا بالجنة في الآخرة، هذا جوابنا: حرر في العشرين من ربيع ثان والحادي عشر من حزيران في سنة ١٨٤١م^٢.

وفي منتصف ذلك العام وصلت الحشود الهائلة من فرنسا واجتمع بوجو بهيئة حربه وقال لهم ما خلاصته:

. نستولى على سهولهم التي ترعى فيها ماشيتهم ويزرعونها.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

. نختار النقاط الإستراتيجية ونبنى فيها مراكز تشرف على الطرق التي تنتقل عبرها.

. نضع وحدات قوية في الحدود الفاصلة بين المناطق.

. لا بد أن يتعلم ضباطنا العربية.

أمر بتقوية التحصينات وبناء تحصينات جديدة حول المناطق التي يحتلوها مثل متيجة، وأمر لأمور يسيير في تطبيق الإبادة "الرازية" على القبائل، كان يأخذ من القبائل كل ما تملك: المواشي، النساء، الأطفال، وكان يستخرج من المطامير الحبوب المخزنة ويأخذها أو يتلفها عين المارشال بوجو على الجهة الشرقية الجنرال بركو باي ديلي، والجنرال بارتسمي على منطقة الجزائر، وتوجه بالقسم الأكبر من الجيش إلى مستغانم يرافقه دتيمور والدوق دومال، وبعد إقامته أياماً في مستغانم غادرها نحو قلعة تاكدمت عن طريق مجاهر، فأمر الأمير عبد القادر أهلها بالجلء عنها حاملين ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن، وكانت وحدات فرسان الأمير تناوشه على طول الطريق ودخلها في ٢٥ / ٥ / ١٨٤١م فوجدها خالية، ثم توجه منها إلى معسكر التي أخلاها سكانها أيضاً، ثم عاد إلى مستغانم، وفي عودته ترصد له الأمير عند فج عقبة خده وفج فرقوف ودارت معركة في الفج الأول طوال النهار خسر فيها الطرفان العديد من القتلى والجرحى، واستغل بوجو سقوط الظلام وانسل عبر الفجين.

أرسل الأمير عبد القادر لبوجو رسالة قال فيها: إني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا، ظناً منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فإن همهم ليست متعلقة بلذائد الأطعمة والأشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية، وما تأخذونه أنتم فهو جزء من جملة أجزاء، ولا أراكم في هذا إلا كمن ملأ قدحه من البحر. وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم، والحروب قد تربينا عليها فنحن أهلها من المهد إلى

اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها، بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرها كيف ما شئنا، آخر يونيو . حزيران ١٨٤١م.

بعد أن قضى بوجو أسابيع بمستغانم إثر عودته من واقعة عقبة خدة خرج بجيوشه بين ١٩ / ٩ و ١١ / ١٩، إلى شمال ولاية معسكر فتفقد قبائل أولاد خليف وصبح غيرها التي دانت له بالطاعة، ثم قصد قبيلة هاشم بسهل إيغرس فدمر منازلها وأحرق مزارعها ثم قصد سعيدة التي خطها الأمير وأسكن فيها مهاجري مستغانم ودخلها فوجدتها خالية فقد أخلاها أهلها، فدمرها وأخضع القبائل القريبة منها كأولاد إبراهيم والحساسنة والجعافرة وحاول فرض باي من طرفه على القبائل لكنه فشل وتجنب الأمير مقاتلة بوجو فتوجه إلى قبائل الدوائر الزمالة قرب وهران العميلة للعدو فحاربها وغنم منها، وعلم بوجو ذلك فعاد إلى وهران وكتب بوجو رسالة إلى رؤوساء قبائل الشراقة والغرابة وبني شقرون وبني غدو يدعوهم إلى الطاعة فأجابوه برسالة طويلة جاء فيها: من القبائل المتمسكين بدينهم الإسلامي الوثيق العرى إلى النصراني بوجو.. قد وصلنا مکتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف.. وأما بلدنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة، وهب أنكم استوليتم عليها وأقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم، فإنكم لا بد وأن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كأمس الذاهب في ٢٠ / ٦ / ١٨٤١م^١.

أ. سقوط مدينة تلمسان:

كان عام ١٨٤٢م عاماً ساخناً مليئاً بالأحداث الخطيرة المؤسفة، فقد أخذ ميزان القوى يختل بشكل كبير يوماً بعد يوم، بعد ذلك الجسر البحري الذي امتد عبر المتوسط من فرنسا إلى ميناء مدينة الجزائر المحتلة حاملاً الجنود المدربين والعتاد وأجهزة الدمار، وأدرك المجاهدون الخطر الذي يواجههم وعلم الأمير أن المدن وقواعده المحصنة تكاد تصبح مهددة، وفي التاسع من شهر كانون حملت إليه رياح الحرب أخبار حملة يُعدّها المارشال

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٥.

بوجود احتلال مدينة تلمسان فأمر بإخلائها لأنها مدينة مفتوحة ولا يمكن الدفاع عنها وأمر أيضاً بتدمير المصانع المتواجدة فيها لئلا يستفيد منها العدو، وتمّ ذلك قبل وصول العدو إليها، وأما السكان الذين بارحوها فلقد عادوا إليها ليلاً وقدموا الطاعة للعدو^١.

ب. مطاردة القبائل:

وبعد احتلال تلمسان خرج بوجو لسبدو فدخلها ودمرها وجرت بينه وبين القبائل المحيطة بها حروب وتمكن من هزيمتها فعبّرت له عن طاعتها ثم عرج على نواحي سعيدة، ثم قصد بلدة القيطنة فأحرقها وهي بلدة عائلة الأمير اختطها جده مصطفى بن المختار سنة ١٢٠٦ هـ ووصفها النقيب دي مونرون فقال: تلك البلدة مبنية بوسط واد يانع بالأزهار تندهش منه الأبصار، وكان لا يظن أنه يوجد بأقصى أفريقيا أبنية محكمة البناء كأبنيتها.

وبعد أن سيطر بوجو في خرجاته على النقاط الإستراتيجية وإخضاع قبائل الجبال بين ندرومة وتافنة وأسس منها "جامعة قبائل ندرومة" تحت شعار "حلفاء لا مهزومون" متبعاً أسلوب الأمير، قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

. قسم تحت نظره ومركزه في نواحي الشلف.

. والثاني تحت قيادة الجنرال شانكري ويكون مركزه البليلة.

. والثالث تحت قيادة الجنرال لاموريسيير ويكون مركزه معسكر.

وفي آخر الشتاء خرج كل إلى المنطقة المحددة له، وراحوا يطاردون القبائل التي تركت منازلها وارتحلت إلى الصحراء: كانوا يستولون على مواشيها ويحرقون أكواخها وخيامها ويفرغون مطاميرها من الحبوب في عمليات إبادة عرفت باسم "الرازا" تستهدف ضرب مصادر قوت وحياة القبائل وفرض الطاعة عليها، فبوجو مثلاً أرسل تهديداً للقبائل المقيمة بين سفوح الشفة والبحر غرب متيجة بأنه سوف لا يكتفي بحرق حقول الحبوب،

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٠٥.

بل سيقطع الأشجار المثمرة. ومع هذا فإن القبائل التي تنضم مرغمة للفرنسيين تتمرد عليهم بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك^١.

٧. فظائع الجيش الفرنسي:

ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازايا يروي العقيد مونتانياك قائلاً: أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحداً حياً بين العرب، كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربياً حياً أن يجلدوه.

ويقول النائب البرلماني طوكفيل: إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم، لم نستطع هزم العرب حربياً فهزمناهم بالتدمير والجوع.

ويقول مونتانياك: لقد محا الجنرال لاموريسيير من الوجود خمسة وعشرين قرية في خرجة واحدة، إنه عمل أكثر انعداماً للإنسانية ويروي: فمجرد أن حدد موقع القبيلة انطلق سائر الجنود نحوه ووصلنا الخيام التي صحا سكانها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين نساء وأطفالاً ورجالاً مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات، هذا جندي يقتل نعجة، بعض الجنود يدخلون الخيام ويخرجون منها حاملين زراي على أكتافهم، بعضهم يحمل دجاجة تضرم النار في كل شيء يلاحق الناس والحيوانات وسط صراخ وثناء وخوار، إنها ضجة تصم الآذان، شهدت مدينة معسكر يوم ١٩ / ١٢ / ١٨٤١م الفظائع و"الرازايا" كما يسميها الفرنسيون لا تهدف إلى معاقبة المخطئين وإنما صارت مصدراً لتموين الجيش، كان كل ما ينهب يباع ويوزع ثمنه على الضباط والجنود ربع الغنائم للضباط والنصف للجنود^٢.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٦.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦١.

يقول النقيب لافاي: كان الضباط يخشون الفلاحين بين أن يقدموا لهم الأكل أو الإبادة، كنا نخيم قرب القرية، يعطيهم الجنرال مهلة لإعداد الطعام أو الموت، كنا نوجه سلاحنا نحو القرية وننتظر ثم نراهم يتوجهون لنا ببيضهم الطازج وخرافهم السمينة ودجاجاتهم الجميلة وبعسلهم الحلو جداً للمذاق^١.

يعلق ش.أ. جوليان: وتنتشر الرايا فتصير أسلوباً للتدمير المنظم والمنهجي الذي لم يسلم منه إلا لأشخاص ولا الأشياء. إن جنرالات جيش أفريقيا لا يحرقون البلاد خفية، إنهم يستعملون ذلك ويعتبرونه مجداً لهم سواء كانوا ملكيين أم جمهوريين أو بونابرتيين. يقول مونتانيك: إن الجنرال لاموريسير يهاجم العرب ويأخذ منهم كل شيء: النساء والأطفال والمواشي، يخطف النساء، يحتفظ ببعضهن رهائن والبعض الآخر يستبدلن بالخيول، والباقي تباع في المزاد كالحوانات، أما الجميلات فمنهن فنصيب للضباط^٢. ويروي الضابط المراسل لسانت أرنو: إن بلاد بني مناصر رائعة، لقد أحرقنا كل شيء ودمرنا كل شيء، آه من الحرب، كم من نساء وأطفال هربوا منا إلى ثلوج الأطلس ماتوا بالبرد والجوع.. إننا ندمر، نحرق، ننهب، نخرب البيوت ونحرق الشجر المثمر. يقول مونتانيك: النساء والأطفال اللاجئون إلى أعشاب كثيفة يسلمون أنفسهم لنا نقتل، نذبح، صراخ الضحايا واللاقطين لأنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات الحيوانات وهي تنغو وتحور، كل هذا آت من سائر الاتجاهات، إنه الجحيم بعينه وسط أكداس من الثلج، إن كل ذلك من العمليات التي قمنا بها تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة، وكنا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان، يقول الجنرال كارويير: ينفذ جنودنا هذا التدمير بحماس، إن التأثير الكارثي لهذا العمل البربري والتخريب العميق للأخلاق الذي يبيث في قلوب جنودنا وهم يذبحون ويغتصبون وينهب كل واحد منهم

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.

لصالحه الشخصي^١، ويقول النقيب لافاي: لقد أحرقنا قرى لخريمس في قبيلة بني سنوس، لم يتراجع جنودنا أمام قتل العجائز والنساء والأطفال. إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئاً يدافعون به عن أنفسهم^٢.

٨. شهادات ضباط فرنسيين على صلابة الشعب الجزائري:

اعترف المارشال بوجو بمناقب الأمير وصلاحية الشعب الجزائري فقال يوم ١٧ / ٣ / ١٨٤٥م: لم نأخذ من هذا الشعب أي شيء إلا بالقوة، وصرح يوم ١٥ / ٦ / ١٨٤٢م: إن القبائل التي قمعت تبقى مطيعة، أخضعنا العرب بالسلاح ولا يمكن أن نحافظ على هدوئها إلا بالسلاح.

ويصرح بوجو أمام البرلمان الفرنسي: آه لو لم تكن بالجزائر عرب أو لو كان هؤلاء يشبهون تلك الشعوب المخنشة في الهند، لما نصحت بلادي بأن تخصص مبالغ مالية كبيرة للاستيطان، لكن وجود هذه الأمة الصلبة والمعدة جيداً للحرب، أكثر الجماهير الأوروبية التي يمكن لنا أن ندخلها هذا البلد، يفرض علينا أن نغرس وراءها وإلى جانبها وفي وسطها شعباً قوياً قدر الإمكان.

ويجب شيوخ القبائل المارشال بوجو: إن تحرق وتدمر مزروعاتنا وتقطع شعيرنا وقمحنا وتنهب مطاميرنا أرسل رجلاً مقابل رجل أو عشرة مقابل عشرة أو مائة مقابل مائة أو ألفاً مقابل ألف، وسترى إن كنا سنراجع.

ويقول دوق دورليون: إن هؤلاء الرجال يلحقون الضرر بالفرنسيين أكثر مما ألحقته الجيوش الأخرى بهم، إنهم يفرضون على الجيش الفرنسي ألا ينام وأن يكون دائم اليقظة.

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٦٣.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٣.

ويصرح في ١٧ / ٢ / ١٨٤٣م: إن تنظيم الأمير مبني على معرفة كاملة بالأوضاع المحلية، وبالعلاقات القبائل بعضها ببعض وبالمصالح المتنوعة، وباختصار هو مبني على ذكاء كبير للرجال والأشياء، ولا بد من الحفاظ على هذا كله في حكمنا.

ويقول الجنرال بودو يوم ٢٧ / ٤ / ١٨٤٧م: كل نساء القبائل أسفوا لاضطرارهم إلى خدمتهم لنا، ويخفون نواياهم الحقيقية إزاءنا، وسوف ينقلبون ضدنا في أية فرصة تسنح لهم وهذا يدخل في طبيعة الأشياء، يجب ألا تكون لنا ثقة كبيرة فيهم، وكأن هذا الجنرال يتنبأ بما سيحدث على يد الباشان مقراني بعد ربع قرن.

كان بوجو يرى أن الاستيطان هو الذي يثبت أقدام الفرنسيين بالجزائر، فيقول: يكون الاحتلال عقيماً بدون استيطان. ويعترف الفرنسيون بصلاية الشعب الجزائري فيلخصها ابن الملك الفرنسي الدوق دومال: لقد كان احتلال الجزائر طويلاً وصعباً، كانت عراقيل النفاذ للداخل من الشمال إلى الجنوب تتمثل في الجغرافية، وفي العداء الشرس لوطنية حربية مؤسسة على إسلام حصين لا يقهر، كلها تطيل التقدم وتزيد من الخسائر.

كان الجيش الفرنسي في الجزائر يزداد عدده كل سنة:

. ففي سنة ١٨٣١م كان عدده ١٨٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٣٧م إرتفع إلى ٤٢٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٤٤م إرتفع إلى ٩٠٠٠٠.

. وفي سنة ١٨٤٨م إرتفع إلى ١٠٨٠٠٠.

لقد شارك في جيش الاحتلال الفرنسي الكثير من الأوروبيين. ففي سنة ١٨٣٣م كان عدد الفيالق الأوروبية ٣ فيالق ألمان وسويسريان اثنان بالجزائر العاصمة وفيلق واحد إيطالي داخل الجزائر وفيلق واحد إسباني بوهران، وفيلق بلجيكي في عنابة وكل هذه الفيالق كانت منصوبة في إطار اللفيف الأجنبي، قال عنهم الجنرال كاروبير: إن جنود الفيلق الأجنبي هم بقايا جيوش أوروبا، أغلبهم قتلة ولصوص فارون من الجيوش.

ويتغلب الجنود الفرنسيون على أهوال المقاومة بالسكر، يروي بعض الضباط الفرنسيون: كانت الخمر هي الضرورة للبطولة وهي المشجع لاستعمار أفريقيا، تحرك الشجاعة وتمنع الخوف^١.

٩. رسائل الأمير إلى الحكومات العربية والأجنبية:

اقترح بعض كبار القادة العسكريين على الأمير إخلاء الحصون من حُماتها وضمهم إلى قوات الفرسان المتحركة واجتمع المجلس العسكري وأقر الأمر فحرر الأمير رسائل إلى عدد من الحكومات الإسلامية والمجاورة طالباً العون والمساعدة السريعة منها:

. رسالة إلى السلطان عبد المجيد خان في الدولة العثمانية:

يشرح له فيها الأخطار التي تهدد البلاد وهي رسالة مطوّلة فيها صرخة استغاثة.

. ورسالة إلى الحكومة البريطانية: التي كانت على خلاف مع الحكومة الفرنسية بسبب توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا اتصل بهذه الأخيرة وعرض عليها عقد معاهدة معها، لكن الفرنسيين عملوا على تخفيف التوتر مع البريطانيين، فلم تستجيب لندن للأمير^٢.

. وأرسل رسالة إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام حاكم المغرب، ورسالة إلى قاضي فاس الشيخ عبد الهادي يستفتيه في أمور الجهاد، وفيما يتعلق بمهادنة الأعداء ورسالة أخرى إلى علماء فاس والرباط، لم يكن بالأمير حاجة إلى فتاوى فقهية، لكنه أراد من هذه الرسائل إيقاظ الشعوب الإسلامية وحثها على إعلان الحرب على العدو المستعمر^٣.

وكانت الدول العربية والإسلامية جميعها تغطّ في سُبات عميق، وليت الأمر اقتصر على هذا فقط، بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة وعلمت السلطات الفرنسية بهذه المراسلات فطلبت من السلطان عبد الرحمن بن هشام

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٠.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ١١٠.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١١٠.

ملك المغرب أن يمنع دخول المساعدات عبر حدوده للأمير، ويضع حداً لنشاطه ولنشاط قواته أيضاً، فأجابها بأن بلاد الريف خارجة عن طاعته وتخضع للأمير عبد القادر، وكان يظن أن ذلك ينجيه ويعفيه من المسؤولية، ولكن الذي حصل العكس^١، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله.

سادساً: عاصمة الأمير "المدينة المتنقلة"

دعا الأمير ذات صباح في مدينة المدينة المجلس العسكري الاستشاري للانعقاد وخاطب الجميع بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وبفضل الله وإحسانه مازالت انتصاراتنا مستمرة ومازالت حصوننا تحرس المدن والمصانع فيها تمدنا بالأسلحة، ولكن بحال هوجمت حصوننا بقوات لم تستطع حمايتها الدفاع عنها وعن المصانع التي كلفتنا الكثير، لماذا لا نخلي الحصون من هذه المصانع وننقلها إلى مكان آمن؟ أما المدن التي لا نريدها ساحات قتال ماذا يضرنا لو تركنا العدو يحتلها مؤقتاً ونقاتله بعيداً عنها كما يفعل الآن؟

هذه المدن لن يستطيع العدو تغيير أي نظام إداري فيها ولا في الخدمات ولا في القضاء ولا في أي أمر إداري وكل ما سيفعله هو وضع ضابط فرنسي في غرفة الوالي وعدداً من الجنود يتجولون في شوارعها، ولكنهم لن يرحموا عائلاتنا من النساء والأطفال، ولنتذكر ما فعلوه بعائلة ملكهم لويس السادس عشر، وكيف عذبوها وأهانوا أطفالها وكيف سحّبوا زوجته ماري أنطوانيت إلى المقصلة بهذا الأسلوب المتوحش تصرفوا مع ملوكهم فكيف تتخيلون سينصرفون مع عائلاتنا إذا وقعوا في أيديهم؟

وقف القائد الكبير بوحميدي بعمامته البيضاء وبنسه الأحمر وسيفه الذي لا يفارق خاصرته وأجاب قائلاً: ربما سيأخذونهم أسرى يضعونهم في أقبية سجونهم ويساوموننا عليهم كرهائن، ووقف أحد الأعضاء وقال: أقترح أن يبعدونهم إلى قصر كاشروا، أجب

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٢.

الأمير: وإذا هاجموا قصرنا في كاشروا بقوات هائلة لا قبل لنا بقهرها؟ فوقف القائد بن
علال قائلاً: يا مولاي ماذا في ذهنك من حل؟ وما خطتك؟ فلنستمع إليها، وبعد ذلك
نعطيك رأينا فيها. كان الأمير في هذه الجلسات يتكلم وهو جالس فقال: فلننشيء
مدينة متنقلة، فأخذ أعضاء المجلس ينظر كل منهما إلى الآخر مذهولاً، وشرح الأمير لهم
فكرته واقتنعوا بها وشرع في تأسيس عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب
عديدة، فخطط لبنائها، وفي مدة قصيرة ظهرت الوجود على أروع الأساليب وسمي ما
يخصه منها الزمالة وما يخص الأعيان والعامّة بالدائرة وما يخص الجند منها بالمحلة، واتخذ
فيها مضارب لمعامل السلاح، وأخرى لوضع العتاد الحربي، ومثلها للذخائر، وفسطاطاً
كبيراً لاجتماع المجلس العام، وآخر اتخذ مسجداً وأعدت مضارب بعيدة عن السكن
للباعّة والسوق التي كانت تجي إليها المؤن وسائر ما يلزم وكانت تضم مضارب
للحرفيين بمختلف الأنواع من نجارة وحدادة وغيرها، وكان يسودها نظام تسييري متقن
وكانت هذه العاصمة تتمتع بمنظر جميل، وقدر عدد سكانها بعشرات الآلاف وبعضهم
يرى أنه كان مائتي ألف نسمة^٢.

ووجد الأمير عبد القادر صعوبة في إقناع من كان يجب عليهم الحياة في الصحراء
والانتقال من بيوت الحجر إلى بيوت الشعر فنظم بهذه المناسبة قصيدة غايتها الترغيب
بالحياة الجديدة والقصيدة هي:

يا عاذراً لا مرئ قد هام في الحضر

وعاذلاً لمحّب البدو والقفر

لا تذمّن بيوتاً خفّ حملها

وتمدحن بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٠.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٧.

لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً
بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جلست في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شيق عطر
تستشقن نسيماً طاب منتشقا
يزيد في الروح لم يمرر على قدر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه
علوت في مرقب أو جلست بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها
سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن
في قلب مضمّن ولا كدّاً لدى ضجر
نبادر الصيد أحياناً فنبغته
فالصيد منا مدى الأوقات في دُعر
فكم ظلمنا ظليماً في نعمته
وإن يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدّت هواجسنا
شقائنا عمّها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كُوى
مرقعات بأحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل

أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياذ الخيل تُركضها
شليلها زينة الأكفال والخصر
نطارذ الوحش والغزلان نلحقها
على البعاد وما تنجو من الضمر
تروح للحي ليلاً بعدما نزلوا
منازلاً ما بها لطنخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها
صوت الغمائم بالآصال والبكر
نلقي الخيام وقد صُفّت بها فغدى
مثل السماء زهت بالأنجم الزهر
قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه
نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهرُ في بيتين رونقه
بيت من الشعر أو بيت من الشعَر
أنغامنا إن أتت عند العشي نَحْلُ
أصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل أنجى لراكبها
سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهاري وما للريم سرعتها
بها وبالخيل لننا كل مفتخر
فخيلنا دائماً للحرب مسرحة

من استغاث بنا بشَّرّه بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً
وأني عيش لمن قد بات في خفر
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه
وأرضه وجميع العز في السفر
وإن أساء علينا الجار عشرته
نبئُ عنه بلا ضُرٍّ ولا ضرر
وبيت نار القرى تبدو لطارقنا
فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدُّونا ما له ملجأ ولا وزر
وعندنا عاديات السبق والظفر
شراهما من حليب ما يخالطه
ماء وليس حليب النوق كالبقر
أموال أعدائنا في كل آونة
نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تدم به
إلا المروءة والإحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية
والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى
فنحن أطول خلق الله في العُمُر

كان مشهد مدينة الخيام يحرك أفئدة المهاجرين ويستهوئ قلوبهم ويشعل مشاعر الحمية والحماسة فيهم، كانت هذه المدينة نشيداً وطنياً يعلو على مناكب الرياح فيصل إلى أسماع الوطن، يخالطه صليل السيوف وأزيز الرصاص وهتاف الرجال "الله أكبر" هذه المدينة خلقت على الروابي والهضاب حُلّة من البهاء، فكانت أينما حلّت حلّ الازدهار وتعطرّ الفضاء بنسائم الحرية وما كان المجاهدون يعودون من حملاتهم إلى هذه المدينة المتحركة حتى تنقلب أهازيجهم الحماسية إلى نسائم من الحب والتقوى والعواطف الصادقة ومشاعر الأمل، الأمل بالانتصار والعيش الرغيد بعد تطهير الوطن من الغزاة وتفويض صروح كبريائهم.

١. معركة حصن داکمت:

في صباح الخامس عشر من شهر أيار سنة ١٨٤٢م، سار الجنرال لامور سير تصحبه قوة كبيرة من الجند إلى حصن داکمت واشتبكوا مع الأمير وكان مخطط العدو احتلال الحصن مرة أخرى، هذا المركز الهام الذي شيده عبد القادر بن محيي الدين وكان أهم حصونه وحاصر لامور سير الحصن عدة أيام ثم تحصن في مكان قرب الحصن وكان إلى جانب الجنرال رئيس قبيلة الدوائر مصطفى بن إسماعيل على رأس قوة كبيرة من رجاله، وانتظر الأمير إلى عسعس الليل وفاجأهم بهجوم من عدة اتجاهات، هجوم لم يكونوا يتوقعونه وقد كانت هذه خطته في أكثر المعارك: الهجوم بدل الدفاع، فأنهال الفرسان بخيولهم على قوات العدو يدوسون الجموع بحوافرها غير مبالين بالرصاص والقذائف، وقد وصف أحد الصحفيين هذه المواجهة بقوله: إن العرب كانوا يقاتلون بجنون وليس بشجاعة^١، وقتل في هذه المعركة القائد المتعاون مع فرنسا مصطفى بن إسماعيل عمّ

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٥، ١١٦.

المازري زعيم قبيلة الدوائر، وراه أحد المجاهدين يتخبط بدمه فقطع رأسه وجاء به على رأس حربه إلى مركز القيادة صائحاً هذا رأس الفتنة الخائن ابن إسماعيل وإنتهت هذه المعركة بنصر المؤمنين وهزيمة الغزاة من دون أن يتمكنوا من دخول الحصن والتمركز فيه^١.

٢. هزيمة المارشال بيجو في مضيق عقبة خده:

شاهد بعض فرسان الأمير شرذمة من جنود العدو بقيادة المارشال بوجو الذي كان يلاحق الأمير، وشاهدوا مؤخرة جيشه تحميها قوات كبيرة فأدركوه ونشبت معركة وهلك أكثر جنده إذ لم تتمكن هذه القوات من الصمود لحين وصول النجدات، وحاصروهم المجاهدون في مضيق من عدة جهات، ثم انقضوا عليهم كالأسود فحاول المارشال النجاة بمن بقي معه من الجنود بعد أن خسر أربعة وخمسين منهم، لكن القتال تواصل عنيفاً حتى بزوغ الفجر، وكان هناك بين الصخور شهيدان صعدت روحهما الطاهرة إلى السماء، الأول القدور بن بحر من كبار قادة الجيش المحمدي والثاني الخليفة محمد بن الجيلاني.

وفي غبش الصباح الباكر هدأ كل شيء ولفّ الصمت ذلك الوادي الموغل في القدم، وأصبح الانضباط على أشده بين المتقاتلين، وأفلح العدو في الانسحاب المنظم حاملاً جرحاه متسللاً بين الصخور والأودية الوعرة والرماة الجزائريون يلاحقونه بسهامهم مما اضطر البعض منه لالتقاء الأخطار بالاختفاء وراء الصخور وتحدث الجنرال دو فيغير الذي كان يرافق تلك الحملة فقال: بعد خروجنا من مضيق الموت سرنا إلى سهل الزيتون فوجدنا حامية من جنودنا أخذت بمساعدتنا على نقل الجرحى والموتى إلى مدينة الجزائر، وفي طريقنا وجدنا مدينة خالية من السكان ولم يبق من عماراتها سوى مساجدها القوية البنيان فاتخذناها مأوى للمرضى من جنودنا ولعدم وجود حطب للتدفئة استعملنا سقوف المنازل لسد العوز، وكان يجب علينا عدم إطالة البقاء في هذه المدينة الجميلة

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٦.

الواقعة على تل زاهر كبير، وكان يضم آثار قلعة قديمة وكان من عادة العرب عدم ترك أي شيء يُستفاد منه، ورأينا أن الإسراع بإخلائها وعدم المكوث فيها طويلاً أمراً يفرضه الواقع المحزن^١.

٣. بر الأمير بوالدته:

وصل موكب الأمير إلى مدينته الجديدة الزمالة، وكان الأمير يسير في مقدمة الفرسان، وعندما وصل إلى مضارب عائلته ترجّل وسلّم جواده إلى السياس، ثم دخل خيمة والدته وقبل أن يزيل عن جسمه غبار المعارك والطريق تقدم من والدته وانحنى يقبل يديها وجلس عند قدميها وأخذ يحدثها عن آخر معركة وانتصاره فيها، وعمن استشهد من فرسانه، وعمن قتل من الأعداء وهي تستمع إليه بكل اهتمام، ثم سألته عن بقية المجاهدين وأحوالهم قائلة: يا بني أشعر بوشائج قوية وخيوط تربطني بالمجاهدين من أنصارك أصحاب الوفاء وهؤلاء المؤمنين أشعر بخيوط خفية تربطني بهم، خيوطاً قدسية خفية تجعل يدي في جوف الليل وابتهالامي في التهجد وصلواتي ترتفع لهم بالدعاء.

أجابها وهو يقبل يديها بحنان: هذه الجلسات يا أماء تحت قدميك هي من أفضل الأوقات المحبة إلى النفس فهي تزودني بطاقات هائلة من القوة والاطمئنان، وأشكر رب العالمين الذي وهبنا أنا وإخوتي أمماً مثلك مجاهدة مثلاً للصبر والتقوى، تستحق الإجلال والاحترام بين يديها الحنونتين^٢.

٤. زيارات ميدانية وتوجيهات قيادية:

بعد أيام من الراحة خرج الأمير عبد القادر بصحبة بعض فرسانه من القادة العسكريين والعلماء والأطباء أيضاً للقيام بالزيارات الميدانية التي اعتاد القيام بها قبل انتقاله إلى مدينة

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٨.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٥.

الخيام فزار المستشفيات في المناطق التي لازالت تحت سلطته، فوقف أمام أطباء إحدى المشافي وخاطبهم بقوله: عليكم نقل العلوم الطبية في معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب بشكل طبي لجعلها مفيدة لوضع العقاقير من هذه الأعشاب، لقد دفعت الأموال الطائلة من موارد مزارع عائليتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب ومؤلفات نادرة ككتاب "الأدوية المفردة" للطبيب العالم أحمد بن محمد العافقي، ومؤلفات ابن سينا، وابن البيطار، والصوري، وأبو القاسم الزهراوي. بعد انتهاء الأمير من هذه الجولات عاد إلى الزمالة فوجد رسالة تنتظره من خليفته على مناطق جرجرة أحمد بن سالم فأجابه بالرسالة التالية:

الحمد لله وحده

أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله وشكره في الشدائد كن صبوراً فالصبر مفتاح الفرج، كن شجاعاً واجمع قواتك بين وقت وآخر، واتل عليهم الآيات القرآنية، آيات الجهاد، وشد من عضدهم، وصارحهم برأيك، واستمع إلى مطالبهم وآرائهم، وخذ بأحسنها ولا تهملها وتحمل هفواتهم، ولكن لا تنهون مع المتخاذلين منهم فهذه الأحوال الصعبة لن تدوم وإن شاء الله أكون معكم عندما تتاح لي فرصة^١.

وأرفق هذه الرسالة بقصيدة من نظمه ضمنها كل ما يحمله قلبه من محبة لهؤلاء المجاهدين، أقتطف منها هذه الأبيات:

يا أيها الريح الجنوب تحملي

مئي تحية مغرمٍ وتحملي

وأقري السلام أهيل ودِّي وأنثري

من طيب من حمّلت ريح قرنفل

أدّي الأمانة يا جنوب وغايتي

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٠.

في جمع شملي يا نسيم الشمال
وأهدي إلى من بالرياض حديثهم
أزكى وأحلى من عبير قرنفل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي
مه ذا محالُ ويك عنه تحوّل
كيف التصبّر عنهم وهم هم
أرباب عهدي بالعقود الكمل
أيحلُّ ربُّ الدهر ما عقدوا وكم
حلت عقودي بالمنى المتخيّل
تفديهم نفسي وتفدي أرضهم
أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناساً ليس يُدعى غيرهم
حاشا العصابة والطرار الأول
يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً
حمل اللواء الهاشمي الأطول
قد خصّهم وأختصّهم واختارهم
ربُّ الأنام لذا بغير تعمل
إن غيرهم بالمال شحّ وما سخا
جادوا ببذل النفس دون تعلُّل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم
في حبِّ مالكنّا العظيم الأجل
كم يضحك الرحمن من فعلاهم

يوم الكريهة نَعَمْ فعلُ الكُمَل
الصادقون الصابرون لدى الوغى
الحاملون لكل ما لم يُحْمَل
إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً
هم يبتغون قِراع كتب الجحفل
وَأَلَدَ شيء عندهم لحْم العدا
ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضَيِّقٍ
رغماً على الأعداء بغير تَمُؤُل
لا يعرف الشكوى صغير منهم
أبدأً ولا البلوى إذا ما يصطلى
كم نافسواكم سارعواكم سابقوا
من سابق لفضائل وتفضّل
كم حاربواكم ضاربواكم غالبوا
أقوى العداة بكثرة وتمؤُل
كم صابرواكم كابرواكم غادروا
أعنى أعاديهم كعصف مؤكل
كم جاهدواكم طاردواكم وتجلّدوا
للنائبات بصارم وبمقول
كم قاتلواكم طاولواكم ما حلوا
من جيش كفر باقتحام الجحفل
كم أدلجواكم أزعجواكم أسرجوا

بتسارع للموت لا يتمهل
كم شردواكم بددوا وتعودوا
تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم
عند الصباح له مشوا بتهلل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة
ممسوحة بثياب كل مجندل
لا يحزنون لهالك بل عندهم
موت الشهادة غبطة المتحول
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة
والنقص عندهم بموت الهمل
يا ربُّ يا رب البرايا زدهم
صبراً ونصراً دائماً بتكئمل
وافتح لهم مولاي فتحاً بينا
وأغفر وسامح يا إلهي عجل
يا رب يا مولاي وابقهم قذئ
في عين من هو كافر بالمرسل
وتجاوزن مولاي عن هفواتهم
والطف بهم في كل أمر مُنزل
يا رب واشملهم بعفو دائم
كن راضياً عنهم رضا المتفضل^١

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

٥. الهجوم على المدينة المتنقلة:

في عام ١٨٤٣م باتت البلاد مسرحاً للعمليات العسكرية والنشاط الحربي، كان الأمير يصول ويجول بقواته شرقاً وغرباً، والمجاهدون من حوله يحصدون رؤوس المحتلين ويلقون في نفوسهم الرعب واليأس.

ذات يوم جمع المارشال بيجو زملاءه من الضباط وقال لهم: الحرب مستمرة وعبد القادر يقاتل بعشرة الآف، مائة ألف من جنودنا المدربين، إنه فارس شجاع ينزلق بين كتائبنا ويضرب ثم يختفي بلمح البصر، يدمر أجنحتنا القوية، ويفلت منا في الوقت الذي نظن أنه أضعف منا، يشتت صفوفنا، وليس هذا فقط بل إنه يضرب القبائل التي تتعاون معنا بأسلوب آخر عن حربه معنا ولا توجد معركة خسرنا فيها أقل من ٦٠٠ جندي وعشرات الضباط ولكن هل تعلمون أين تكمن قوته الآن؟ هي في المدينة المتنقلة وعلينا اكتشاف مكانها وتدميرها^١.

بعد مرور سنتين على عمر هذه المدينة الأعجوبة كان على الأمير الهجوم على قوات لامور سيير التي تركزت في أحراش سرسو، وخرج من الزمالة على رأس ثلاث الآف مقاتل وترك ٥٠٠ كان بينهم جرحى لم تشف كلومهم بعد، كبار السن وإخوة الأمير وأولاد أعمامه. وصل الأمير إلى مشارف أحراش سرسو فشاهد جنود العدو ينصبون الخيام، ويستعدون للراحة، فأمر فرقة من المجاهدين تكمن في تل قريب من الحرش وأعد أخرى جعلها تحاصر العدو، وكعادة الأمير أمر الفرقة الأولى بالهجوم مناوشة من غير أن يعرف العدو مصدر النار، ثم ظهرت وأرخت العنان لجنود لامور سيير باللاحاق بها في الغابة وهناك كان الأمير قد وضع الكمائن ونشبت معركة وانحال فرسان الأمير من كل جهة، ودبت الفوضى بين صفوف العدو وشاهد لامور سيير جنوده يتساقطون بين أشجار الغابة بعد أن قاتلوا حتى الرmq الأخير دفاعاً عن أنفسهم، فأمر بالانسحاب يجر

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٣.

أذبال الخببة وعللس الأمر على إحدى الصخور يداعب سلاحه وشاهده أحد المجاهدين فأقبل عليه يهنئه بالنصر فلم يبتسم كعادته وقال: إن قلبي مقبوض لا أدري لماذا، وسار نحو الغدير فتوضأ وصلى بالمجاهدين، وما إن فرغ من الدعاء حتى أقبل فارس من المدينة المتنقلة وأخبره أن بعض المتعاونين أرشدوا العدو لمكان مدينة الخيام وبالتأكيد لولا هؤلاء المرشدين الخونة لاستحال على العدو معرفة مكانها، وقال الفارس: عندما بدأت الشمس تغيب في كبد السماء بعد مغادرتك يا مولاي بساعات لاحظنا فرساننا بألبستهم البيضاء يظهرن من جديد وكأنكم غيرتم الخطة وعدتم وكانت الشمس تسدد سهامها النارية نحو الرمال فلم نكتشف الخديعة، وأن جنود العدو ارتدوا ملابس فرساننا إلا بعد دخولهم مضاربنا، ففرع كل من في الحي لمقاومتهم حتى النساء ودارت معارك دموية داخل مضاربنا وكانت أصوات الرصاص تتعالى مع أصوات النساء والعدو حرق ودمر كل شيء ونهب، والآن السكان متفرقون بين الشعاب والتلال بعد حرق خيامهم، فنسأل الأمير: هل من شهداء؟ أجاب كثير ولكن الأسرى كانوا أكثر وبينهم محمد بن علال، ومحمد الخروبي، وقذور بن رويلة على ما أذكر، قفز الأمير فوق جواده وأمر فرسانه بالعودة، ووصل ذلك المكان وهو يسبح في غسق مريع والسكان مبعثرون بين التلال كالنجوم المتناثرة في السماء وتسابق المجاهدون فما من أحد منهم إلا وله أم أو زوجة أو أولاد أو قريب في هذه المدينة وأخذوا يفتشون عن ذويهم بين التلال وراح الأمير يسأل عن والدته وأهله وزوجته فوجد أهله لم يبارحوا مضاربهم ووالدته داخل مسجد قد احترق نصفه تقرأ القرآن وزوجته وعائلته يللمون ما تبقى من متاعهم وعندما شاهدت الجموع الأمير اجتمع الرجال حوله وشخصت أبصارهم إليه حائرين فما كان من الأمير إلا أن بادهم بقوله: نحن جميعاً في هذا المكان مجاهدون نساء ورجالاً وأطفالاً ينبغي لنا ألا نجبن ولا نياس بل نكون أشد إصراراً على تحمل الأذى والقدرة على التضحية لدفع هذا الأذى

عن الوطن وتلقين العدو ضربات أكثر قوة وطرده خارج بلادنا، ثم انطلقت هذه الأبيات من فمه محتدمة كاللظى:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت

بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع

إذا النفوس سلمت من العطب

قال هذه الأبيات ويده ممسكة بلجام جواده تكاد تتجمد من البرد ثم أمر بتحرك لواء من الفرسان لمطاردة فلول المهاجمين، ولا بد من الرد السريع، وانطلق هو على رأس قوة من الجيش نحو أسهل طريق للزمانة وأدرك أن العدو لابد سالكه في طريق عودته^١.

٦. الرد السريع على من هاجم المدينة المتحركة:

رفع الأمير يده مشيراً إلى الجيش بالتحرك لإنقاذ الأسرى وإعادة ما نهب بعد أن أمر فرقة من الجيش بالانطلاق نحو التلال وقسم آخر من المشاة نحو الأحراش باتجاه منطقة طاكين، وسارت كل من هذه الفرق في دروب مختلفة علّ أحدها تصادف الدوق دومال ابن ملك فرنسا وتنقذ الأسرى، وما أن وصل الأمير إلى التلال حتى شاهد جيش الدوق يسير وهو مثقل بالغنائم، فأمر فرسانه بالهجوم وإذا بذلك الليل البهيم يتحول إلى حزم من نيران البنادق وكان صهيل الخيول يتعالى ممزوجاً بتكبيرات المجاهدين "الله أكبر" وصيحاتهم جعلت أوصال قوات العدو ترتعد خوفاً وتهتز رهبة وعلا غبار المعركة واشتد أزيز الرصاص وأصوات قنابل المدافع، والمجاهدون يقفزون من مكان إلى آخر يفتشون عن الأسرى الأبطال إلى أن وجدوهم مكبلين في العربات ففكوا وثاقهم وجمعوهم بالأمير الذي أصبح برنسه كالغربال من كثرة ما وقع فيه من رصاص وأكثر من ذلك ففي نهاية المعركة قتل حصانه فقفز منه على الأرض وإذا بضابط فرنسي يصيح وقع وعلى الفور

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

التف حوله خمسة من جنود العدو بقيادة هذا الضابط برصاص زملائه وعندما شاهد الجنود الأربعة ملقى على الأرض أسرعوا باللاحق بالمجاهدين، وعندما حقق معهم ووجهت إليهم الأسئلة عن تصرفهم هذا، أجابوا: إنه الإعجاب الشديد بشجاعة هذا الفارس كنا مأخوذين ومبهوتين بشخصية هذا البطل الأسطورة، ولم ندر بأنفسنا إلا ونحن نقف بجانبه^١.

حال الظلام بين الأمير وبين باقي قواته فظن بعضهم أنه قتل بعدما رأوا جواده المقتول والمهماز ملقى على الأرض وشاع الخبر كالصاعقة واهتزت له الروابي والجبال ووصل بسرعة البرق إلى الزمالة التي لم تكن قد ملمت جراحها من حملة الأمس وهلعت النفوس وغشي الأفئدة حزن عميق وفي هذه اللحظات المفجعة برز إلى الساحة من بين الخيام فارس ملثم طفر إلى جواد وأندفع يسابق الريح عبر الشواطئ والخلجان إلى أن التقى المقاتلين العائدين من جحيم المعركة وأناط اللثام عن وجهه وإذ به لالا خديجة شقيقة الأمير وصاحت بأعلى صوتها: "الله أكبر" أيها المجاهدون "الله أكبر" يا جنود الحق الله حي لا يموت، وأخذت تجول بجوادها وهي ممسكة بعنانه تزرع الحماسة والثقة بين المقاتلين، وعادوا جميعاً إلى الزمالة ولكن البشائر قد سبقتهم بنجاة الأمير وخليفته محمد بن علال وبقية الأسرى.

بعد هذه المعركة الدفاعية المشرفة عقد الأمير المجلس الإستشاري في المضرب المخصص للديوان واستعرض مع مستشاريه والقادة والأحداث التي مروا بها، ثم قرروا بالإجماع نقل هذه المدينة والإرتحال بها إلى مناطق الحساسنة في الجهة الغربية من البلاد، لم يكن نقلها بالأمر السهل، ولقد بلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف إنسان يذهب القسم الأكبر منهم للقتال والباقي يعيشون كخلية نحل الكل يعمل بنظام عجيب المرأة مثلاً تخرج صباحاً بعد صلاة الفجر إلى الغدرات تحمل الماء ثم تعود لتقوم بتنظيف الأولاد وإعدادهم وإرسالهم

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

إلى المدارس، ثم تذهب إلى الأسواق لشراء حاجيات عائلتها، تحضر الطعام لأسرتها وتنتظر عودة زوجها إن كان عاملاً أو موظفاً، كانت حياتهم قاسية في الشتاء والصيف ولكن الإيمان بوحدة المصير جعلت سكان هذه المدينة من أكثر الشعب الجزائري سعادة وفي كل مرة كان يعود بها المجاهدون وفي مقدمتهم أمير البلاد رافعين رايات النصر، يخرج السكان رجالاً ونساء يزغردون ويكبرون فتختلط أصواتهم بألحان موسيقى القدوم. وفي كل مرة كان الأمير يقف على الرغم من متاعب القتال والطريق لا يترجل قبل أن يكلم الجماهير التي تلتف حوله يذكرهم بالقيمة العظيمة العيش في هذه الخيام مرة يقول لهم: إن مدينتكم هذه خلفت على الروابي والهضاب حلة من البهاء، فأين وجدت عطرت الفضاء بنسائم الحرية وأين ما حلت تفتحت الأزهار وإن هذه الحماسة التي تستقبلوننا بها تتحول في كل مرة إلى نسائم من الحب والتقوى والشكر لله العليّ القدير والأمل بالانتصار والعيش بكرامة بعد تطهير الوطن من الغزاة وتقويض صروح كبريائه. كان كلام الأمير يستهوي قلوب سكان هذه المدينة ويشعل مشاعرهم الحمية في أعماقهم كان كلامه في كل مرة أناشيد وطنية وإيمانية تدخل القلوب فتؤنسها لأنها تخرج من قلب مؤمن^١.

٧. إعادة بناء المدينة المتقلبة:

أعيد بناء هذه المدينة في جنوب مناطق الحساسنة بسرعة قياسية وعلقت اللافتات على مداخل المضارب، كالعادة ترشد السكان إلى الجارات، وعليها نقش الأسماء والأرقام لئلا يضيع أحد عن خيمته، فكان التنظيم والتقسيمات مذهلة في تكوين هذه المدينة، وأخذ الناس يتهايمسون يقول أحدهم للآخر: لو كنا نعيش في إحدى المدن وحدث مثل هذا الهجوم علينا، ألا نكون الآن نحن وأطفالنا تحت أحجار مساكننا نموت ببطء ولا يدري بنا أحد؟ وقال آخر: زوجتي حامل ولا أدري بأساً من إنجابها فوق الهودج بحال

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٤٩.

اضطربنا للرحيل فور وصول أخبار تحذرننا من الأعداء في المرة الماضية لو رأينا الخديعة التي تعرضنا لها لرحلنا قبل وصول العدو ونجت مدينتنا المدهشة^١.

كان الطلاب من القرى المجاورة يشاهدون وهم يحملون أدوات الدراسة على أكتافهم يسارعون للالتحاق بمعاهد هذه المدينة المتنقلة لأن معاهدها كانت تدرس العلوم بجميع موادها.

واصل الأمير حملاته العسكرية منطلقاً من هذه المدينة، وذات يوم سمع أن القوات الفرنسية أخذت تقصف مدينة أغادير، وهددوا السلطان باحتلال مدنه وعلى أثر ذلك عقدت اتفاقية في مدينة طنجة قبل بها ووقع على محاربة المجاهدين بقيادة الأمير عبد القادر والقضاء على مقاومته لفرنسا واعتقاله وتقديمه للسلطات الفرنسية واعتبار المقاومة تمرداً، بعد توقيع السلطان على هذا الاتفاق أخذ يرسل رسائل إلى زعماء القبائل التي تقف مع المقاومة وتساعد الأمير وتقدم له العون.

٨. الأمير عبد القادر وسلطان المغرب:

كان تأثير رسائل سلطان المغرب ضعيفاً على النفوس في البداية واستمر الأمير عبد القادر في جهاده بمعاونة هذه القبائل إلى جانب إرسال المبعوثين الأكفيا لتوعية زعماء القبائل في الثغور والصحراء، وتولد لدى الأمير شعور بأن السلطان اتخذ قراره بعد تلك المعاهدة وأن المظاهرات والاحتجاجات التي قامت بها القبائل على الحدود جعلته يعيش في قلق وخوف وليس من قنابل بيجو، وإنما من شعبية عبد القادر التي وصلت إلى حد مبايعته أسوة بأشقائهم الجزائريين ولكن الأمير رفض وبشدة وأرسل السلطان رسائل يطمئنه بها أنه ليس له أطماع بعرشه ولا يهدف لأكثر من تطهير الجزائر من الفرنسيين. وبعد نقل الزمالة إلى قرب الحدود المراكشية أشار على الأمير خلفاؤه أي وزراؤه بالقيام بعمل أكثر إقناعاً للسلطان من الرسائل.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

وفي صباح أحد أيام الخريف عقد اجتماعاً لمجلس الشورى في أحد مضارب الديوان وبعد جلوس الجميع تكلم الأمير فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا يجوز لنا القيام بأي عمل إلا بعد ذكر اسمه تعالى والآن سأطلعكم على رسالة السلطان عبد الرحمن إلى أحد زعماء قبائل بني مسناسن وقعت بيد أحد أعواننا سلمها إليّ وهي من ستة رسائل أرسلت إلى القبائل.

إن السلطان يحرض القبائل على التمرد كما ترون ويتدخل في شؤون دولتنا وأكثر من ذلك إنه يطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين الذين عقد معهم صلحاً دائماً يعدّه مشرفاً، ويعتبر عودتنا إلى الحرب بعد صلح تافنا عملاً جنونياً مخالفاً للشرعية الإسلامية. وتابع الأمير كلامه فقال: يبدو أن السلطان كان يريد منا اقتسام الوطن بيننا وبين العدو، أي تقسيم التراب الجزائري لذلك تراجع عن تأييدنا بعد عودتنا إلى الحرب إنه لا يريد إزعاج العدو ولا مقاومته وإنما القبول بوجوده والاعتراف به رسمياً والخضوع لمطالبه ووضع مصالحه في المقام الأول في سياستنا وجيشنا يجب أن تكون مهمته حماية نظام يكفل للفرنسيين مصالحهم. وباختصار يريد السلطان منا أن نكون عملاء لا حكاماً أمراء، فوقف محمد عبد الرحمن رئيس قبيلة الأحلاف بعد انتهاء الأمير من كلامه واقترح إرسال وفد من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة لمقابلة السلطان باسم الأمير ومحاولة إقناعه بنوايا أمير البلاد الطيبة نحوه، وبأن الأمير ليس له مطامع أكثر من تحرير البلاد وتم تشكيل الوفد في تلك الجلسة بعد أن تقدم خليفة الأمير ونائبه البوحميدي الوهاصي، وتقدم أيضاً محمد بن عبد الرحمن الخليفة الآخر للأمير، وسار الوفد في اليوم الثاني من شهر أيلول عام ١٨٤٧م وأخذت القافلة تبتعد رويداً رويداً والأمير ينظر إليها يا له من حدث مروع ولكن لا بد منه إنه أخرسهم في الكنانة، ومضت القافلة تحت ظلال الشفق الممتد فوق الغابات حتى كثبان الصحراء والتفت الفارس يلقي آخر نظرة على الزمالة

مودعاً وتوارت القافلة وراء أشجار الصنوبر والبلوط تحف بها قلوب المجاهدين وأيديهم
مرفوعة بالدعاء إلى الله ترحو لهم التوفيق.
وقف الأمير عبد القادر وسط ذلك الجمع وارتجل هذه الأبيات فقال وهو في طريق
عودته إلى داخل المضارب:

قلدت يوم البين جيد موّدعي
درراً نظمت عقودها من أدمعي
وحدا بهم حادي المطايا فلم أجد
قلبي ولا جلدي ولا صبري معي
ودّعته ثم انثيت بحسرة
تركت معالم معهدي كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل
رجعت عداك المبعضون كمرجعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم

طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي^١
وصل الوفد إلى فاس فاستقبل السلطان المجاهد البطل البوحميدي بكأس من السم أفقدته
الحياة واستشهد هذا الفارس وهو يقوم بمهمة جليلة، وفي حصن تازة استشهد أيضاً
باليوم نفسه خليفة الأمير على المدينة محمود بن عيسى البركاني.

وصلت هذه المصائب للأمير عبد القادر فاستقبلها استقبال المؤمن بالقضاء والقدر،
وكانت خيبته في سلطان المغرب كبيرة لقد رضخ لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام
يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج
عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٣.

وقد استشاط الشعب المغربي غضباً وأراد مبايعة الأمير عبد القادر ولكنه رفض ذلك فقد كان الشعب المغربي يكن للأمير تعاطفاً معه ويعتبره بطلاً للجهاد كان لذلك الاتفاق أثر سيء على الشعب الجزائري والمغربي وكانت تلك المعاهدة بين سلطان المغرب وفرنسا بإشراف إنجليزي^١.

أ. معركة ايزلي "وعواقبها":

كانت معركة ايزلي الشهيرة التي سميت كذلك لأنها وقعت على ضفاف وادي ايزلي بالقرب من وجدة حيث كان ابن السلطان معسكراً هناك فقط بغية حماية حدوده وليس الهجوم. تعد هذه المعركة الحاسمة حسب بيجو من ضمن أحداث الحرب الأكثر إثارة للدهشة وقد ظهرت عنها العديد من التأويلات بحيث لم يصبح أماننا إلا الافتراضات أولاً وقبل كل شيء فإنه من المستحيل أن يتم سحق الجيش المغربي الذي كان الفرنسيون يقدرونه ٣٠٠٠٠ رجل في بضع ساعات إلا إذا قبلنا بأن المهمة التي أسندت إلى المغاربة في حالة هجوم فرنسي هو الاكتفاء بطلقات بارود شرفية خاصة، وأن الاتفاق الذي عقب السلم الذي أراضى السلطان قد توصل إليه بدعم وضمن من إنجلترا.

أما الافتراض الثاني فهو أن عدد القوات المغربية قد بولغ فيه وحسب أحد المؤرخين "المللمين بالموضوع"، فإنه كان أقل حتى من جيش بيجو وكانت ستسحقه "القوة العددية" لجيش بيجو ألا أن هذا الافتراض لا يفسر كيف يمكن لمعركة أن تنتهي في مثل ذلك الوقت القصير حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار عدم كفاءة الأمير المغربي أمام خبرة الجنرال، فهذا الأخير كان قد أعلن من قبل أنه يملك جيشاً بينما "لا يملك محمد إلا حشداً من الغوغاء وأنه سيخترقه اختراق السكين للزبدة". والحقيقة أن الأمير الذي كان يراقب المعركة بصحبة ١٥٠٠ فارس على بعد بضعة أميال منها لم يكن يستطيع . حتى وإن رغب . أن يتدخل أمام كارثة لم تكن سريعة فقط، بل حاسمة كذلك، ولو أنه لاحظ روحاً

^١ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٣.

قتالية من جانب جيش سلطان المغرب ومعركة حقيقية قد اندلعت لكان وزن بثقل عبقريته وبسالة رجاله الكفة ولتقبلهم اخوانهم المغاربة بالفرح والسرور، الشيء المؤكد الوحيد هو أن هذه المعركة مهما كانت طبيعتها كانت حاسمة بالنسبة لبيجو فقد كان يقول لجنوده: أن مستقبل الجزائر يتوقف على هذه المعركة فإذا خسرتها سوف نضطر للعودة من حيث أتينا. وقد كان يقول الحق لأن الاتفاق الذي كان السلطان قد قبله سيصبح غير ذي موضوع وهذا لن يكون إلا في صالح الأمير وكانت إنجلترا ستعدل موقفها دون أن تمنع السلطان من مساعدة الأمير مع الاحتفاظ بعرشه وكانت ربما ستقنع حكومة باريس بضرورة الخروج من مأزقها في الجزائر، لقد كان للانتصار صدى كبير في باريس وتحصل بيجو إثره على لقب "دوق" كما سمي أول شارع كبير في الجزائر باسم هذه المعركة^١.

ب . استمرار الحرب:

على الرغم من عناده ووسائله البربرية فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، كان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد بضربات موجّهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد إشعال نار الحرب التي لم يكن يريد لها وإنما فرضت عليه فرضاً.

وفي الأيام الأخيرة كان من عادة بيجو أن يدلي لمحيطة ببيانات صاخبة حول نهاية عبد القادر فإنه في أوائل ١٨٤٤م عندما كان الأمير لاجئاً في المغرب لإعادة تنظيم قواته قام بيجو باقتراح حقيقي على الأمير بواسطة "ليون روش" رجل المخابرات الفرنسية وكان الاقتراح: بأنه نظراً لأن الحرب قد انتهت بالنسبة للأمير فإن بيجو سيسمح له ويساعده

^١ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٤.

هو وحاشيته على الذهاب للعيش بمكة، وقد كان رد الأمير: إن ساعة جهاد الكفار يساوي أكثر من سبعين سنة في العيش بمكة^١.

إن وضعيته "الخارج عن القانون" التي جاءت بها معاهدة طنجة لم تكن بطبيعة الحال قابلة للمعارضة ولذلك فإنه انطلاقاً من التراب المغربي حيث كان مقره كان يفكر في القرون التي سيرجع فيها إلى الجزائر وأيضاً في الحالة اليائسة التي كان عليها هو ودائرته، وقد تمكن بن سالم بعد الكارثة التي ألحقها به بيجو في ١٧ ماي ١٨٤٤م وما تبعها من تدمير لخمسين قرية قبائلية في أسفل منطقة سباعو من الاتصال بالأمير بعد التعبير عن القلق الذي تولد عن غيابه، طلب ابن سالم من الأمير أن يظهر من جديد ليعث الأمل في نفوس المسلمين الذين انتابهم اليأس.

ومن المؤكد أن هذا الحدث قد أثبت للأمير بأن النهاية لم تكن بعد وأن الوضعية وإن كانت خطيرة فإنها ليس ميؤوساً منها وأن وجوده مع رعاياه حتى أولئك الذين كانوا تحت نيران الاستعمار كان ضرورياً وسيمكنه من مواصلة الجهاد^٢.

ومن الرسائل التي جاءت من أحمد بن سالم للأمير مكتوب فيها: لقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف وأشاعوا أن والدكم تصدر المكاتيب والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني أن الفرنسيين عازمون على الزحف إلى بلادنا وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي فأنا أسألكم بالله تعالى أن تردوا إلي الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة. فأجابه الأمير بخطه: إني اطلعت على مكتوبكم مخبراً بأن خبر موتي قد امتد إلى الشرق، فاعلم أن الموت لا مفر منه ولا محيد عنه إذ هو من قضاء الله الذي لا يرد والاقتدار ما أوصل به مهاجمة أعداء ديننا، فكن في راحة ساكن البال صبوراً، ومتى استقر الأمر لنا هنا

^١ المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

نتوجه إلى نواحيكم^١. وبعد نقل الأمير الزمالة إلى المغرب الأقصى قرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر، وعمل ييجو على التصدي له وقال لهيئة أركانه: إن قلوب المغاربة تعلقت بعبد القادر بسبب اتباعه للشريعة الإسلامية بحيث صارت القوافل تسير في المناطق التي يتواجد بها بأمان عكس المناطق الأخرى، إنه يمثل خطراً على فرنسا وهو في المغرب الأقصى أيضاً. وأرسل إلى حكومته يخبرها بخاطر الأمير بالمغرب ويطلب منها التدخل لدى السلطان لوضع حد لوجوده هناك^٢.

وأمر بوجو الجنرال لاموريسيير والجنرال بيدو بالتوجه إلى الحدود المغربية، فنزلا في مقام السيدة مغنية شمال تلمسان وقاما بهدم مقام الولية مغنية التي يجلبها السكان، على إثر استفزاز الفرنسيين للحدود المغربية وسخط الشعب المغربي. من ذلك خشي السلطان ثورة الرعية عليه فبعث إلى عماله بوجدة ابن الكناوي طالباً منه الاتصال بالفرنسيين والطلب منهم الكف عن الاستفزاز.

فاستهزأ الضباط الفرنسيون برسوله، فزحف الكناوي على رأس جيش على الفرنسيين الذين دخلوا التراب المغربي وانهمز الجيش المغربي وهي أول معركة بين المغاربة والفرنسيين^٣. وبعدها كانت معركة إيزلي التي انهمز فيها الجيش المغربي وهددت بريطانيا فرنسا بالحرب ودخل الطرفان في مفاوضات طلب فيها الفرنسيون من السلطان: اعتبار الأمير عبد القادر بالمغرب خارجاً عن القانون ومنع المواطنين المغاربة من التعامل معه، ودفع غرامة ١٢ مليون فرنك فرنسي وأبرمت اتفاقية طنجة في ١٠/٩/١٨٤٤م ومعاهدة لالة مغنية بين المغرب وفرنسا يوم ١٨/٣/١٨٤٥م وانتشر السخط بين الشعب المغربي على السلطان الذي انهمز جيشه في أول معركة مع الفرنسيين خلال ساعات وقبل الشروط المجحفة التي فرضها عليه الفرنسيون وارتفعت أصوات الكثير من القبائل تطالب بالثورة

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٤١.

^٣ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤١.

على السلطان، وإعطاء الطاعة للأمير عبد القادر الذي كاتبه بعض رؤسائها فرفض مسعاهم طالباً منهم الوفاء للسلطان راح الأمير يرسل الوحدات تغير على القوات الفرنسية بالجزائر وعلى القبائل المتعاملة معها ووصلت هذه إلى سيدي بلعباس وتيارات وتاكدامت فذعر بوجو وجنرلاته لهذا واتصلوا بالسلطان فهددوه ، أرسل هذا إلى الأمير يطلب منه مغادرة المغرب ولما وصل رسول السلطان أدرك أن الأمير لا يمثل خطراً على السلطان بل إنه يحث القبائل المغربية على ولائها للسلطان، وأن هدفه الجهاد داخل الجزائر^١.

ج. مساندة أبطال المغرب للأمير عبد القادر:

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشي من أولاد سيدي الطيب بنواحي وزان، دخل الجزائر حوالي سنة ١٨٣٥م وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين في مناطق وهران الجنوبية ثم انتقل إلى زواوة يحث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقاً كثيراً، وبما أنه كان مستقلاً في حركته عن الأمير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولاً أنه يمكنهم الاعتماد عليه في إضعاف سلطة الأمير، ثم عادوا يرهبون منه، بعد أن نالهم سنتين كبدهم فيها خسائر فادحة وتوج عمله بالانضمام إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه إلى أن اضطر الأمير سنة ١٨٤٥م إلى الالتجاء لمراكش فعاد أبو معزى إلى الجزائر واستمر في قتاله، ولما عاد الأمير في نفس السنة انضم إليه مرة أخرى أبو معزى والتفت من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين في معركة سيدي إبراهيم بغرب جامع الغزوات الأمر الذي اضطر من أجله "بيجو" لطلب جيش قوامه عشرة آلاف جندي قسمها إلى ثمانية عشر جحفاً طارد بها الأمير وخلفاءه فوقف أبو معزى وقفة عظيمة واستمر في القتال حتى تغلبت عليه هذه الجحافل، واضطر للاستسلام فاعتقل في حصن "هام" بشمال فرنسا في نفس

^١ المصدر نفسه.

الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلاً فيها قبل توليه الحكم وبعد ما وقع عليه العفو عنه انتقل لتركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشاً.

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في القوقاز في أسر الروم، ثم توفي في مدينة باطوم، وقد ادعى من بعده ستة أفراد جزائريين أنهم هم أبو معزى وقد جرح هذا الأخير في إحدى المعارك وأسر، ثم أحيل إلى المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيباً وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الآتي:

. سأله الرئيس: من أنت؟ قال: أنا بو معزى.

. لماذا قتلت فرنسا؟

. لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.

. ألم تر أن العرب انضموا إلينا؟

. هؤلاء العرب قسمان: الأكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم والأقلية سفلة خونة لا يبحثون إلا عن رضا الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر.

. ماذا تنتظر منا؟

. لا يهمني ما أنتظره منكم.

. وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل؟

. أعود للجهاد في سبيل الله.

. وإذا قتلناك؟

. سأقدم لله ناطقاً بالشهادتين.

. وإذا سجنناك؟

. سأقضي أوقاتي عابداً طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم.

. لماذا تكرهنا؟

. لأنكم ظلام طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك^١.

٩ . الأمير عبد القادر ينطلق من المغرب وينجد خليفته ابن سالم في زاوّة:

ثم انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولامورييسير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها أو تعود له طوعاً اقتناعاً منها بأنه عاد من غيبته قوياً، ولم يزل ينتقل إلى أن وصل إلى زاوّة ودخل جبال جرجرة والتقى بخليفته السيد أحمد بن سالم وعلم بتعقب العدو له فقطع أربع رحلات في رحلة واحدة، فسمي بأبي ليلة لأنه لا ينام في مكان أكثر من ليلة. غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بالطاعة للفرنسيين وما إن حل ببلاد القبائل حتى اجتمعت له قبائل زاوّة فاختر منهم ٥٠٠٠ فارس وغزا بهم متيجة من الشرق وراح يدمر مزارع الكولون ويحرق منشآتهم وهرب من نجا من الموت لائذاً بأسوار الجزائر، قام بكل ذلك بوجو يبحث عنه في عمالة وهران، ثم تحرك عائداً نحو الغرب حتى نواحي المدينة ناشراً بين الناس أنه عاد للجهاد بقوة، ثم عاد لجرجرة ومنها توجه إلى الشمال ونزل بأرض فليسة قرب دلس، وراح يشن الغارات المتتابعة على سهل متيجة وقد مضى عليه أكثر من سنة بعيداً عن زوجته وأهله، فأنشد شعراً قال فيه:

بنيّ لئن دعاك الشوق يوماً

وحنّت للّقا منا القلوب

ورمت بأن تنال منيّ ووصلا

يصح بعِده القلب الكئيب

فإني منك أولى باشتياق

وناري في الفؤاد لها لهيب

^١ الحركات الإستقلالية في المغرب العربي علال الفاسي، ص: ٥ ، ٦.

وإن أخفي اشتياقي في فؤادي
فإن الشوق يكتمه الأريب^١
وفي تلك الأيام العصبية قال قصيدة أخرى ذكر فيها أهل الجهاد:
لنا في كل مكربة مجال
ومن فوق السّمك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول
وحُضنا أبحراً ولها زجال
لنا الفخر العميم بكل عصر
ومصر هل بهذا ما يقال؟
ورثنا سُودداً للعرب يبقى
وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش
ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكر
بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر
رجال للرجال هم الرجال
لهم هم سمت فوق الثريا
حماة الذين دأبهم النضال
سلوا عنا فرنسا تخبركم
ويُصدق إن حكّت منها المقال

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٥.

فكم لي فيهم من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزال^١

وهكذا تمكن الأمير في سنة من قطع مئات الكيلومترات والاتصال بعشرات القبائل والدخول لبلاد زواوة وإعادة خليفته البطل ابن سالم إلى وضعه بعد أن ارتفعت معنويات القبائل، وجن جنون بوجو فهو يطلبه بالغرب فيظهر بالشرق مهاجماً متيحة بجيش قال فيه المؤرخ البريطاني شرشل: عجب الفرنسيون من شجاعة عبد القادر وسرعة اختفائه، فكأنه يطير في الهواء فشهد له في محافل باريس الجنرال يوسف بأنه أشجع ما عرفت الأمم من الرجال وبأن غرابة اختفائه السريع تحير العقول^٢.

ويقول النقيب كليز: إن الحملة التي قام بها هذا الأمير أثارت إعجاب كل العسكريين الذين ينحنون بالرغم عنهم أمام هذه العبقرية، إنه العدو اللامرئي والذي يوجد في نفس الوقت في كل مكان، فهو يخترق الصحارى ويتسلل عبر منحدرات جبل عمور، ويدخل سهول المغرب بعد أن يوجه قبائل الغرب نحو الحدود، ثم يظهر فجأة بالشرق بعد أن يقوم بالانتقام من القبائل المتعاونة معنا وبحركة ذاتية يمر بفرسانه الألف والخمسمائة بين طوايرنا فيقطع عشرين رحلة في ليلة واحدة كيف يمكنك أن تواجه هذه الحركة العجيبة بقيادة طواير عاجزة ومنهكة في المطاردة، ووحدات متعبة وبمعنويات متدنية بسبب نتائج سلبية؟! إننا نعتمد على الوقت أكثر من اعتمادنا على عبقرية الذين يقودوننا^٣.

توجه الأمير غرباً محاذياً للصحراء والعدو يطارده والقبائل تتجنبه خوفاً من بطش وانتقام الفرنسيين وإفقارهم لها، وعندما نزل على أولاد السيد ابن الشيخ البكري في بلدتهم بالبيض تلقوه بالتكريم والاحترام وقال له كبيرهم: إنا نسألك بالله تعالى ألا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودياننا بإقامتك عندنا في بلادنا فإن الفرنسيين لا يخفى

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٦.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٥٤٦.

^٣ المصدر نفسه، ص: ٥٤٧.

عنادهم وظلمهم، ولولا أنهم أشد الخلق عنواً وظلماً واعتداءً ما تسلطوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا، وأين بلادهم؟ فهم في بر ونحن في بر آخر، ومع ذلك فهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنا. فلما سمع الأمير عبد القادر قول هذا الشيخ رق لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً إلى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني زناسن^١

١٠. موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك:

علم الأمير عبد القادر لدى وصوله بقتل الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في موقعتي الغزوات وعين تموشنت وكان عددهم ١٧٧، فأسف لذلك ووبخ خليفته الذي نفذ القتل في غيابه ودون مشورته وكان الأمير مشهوداً له بالمعاملة الطيبة للأسرى وفق أحكام الدين الإسلامي وأمر بإطلاق عشرة ضباط فرنسيين أسرى وأرسل معهم رسالة إلى ملك فرنسا قال فيها: لقد شاع في غياي أن الفرنسيين عازمون على تحرير أسراهم بالقوة من أيدي العرب، ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على إنقاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه، فكان هذا من سوء سلوك نوابكم سبباً لما وقع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم لنا، والآن وقد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلي دي كوفري وهم يعلمون بما أجريناه. ثم سلمهم في أكتوبر سنة ١٨٤٦م^٢، بدون أي مقابل مادي أو مالي، إن الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا أسرى عند الأمير عبد القادر قد شهدوا وكتبوا عن فترة أسرههم واحتوت على حقائق تاريخية دلت على حسن المعاملة ورفيها المستمدة من الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

كان في إحدى الأيام من الأسرى نساء، فأمرت والدة الأمير بأن تكون إقامتهن في خيم بجانب خيمتها وأن يحرسهن رجال من ذوي الشهامة والعفة وأمرت بالاعتناء بهن، وحتى لم تنساهن من قهوة الصباح^١.

١١. سلطان المغرب يشن الحرب على الأمير عبد القادر:

لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني يزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم وقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب الحرة واستخدمت فرنسا كل قواها من القصف واستخدام الجيوش لمنع المغاربة من دعم الأمير عبد القادر والتحالف مع فرنسا ضد الأمير وبدأت المشاكل بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل للأمير يأمره بمغادرة التراب المغربي ويذكر له: أنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين، إما أن تسلم نفسك إلينا، وإما أن تخرج من الحدود، فإن أبيت أن تجري أحدهما طوعاً فنحن نجريه كرهاً.. ثم أوعز إلى القبائل القريبة من الدائرة بالتضييق على قواته وأطرق الأمير ملياً مفكراً وكتب إلى السلطان ما ملخصه: أما بعد فإني كاتبكم أولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعيدها على من تبغني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحد، فلم يأتي جوابي على ذلك ومع ذلك فأنا صابر ومتحمل كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر، طمعاً في رجوعكم عن البغي والطغيان إلى العدل والإحسان، مع قدرتي عليهم في كل آن، فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم، ألزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي ولذا بادرت بإخباركم والسلام.

وكتب الأمير إلى علماء مصر يستفتيهم في الخلاف بينه وبين السلطان وأرسل لهم رسالة طويلة جاء فيها: .. ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس له علي ولاية ولا أنا من رعيته،

^١ الأمير حياته وفكره، ص: ١٥٨.

ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من يجد صبراً، وأسقط من المجاهدين ركناً، ثم أخذ يسعى في قبضتي فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيين، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، فأبوا جزاهم الله خيراً. فأجاب العلامة الحجة الشيخ محمد عlish مفتي المالكية بالديار المصرية جاء فيها: نعم يحرم على السلطان المذكور أصلح الله أحواله، جميع ذلك الذي ذكرتم، حرمة معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه ذرة من الإيمان وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الأمور مع مثلكم، فإننا لله وإننا إليه راجعون، خصوصاً وأنتم جسر بينه وبين عدوه^١.

وأشتد الخلاف بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة قائده الأحمر، وكان الأمير مخيماً بين أرض توزين ومطالسة من قبائل الريف، فاستعد للدفاع عن نفسه، ولما اقترب الأحمر وخيم على بعد مرحلة أرسل الأمير له رسالة قال له فيها: إنني لا أريد إلا المسالمة وإقامة المهاجرين تحت أنظار السلطان، ولا أتمنى الصدام معكم وأنا أحذرك من قتال المسلمين للمهاجرين. وعندما علم الأمير بأن الأحمر توجه لحربه قاد فرسانه الأشداء واعترضه في تافرسيت فاستولى بسهولة على معسكره، وثار بعض الجنود المغاربة سخطاً على حرب المهاجرين فقتلوا قائدهم الأحمر، ثم توجهوا بحريمه وأولاده إلى الأمير، فأرسلهم بحرس إلى السلطان في فاس، وسخط الشعب المغربي على سلطانه لشنه الحرب على مسلمين مجاهدين أرضاء لنصارى معتدين^٢، وجهز السلطان عبد الرحمن جيشاً من خمسين ألف جندي وأسند قيادته لابنه وولي عهده محمد وابنه الثاني أحمد فسار لمحاربة الأمير ونزل الجيش السلطاني على ثلاث مراحل من الدائرة في مكان اسمه سلوان، وقرر الأمير يوم ١٠ / ١٢ / ١٨٤٧م بدء الهجوم وأشار على مساعديه أن يستعملوا حيلة يباغتون بها عدوهم وينشرون في صفوفه الذعر قبل المعركة. فأمر بإحضار

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

^٢ المصدر السابق.

جملين وشد على كل منهما حزميتين من الحلفاء بعد أن طلاهما بالقطران والقار والزفت وأمر بأن يكون إيقاد النار في الحزمتين مقترباً بالهجوم على العدو. وفي ليلة الرابع عشر من الشهر المذكور سار الأمير بجيشه نحو سلوان ولما قرب منه رتب جيشه للهجوم دون أن يشعر الخصم وأمر بتقدم الجملين أمام الجيش ثم أضربت النار في الحزمتين فنفر الجمالان وهاجما خيام الجيش السلطاني وحمل جنود الأمير حملة رجل واحد وصحا جنود الجيش السلطاني على مشاعل تنتشر راکضة بين خيامهم فانتشر الفزع بينهم، وعندها انطلق رصاص جيش الأمير فهرب الأعداء تاركين خيامهم وأسلحتهم وتقدم المهاجمون حتى وصلوا إلى سرادق ابني السلطان فوجدوا حراسه قد أحاطوا بهم وراحوا يدافعون عن الأميرين، واستمرت المعركة طوال اليوم وتمكن فيها الأمير من هزم خصمه الظالم^١.

كان سلطان المغرب قد قرر التعاون مع فرنسا وبذل الجهد معها للقضاء على الأمير عبد القادر وراسل زعماء القبائل التي كانت مع الأمير ومن هذه الرسائل التي أرسلها إلى زعيم قبيلة أنكاد وقعت في يد الأمير جاء فيها: بلغنا أن الأمير عبد القادر ما زال مستمراً في إثارة الفتن وجلب الشر للمسلمين ونقض الصلح، الصلح الشرعي الذي عقده مع الفرنسيين وما يقوم به الآن هو عمل غير شرعي، ولا يقبله الدين، ومن يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال وحاد عن شرع الله وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الوالي عبد الرحمن وختمها بتوقيعه^٢.

استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر واستفادت من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر وفي نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة التهيب والترغيب يحرق المزارع وحقول القمح والشعير ويحمل معه الهدايا إلى جانب

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٢.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٦٧.

الأسلحة المدمرة وتعرض المارشال بيجو لهزائم متلاحقة وبسبب ذلك أعفي من منصبه وعين بدلاً منه ابن الملك الدوق دومال حاكماً عاماً حيث وصل الجزائر يوم ٤ / ٥ / ١٨٤٧م وثبت الجنرال لاموريسيير على وهران وعين الجنرال بيدو حاكماً على قسنطينة والجنرال كفينياك حاكماً على الجزائر^١.

وبدا واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشدّ ضراوة وقوة بعد أن تمّ له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل له، ودُمّرت الزمالة ولم يبق من أقسامها سوى الدائرة وأُحرقت المحاصيل الزراعية لتجويد المجاهدين^٢.

سابعاً: الحصار الشديد واتفاقية مشروطة

اشتدّ العداء بين الأمير وسلطان المغرب، وبالفعل السلطان في تضيق الخناق على الأمير، فسار مع من بقي معه من المجاهدين متجهاً نحو الصحراء وأمر بنقل الدائرة إلى مناطق عجروود، وتقدم بجنوده بمحاذاة النهر، ووضع الكمائن للعدو بين الأحرار، وخطط لها قواعد تعود إليها بعد انتهاء مهماتها، وسار غازياً إلى الجهات الشرقية، غير عابئ بيجو ولا موريسيير^٣.

كان السلطان عبد الرحمن مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتّهامه بأنه زائغ عن الهدى: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الولي عبد الرحمن بن المولى هشام.

وهذه الرسائل وغيرها فعلت فعلها في نفوس هؤلاء الزعماء، ومن المعروف في ذلك الزمان والمؤكد أن قائد القبيلة أو زعيمها، إذا اقتنع بأمر ما سار على هديه جميع أفرادها من

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٣٥.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١٣٧.

دون مناقشة وعلى القارئ أن يتخيل ما حدث سنة ١٨٤٧م، ١٨٤٨م وبات الأمير عبد القادر يقاتل على عدة جبهات وليس هذا فقط، بل كان يرى بأم عينيه فرسانه الأبطال يتساقطون برصاص إخوانهم العرب المسلمين وشاهد أشهر قائد لديه الشهير محمد بن يحيى يسقط صريعاً في إحدى تلك المعارك المؤسفة:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند^١

١. القرار الخطير:

بالغ السلطان عبد الرحمن في عداوته للأمير إلى الحد الذي جعله يحرّض عليه زعيم الأحلاف في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سنان وأنكاد ولم يكتف بذلك بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وأمره بالاستيلاء على مقر الأمير. كما مرّ معنا. وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين، بل شُيّد بينه وبينهم سدٌّ من صدور المسلمين شيده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مرّاً مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الإخوة فرضت على الأمير معارك مؤسفة شغلته ومنعته عن الاستمرار في مقاومة المستعمرين هذا الهدف العظيم الذي حمل الأمير والمجاهدون معه السلاح من أجله سنة بعد سنة ثمانية عشر عاماً، كان فراش الأمير خلالها ظهر جواده وفي أواخر هذه السنة لم يرى الأمير أمامه جنود المستعمرين، بل رجالاً وجنوداً مسلمين يحاصرونه من كل جانب ويتأهبون للانقضاض عليه وعلى من تبقى معه من المجاهدين المؤمنين بعدالة قضيتهم وبالله والوطن وبسيرة أميرهم الصحيحة والشرعية^٢.

وفي ليلة ماطرة شديدة الظلام نظر هؤلاء المجاهدون إلى وجه الأمير، وتحدث معهم فقال لهم: إن المعلومات التي لدي بأن الطريق الوحيد للوصول إلى الصحراء هو مضيق غربوس. قال الأمير: بإمكاننا فتح هذا المضيق ولكن بعد اشتباك أخطر من الذي جرى قبله، لأن

^١ الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٤٢.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٤٦.

البدء بالهجوم والقيام بالقتال "قتال الإخوة" وإسالة دماء من يقولون: ربنا الله، وسيدافعون عن أنفسهم حتى الموت، هذا أولاً، وثانياً علينا التحرك فوراً وحمل جرحانا كي لا يقعوا بيد من لا يرحم، لذلك لا أرى إلا التسليم بقضاء الله والرضا به، لقد اجتهدت نفسي عن الذب عن الدين والبلاد وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر والباد، وذلك من حين اهتز شبابي وافتر عني شبة الهندي نابي، وأقمت على ذلك ما ينوف على ثماني عشرة سنة، أقتحم المهالك وأملاً بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك واستحقر العدو على كثرته واستهل استقصاءه وأتوغل . غير خائف . أوديته وشعابه وأرتب له في طريقه الرصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد، تارة أنقض عليه انقضاض الجراح وأخرى أنصب له فيها انصباب الطير إلى المسارح وكثيراً ما كنت أبيتته فأفنيه وأصبحه فأبرد غليلي منه وأشفيه ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية وأثمر عن أقوى ساعد وبنان وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارق من أموالى والتالد ودبت إلى من بني ديني الأفاعي واشتملت عليّ منهم المساعي، والآن بلغ السيل الزبى والحزام الطيبين فسبحان من لا يكيد كائد، ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد. ثم طرح الأمير فكرة وقف الحرب لأنه المطلوب من الأعداء شخصياً كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة، لأنها بيد الشعب وليس بيده ولن تقف إلا بزوال الاحتلال والشعب الذي سيصحو يوماً عاجلاً أو آجلاً، ويكتشف أكاذيب المحتلين وغدرهم والذين استسلموا للأعداء وحاربوه بسلاح المحتلين سيدركون يوماً أي مصير قادهم إليه تحالفهم مع الأعداء ولمصلحة من كان تحالفهم.

أدرك الأمير ما كان يدور في خلد هؤلاء الأبطال من رجاله فقال مرتجلاً بعض الأبيات لتخفيف جمود تلك اللحظات:

إن يسلب القوم العدا

ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلوعه

لم تسلم القلب الضلوع

أجلي تأخر لم يكن

بهواه ذلي والخضوع

ما سرت قط إلى قتال

وكان من أمني بالرجوع

شيم الألى أنا منهم

والأصل تتبعه الفروع^١

ثم قال: نحن لا نخشى الموت، فالشهادة في سبيل الله جلّ ما نبغيه ونسعى إليه، واستشهد بقول الله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرزقُونَ" (آل عمران، آية: ١٦٩). ثم استشهد بجملة لمفتي المالكية العلامة الحجة محمد علوية في الديار المصرية: ما من ميت يتمنى العودة إلى حياة الدنيا إلا الشهيد لما يجده عند ربه من الخيرات مما لا يخطر على بال بشر: ثم استأنف: الشهادة في سبيل الله هي مطلبنا. ولكن إذا استطعنا الخروج مما نحن فيه الآن، والوصول إلى التخوم المجاورة ووادي عجرود حيث ترابط الجيوش الفرنسية ومهاجمتها، ثم الانسحاب نحو مقرنا في الدائرة لكان خيراً عظيماً لنا ونصراً مؤزراً: وأجابه أحد المجاهدون: لكن كيف لنا الخروج وقوات السلطان تجوب الطرق، وتحاصر المسالك والمنعطفات بحثاً عنا، والعيون هنا من حولنا تراقب حركاتنا وسكناتنا، وقد بتنا وكأننا في معتقل كبير للأعداء؟

لم تدم هذه الأحاديث بينهم أكثر من دقائق وقف الطيب المختار وسأل الأمير: ماذا بعد وقف الحرب؟ أجاب الأمير: الهجرة من البلاد، لأنني شخصياً مستحيل علي العيش ولو للحظة واحدة تحت راية ليست راية بلادي الإسلامية، وليست راية دولتي. فوافق الجميع

^١ الأمير عبد القادر حياته وعصره، ص: ١٧٥.

على قرار وقف الحرب ١، حقناً للدماء الغالية التي سُرَّهَق من الطرفين المراكشي والجزائري بغير طائل.

٢. طرق باب الاستئمان الزمني لأجل الهجرة:

كانت الطريقة من الخروج من هذا المكان وتحقيق مقصد الهجرة عن طريق الاستئمان الزمني وهو طلب الأمان واعطاء الفرصة للخروج من أجل الهجرة في سبيل الله تعالى، فعندما تساءل الحاضرون في مجلس الأمير عبد القادر كيف الخروج إلى الهجرة والخروج من هذا المكان الذي نحاصر فيه، أجاب ابن علال وكان من الفقهاء: سنطرق باب الاستئمان الزمني. قال الأمير: نعم أيها الأخوة سنطرق هذا الباب، وهو باب معروف في الجهاد بالإسلام، والهجرة في ظروفنا هذه أعتقد أنها أصبحت حق علينا وإن لم نطرق بابها نكون آثمين بحق أنفسنا، قال تعالى: "وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَةً كَثِيرًا وَسَعَةً" (النساء، آية : ١٠٠).

. وقال تعالى: "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

وذكر أقوالاً كان قد كتبها لبعض خلفائه جواباً لاستفساراتهم حول الهجرة، وقد جاء في القرآن ذكر الهجرة مراراً واذم تاركها، والله جعل لها شروطاً، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة، ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها». أما باب الهجرة من مكة إلى المدينة فقد انقطعت بالفتح أي بفتح مكة ثم تابع الأمير كلامه فقال: سأرسل رسالة شفعية إلى الجنرال لاموريسيير ممثل الدولة التي تحتل بلادنا ليخبرها باسمي بأنني أريد طريقاً آمناً يقصد ترك البلاد والسفر إلى الإسكندرية أو عكا، فإن وافق فالخيرة فيما اختاره الله، وإن رفض نكون أمام الله لم نأل جهداً ونتحرك بما عندنا من قوة لفتح مضيق غربوس والاتجاه نحو الصحراء في حال

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٦.

انتصارنا، ولاشك أنها ستكون مغامرة ولكن لا خيار لنا، لأننا حيث ما توجهنا سوف نجد سداً من صدور إخوة لنا في الدين جندهم الأعداء ليتخذوا منهم حاجزاً ودروعاً لهم ١.

لم يطرق الأمير عبد القادر أبواب السلطان عبد الرحمن في أي تسوية معه للأسباب التالية:

. لأن السلطان مرتبط باتفاقية مع فرنسا بشأن الأمير ومقاومته.

. لأن قوات السلطان تحاربه لموجب الاتفاقية وهي إتفاقية طنجة عام ١٨٤٤م التي نصت على موافقة السلطان على مقاومة الأمير والقضاء على دولته والقبض عليه وتسليمه إلى القوات الفرنسية.

. السلطان عبد الرحمن لا يمكنه عقد أي اجتماع مع الأمير إن كان استمناً وطلباً للهجرة أو وقف الحرب مثلاً إلا بعد الرجوع إلى السلطات الفرنسية، لأنه كان مكبلاً بتلك الاتفاقية ٢.

٣ . الرحيل:

سار مبعوث الأمير عبد القادر يحمل الرسالة الشفهية فصادف عدداً من الكمائن في طريقه أشهروا السلاح في وجهه وأرغموه على الترحل ومن هذه الكمائن قوة من المسلحين بقيادة بن خيوة من قبيلة الدوائر وبعد أن علم بمهمة المبعوث أرسل معه عدداً من جنوده رافقوه حتى معسكر لاموريسيير، فبلغ المبعوث الرسالة الشفهية إلى الجنرال الذي كان جالساً في خيمته وأمامه على الأرض عدد من الخرائط، فانتصب واقفاً وضرب كفاً بكف سروراً، وعلت وجهة علامات الفرح، فأخذ على الفور ورقة بيضاء من الطاولة ووضع عليها ختمه ووقعها بإمضائه ثم سلمها إلى الفارس قائلاً: فليضع الأمير

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

طلباته ونحن على استعداد لتبليتها، ثم أعطاه سيفه هدية للأمير دليلاً على قبولهم وقف الحرب، ثم أرسل كتاباً إلى الدوق دومال ولي العهد، ورسالة إلى الملك يقول له فيها إني في هذه اللحظات ممتط جوادي للذهاب للاجتماع بالأمير عبد القادر، ولا يوجد عندي لحظة من الوقت لأبعث لجلالتكم نسخة من هذا الكتاب الشفهي الذي وصلني منه أو نسخة من جوابي عليه ولكنني أستطيع القول: إني اتفقت مع الأمير على حسب طلبه أن يذهب هو وعائلته إلى الإسكندرية أو بلاد الشام وإني قبلت بجميع طلباته ووقعت عليها وأنا ملزم بتنفيذها حرفياً أرجو أن توافقوا جلالتم على ذلك. وقبل أن يصل الكتاب الرسمي من الملك ركب الدوق دومال ولي العهد بارجة إلى مرفأ جامع الغزوات، فأرسل إلى الجنرال يخبره بموافقته على طلبات الأمير كلها وأمره أن يعطي الأمير مزيداً من الثقة وأخذت الرسل تسعى بين الأمير والدوق دومال ثلاثة أيام بلياليها من دون توقف للتوقيع الرسمي على جمع الطلبات بشكل رسمي. وأول هذه الشروط تتعهد فيه فرنسا بعدم التعرض للسكان والمجاهدين منهم بالشر وإعطائهم الأمان في أموالهم وأنفسهم ودينهم وعدم اعتراض أو منع من يريد السفر معه من العسكريين والأنصار والأهل وكان ثمة شرط واحد لنفسه، وهو الأهم الاستئمان الزمني ريثما يصل إلى البلد الذي حدده في الاتفاق وهو عكا أو الإسكندرية^١.

بعد عدة أيام من المفاوضات تم التوقيع من قبل الجميع على طلبات الأمير فسار بأهله "من تنخريت" متجهاً إلى مرفأ الغزوات وكان ينتظره الدوق دومال ولي العهد والجنرال لامور سيير، وعدد من قادة جيش العدو وضباطه وهذا ما لم يتوقعه الأمير وفوجئ به، وفي أثناء سيره مرّ بمقام سيدي إبراهيم المكان الذي هزم فيه القوات الفرنسية عدداً من المرات وكان آخر انتصار له عليهم في هذا المكان منذ وقت قريب، فأمر بإيقاف الموكب وصلّى ركعتين على أرواح الشهداء وكان يرافقه أهله وبعض أعوانه وعدد من أفراد

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٨.

حاشيته المقربين، وعندما وصل موكبه إلى المرفأ المذكور استقبله الدوق والجنرال بكل احترام استقبالاً رسمياً وترجل الأمير عن حصانه الأدهم، وقدمه هدية ثم قدم له الدوق أيضاً بندقيته وساعته هدية فقبلها وبعد فترة من الإستراحة سار الجميع ١ إلى المرسى وقد اصطف الناس يميناً وشمالاً وهم سيكون وكان الفرنسيون الحاضرون يعجبون كيف كان الناس بمن فيهم الجنود الجزائريون بالجيش الفرنسي سيكون ويقبلون بنوسه وهو مار إلى البارجة وركب الأمير يوم ٢٤ / ١٢ / ١٨٤٧م البارجة التي اتجهت به إلى ميناء طولون^٢، ولسان حال الشعب ينشد باكياً:

تبكي السماء بمزِنِ رائح غادي

على الأبطال من أبناء بلادي

إن يُغلبوا فبنوا العباس قد غلبوا

وقد خلت قبل حمص أرضُ بغداد
دنا الوقت لم تُخلف له عِدَّة

وكلُّ شيءٍ بمقيات وميعاد

سارت سفينتهم والنوح يصحبها

كأنها إبل يحدو بها حادي

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٦.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٧.

انتشر خبر رحيل الأمير في أرجاء الوطن كالنار في الهشيم ووقع هذا الحدث المفاجئ، كالصاعقة على رؤوس السكان، فأخذت النساء بالبكاء والعيول وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة والنفوس كالنار تحت الرماد، ولاحظ المحتلون تلك الظواهر ودبّ الرعب في قلوبهم، فطلب أحد الضباط من الجنرال لامور سبير منع هذه التظاهرات بالقوة فأجابه: دعمهم سيكون فلقد ذهب عزّهم وعزّنا أيضاً، فلولا الحروب التي خضناها ضد هذا البطل لما رأيت هذه الأوسمة على صدري، ولما وصلت إلى هذه الرتبة العالية، جنّت إلى هذه البلاد وأنا ضابط صغير فانظر إليّ الآن ١.

٤. نقض فرنسا للعهد واعتقالها للأمير:

وفي الرابع والعشرين من كانون أول سنة ١٨٤٨م رست البارجة في مرفأ طولون في حالة انتظار لبعض الوقت حتى تصل توجيهات من الدول العثمانية، ولكن قبل أن تصل هذه التعليمات دخل على الأمير الكولونيل دوماس وأدّى له التحية العسكرية بكل احترام وتقدير، ثم أخبره أن المفاوضات لم تنته بعد، وأن عليه الانتظار بعض الوقت، فشعر أن هناك نية غدر مبيتة ولم تحنه فراسته وتأكّد من الخديعة والغدر عندما ابجرت بهم البارجة، ودخل عليه دوماس وأخبره أنهم قاصدون فرنسا حسب أوامر الملك الذي يعتذر له عن عدم الوفاء بشرط "الهجرة" لأنه لاقى معارضة شديدة من مصادر عليا في فرنسا. وقال له أيضاً على لسان الملك: إن فرنسا مستعدة لأن تمنحكم أراض شاسعة وقصوراً تعيشون فيها مكرمين، ويستطيع أفراد حاشيتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك. فرفض الأمير قائلاً: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٧.

أعيش فيه ولو وضعت فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقضته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية^١.

وقبل وصول البارجة الحربية إلى ميناء طولون سأله دوماس إن كان يريد زيارة باريس فلقد سبق أن زارها إبراهيم باشا خديوي مصر وكان سعيداً برؤيتها، فأجابه الأمير: إن هذا المذكور زارها سائحاً للنزهة فقط ولكنني الآن لا أرى فرنسا إلا سجنًا لي ولمن معي وقد أردت أن أكون ضيفاً على بارجتكم، فأصبحت أسيراً لديكم. وبعد ذلك نقل مع كل من معه إلى حصن طولون الشهير تحيط بهم حراسة شديدة مشددة^٢.

كان الهدف من سجن الأمير تخطيط رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري فرييس الحكومة فيزو الذي عين الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير، كتب في مذكراته: أنه لا يمكن تخطيط رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر^٣، وفي أواخر شهر نيسان ١٨٤٨م. تم عزل الأمير ذات ليلة عاصفة عن إخوته وعن عدد كبير من مرافقيه، ونقلوا إلى باخرة حملتهم إلى سجن باكرت ونقلوا الأمير إلى قلعة أمبواز من دون أن يكون في صحبته رجال يخشى منهم لأن حصن أمبواز يقع في مدينة "بو" التابعة لمقاطعة أورليان القريبة من الحدود الإسبانية، فكانت هذه السلطات تخشى من أن يخرج الأمير بالقوة بمساعدة مرافقيه الأشداء ويدخلوا الحدود الإسبانية، ومرافقة حراسة مشددة نُقل الأمير إلى تلك المدينة وفي أثناء الطريق مروا بمدينة بوردو الساحلية، فاستقبله عند مدخلها الأسقف دوبيش بكل احترام وتقدير وكان هذا الأسقف معجباً بالأمير ومن المدافعين عنه، وكان من الذين زاروا الخليفة محمد بن علال في ولايته من أجل بعض الأسرى الفرنسيين فوجد لديه من الإكرام ما لا ينسى.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

^٢ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٨.

^٣ المصدر نفسه.

وأقام الأمير في فندق المدينة بعض الوقت للاستراحة، ثم تابعوا سيرهم إلى مدينة "تور" ومنها إلى "أمبور" وعندما وصل القطار قال له الجنرال المرافق: أحمد ربك على وصولك بالسلامة إلى هذا المكان، إذ كنت طوال الطريق في أشد الحذر من أن يهاجمك أحد ويغتالك لأنه لا يوجد في فرنسا كلها أحد ليس له عندك ثأر، كان حصن أمبور لأحد ملوك فرنسا وهو عبارة عن قلعة كبيرة عالية الأسوار تحيط به سهول واسعة ونهر تسير فيه المراكب أحياناً وقد أقام الأمير في هذه القلعة هو وإخوته الأعزاء لديه الذين كان يعز عليه أن يبقوا بعيدين عنه، وكان بعدهم يحزن والدته العظيمة التي كانت تلح عليه باستمرار لكي يسعى إلى ضم إخواته إليه في هذا الحصن الذي كان في نظرهم سجنًا كبيراً، وقد أرسل الأمير عدة رسائل إلى الجنرال لامور سيير والدوق أورليون اللذين وقعا أمامه على شروط تسليم نفسه، طالباً الوفاء بالشروط وضمّ إخوته وضباطه إليه ١.

استسلم الأمير عبد القادر لقدر الله وقضائه ولكنه ندم على الوثوق بالعهود التي أعطيت إليه من قبل القادة الفرنسيين وقال: لو كنت أعلم أن الحال يؤدي إلى ما إليه آل، لم أكن لأترك القتال حتى ينقضي منا الأجل ٢.

وقام الأمير لامور سيير بمساعي كبيرة وكذلك الأسقف دويش والدوق دومال، للضغط على حكومتهم قائلين إن عبد القادر ليس بالرجل الذي يهرب من قضائه فهو مؤمن ذو همة وجلد وصبر، ولا يبالي بالشدائد، وهو ذو قوة وعزة نفس وصلابة في دينه وصدق اشتهر به، وهو شديد التمسك بمبادئه الوطنية وهو شخصية نادرة إذ وعد وفي وإذا تكلم صدق.

١ الأمير عبد القادر سيرته الجيدة، ص: ١٦٠.

٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٧.

واستطاعوا التأثير في السلطات العليا فسمحت لمن يريد بزيارته كما أمرت بلمّ شمله مع أهله وقادة جيشه السابقين^١.

وعندما كتب ييجو بطلب من لويس فيليب إلى الأمير ليطلب منه أن يقبل أن يعيش في فرنسا في الإقامة التي يختارها صحبة مجموعة مدينة تليق بمقامه في انتظار الفترة المناسبة لنقله إلى المشرق كان رد الأمير هو التالي: أن فرنسا ملزمة إزائي وإزاء نفسها، إن وعدكم لن أسقطه عنكم، سأموت ووعدكم عندي حتى أفضحكم وحتى تعرف الشعوب والملوك قيمة الوعد الفرنسي وبعد سقوط ملكية جويلية فإن الحكومة المؤقتة كانت غير قادرة على الوفاء بوعده فرنسا مثلها مثل النظام السابق لها، وعندما سأل محافظ الحكومة المؤقتة الأمير عبد القادر عن الضمانات التي يمكن أن يقدمها إلى فرنسا ليؤكد لها أنه لن يظهر أبداً في الجزائر. كان رد الأمير هو التالي: ليس لي ضمانات أخرى أعطيها حول عزمي الثابت فيما يخص المستقبل سوى تلك التي سبق لي أن قدمتها^٢.

أ. شخصيات فرنسية وإنجليزية تدافع عن الأمير:

وللحقيقة التاريخية أنه تدخل لصالح الأمير عبد القادر ودافع عنه العديد من الشخصيات الفرنسية مثل الجنرال لامور سيير والأسقف الأول للجزائر أنطوان دوبيش ودوق دومال^٣، والشيء الأكثر إثارة للدهشة في هذه القضية أن كافنيك وهو أحد الجنرالات الذين قاتلوا الأمير قد أعلن بعد تشكيل حكومة الجمهورية الثانية: لا يمكن اعتبار عبد القادر سجيناً فقد كان طريق الجنوب مفتوحاً أمامه وقد فضل هو الرجوع إلى ما يسميه هو بصدق الوعد الفرنسي^٤.

^١ الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦١.

^٢ الأمير عبد القادر وعبقريته البناء للأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

^٣ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

^٤ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

وقد تأثر به الرأي العام الفرنسي والدولي وعبر عنه بصفة خاصة في بريطانيا من طرف اللورد "لندنديري" والشاعر "شاكري" وقد اهتز لهذا الموقف اللورد البريطاني لندنديري فكتب رسالة شديدة اللهجة إلى لويس نابليون رئيس الجمهورية الفرنسية المنتخب وألح عليه بإطلاق سراح الأمير عبد القادر لينقذ شرف بلده وعدم نبذ عهودها، ووصل بالسيد لندنديري الحد إلى التهديد بكشف المراسلات التي تثبت شروط المعاهدة بين الأمير عبد القادر وبين فرنسا التي أمضيت في ديسمبر من عام ١٨٤٧م^١.

كما أن سيادة ديبيش الذي أصبح مطران باريس قد خاطب من على أعلى منبر نوتردام حاكم بلاده قائلاً: إنكم ستقتلون هذا الرجل دون أي مراعاة لوعد فرنسا^٢. لم يقبل الأمير عبد القادر على الرغم من العديد من الطلبات الجذ مغرية بأن يبقى في فرنسا حيث وعدته الحكومات المتتالية بمعاملة ومعاش يليقان بمقامه القديم، وظنت فرنسا أن بقاء الأمير كرهينة سيقبل بعد الإرهاق أن يقيم في فرنسا وهو ما يعني في نظر زعمائها الانضمام إلى فرنسا.

ومن الواضح أن الأمير عبد القادر قد كوّن مشكلة نفسية وتأييب ضمير وتشويه سمعة بالنسبة لفرنسا وكان الكل يشعر نحو الأمير بالإعجاب ولذلك حرصوا على أن يبقى في فرنسا لكي يحققوا من خلف بقائه أهداف منها:

- تحية وإكرام لفرنسا.
- وتنكر الأمير لماضيه^٣.

إلا أن الحياة الحرة العزيرة الأبية وتعلقه بشعبه ووطنه جعله كل ذلك أن يبقى في أعين الجزائريين والعالم أجمع كرجل وهب نفسه للقيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة ومن أهمها حريته

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

^٢ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

^٣ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

وحرية شعبه التي لا مساومة عليها مع المحتلين، ولذلك أصبح من الرموز اللامعة للجزائر والعرب والمسلمين والأحرار من بني الإنسان.

ب . حياته في السجن:

استطاع لامور سيرير والأسقف دوبيش التأثير على السلطات الفرنسية فسمحت للأمير عبد القادر لمن يريد بزيارته، وأخذت شخصيات كبيرة من جميع أقطار العالم تتوافد لزيارة الأمير والتعرف على شخصيته الفذة وتسلم رسائل من الشيخ شامل أحد زعماء الداغستانية في الولايات الإسلامية التي وقعت سيطرة تحت روسيا القيصرية، ومن الذين تحملوا مسؤولية الجهاد مدة طويلة منذ احتلال المناطق الإسلامية في بلاد القوقاز من سنة ١٨٣٤م إلى ١٨٥٩م وعمل على تثبيت الشريعة الإسلامية في قلوب أبناء تلك البلاد ونشر الوعي الإسلامي والتمسك بالقرآن والسنة وكان الأمير يستقبل الجميع بالبشر والترحيب وكان يقضي الساعات الطوال مع العلماء والشخصيات العالمية ويجيب عن أسئلتهم التي تتعلق بالدين الإسلامي وبالفقه والآيات القرآنية وتفسيرها، وكان صبوراً لا يظهر الضجر، وكان كل أسبوع يعقد ندوة علمية يجتمع فيها الرجال والنساء، فيقرأ ملخصاً عن كتاب "الصغرى" للإمام السنوسي في معنى الفقه وعلم الكلام، ورسالة محمد ابن أبي زيد الفيرواني في الفقه أيضاً على مذهب الإمام مالك وغيرها من الكتب المفيدة، وأخذ هو وإخوته ومصطفى ابن التهامي وابن علال يدرسون الصغار بعد أن نظموا لهم صفوفاً وكذلك للشباب كل حسب مقدرته وكان الأمير الذي زلزل بقوته أكبر دولة برية في العالم مدة ثمانية عشر عاماً متواصلة يقف أمام اللوح الخشبي مدرساً في سجنه لأطفال أهله ورعيته وثابر على تمسكه بالصبر وظل غير مبال بنوائب الدهر قائماً بواجباته الدينية بخشوع، قال شرشل: إن مطران "أمبواز" كان يحث المصلين في أثناء قيامه بالوعظ يوم الأحد، فيقول لهم انظروا إلى الأمير عبد القادر الأسير في منفاه كيف يقوم هو وجماعته

بكل واجبات دينهم من صلاة ليلاً نهاراً. ألا تسمعون الأذان بصوت قره محمد خمس مرات كل يوم من أعلى البرج في الحصن ١.

وهكذا ظل الأمير خمس سنوات في سجنه فقد خلالها عدداً من أبنائه وأهله ودفنهم في حديقة القلعة صابراً راضياً بقضاء الله وقدره، ولم يكن في سجنه أقل عظمة مما كان في أيام سلطاته ومقاومته الأعداء، وقد أجاب ذات ليلة أحد أبنائه عن حاله مرتجلاً هذه الأبيات:

تعوّدت مسّ الضّر حتى ألفنه

وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر ٢

٥. إطلاق سراح الأمير عبد القادر:

بعد أن تغير الحكم في فرنسا إثر الكثير من الاضطرابات الداخلية وعاد لويس فيليب إلى الحكم وأصبح إمبراطوراً باسم نابليون، كان أول عمل قام به هو أن أرسل كتاباً إلى الأمير يقول له فيه ما معناه: إن سجنك يعذبني ويقض مضجعي وأشعر بالعار لعدم تنفيذه الاتفاق، وأخبره بأنه يريد زيارته في أول فرصة ممكنة.

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٥٢م توجه امبراطور فرنسا نابليون الثالث إلى مدينة "تور" يرافقه المارشال ستارنو وزير الدفاع والجنرال روغو، وعدد من كبار الضباط والحرس الإمبراطوري واستقل هذا الموكب القطار إلى مدينة أمبواز.

بدأ نابليون الثالث جولته هذه بزيارة الأمير عبد القادر وما إن وصل إلى مدخل الحصن حتى وجد الأمير في استقباله فसार وإياه يداً بيد إلى أن وصلا مكان الاستراحة المعدة مسبقاً، ثم أقبلت والدّة الأمير المسنة منحنية على عصا تساعدتها على نقل خطواتها نحو

١ الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

٢ الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

الإمبراطور الذي قال للأمير: أكرر أسفي على السنين التي قضيتها مرغمين في سجنكم هذا، والآن يشرفني التعرف على عدو شريف وضيف كريم أقدر دفاعه عن وطنه ورفضه قتال أبناء دينه، ثم قدّم له سيفاً منقوشاً عليه اسم نابليون الثالث وتاريخ المواجهة مرفقاً بكتاب يقول فيه:

هذا إقرار بالوفاء بشروطكم ومساعدتكم من حكومتي على السفر ومن معك إلى تركيا حسب رغبة السلطان غازي خليفة المسلمين.

ودعاه لزيارة مدينة باريس بعد عشرة أيام حيث يكون قد نظم له احتفالاً كبيراً وعرضاً عسكرياً لجميع أسلحة الجيش التي حاربها بحد سيفه وسيوف المجاهدين مدة ثمانية عشر عاماً. وغادر نابليون الثالث الحصن الذي شهد انتهاء أسر الأمير ومرافقيه عام ١٢٦٩هـ وكان ذلك القصر التاريخي مقرّاً مفضلاً لكثير من ملوك فرنسا وأولهم لويس الحادي عشر وبعد قيام الثورة الفرنسية للقضاء على الملكية تحول إلى حصن وقلعة ثم إلى سجن للأمير عبد القادر ١.

٦. مغادرة فرنسا إلى الدولة العثمانية:

سارت قافلة المهاجرين الأبطال في هدأة الليل من حصن أمبواز في طريقها إلى مرسيليا في الثامن والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م وعند وصول القافلة إلى مشارف مدينة ليون شوهد مئات من الجند بلباسهم الرسمي يمثلون فرقا من الجيش، وأطلقت إحدى وعشرين طلقة تحية للمغادرين، وحصل مثل ذلك الاحتفال الرسمي للقافلة في مرسيليا أيضاً، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة قبل صعودهم البارجة الحربية التي أبحرت بهم نحو جزيرة صقلية، وبعد فترة من الزمن لاحت الجزيرة عن بعد كزمردة خضراء لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية الحانية وزرقة السماء الصافية وكان حاكم المدينة قد نظم استقبالا حافلا لائقاء وينطوي على كل احترام وتعظيم وبعد

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٤.

استراحة قصيرة تقدم من الأمير عارضاً القيام برحلة لمن يريد في أرجاء الجزيرة وكان عدد من العربات في انتظارهم وتجولوا في صقلية وشاهدوا الآثار الإسلامية التي تشهد على تاريخ هذه الجزيرة العربية الإسلامية وبين أمجاد هذا التاريخ الغابر وهدير الأمواج كانت تغلق نفوسهم الحزينة هذه الذكريات الموجعات، وما أشبه أيامهم الحاضرة بالأمس البعيد^١، وصعد الأمير مع حاكم صقلية إلى جبل "أتنا" وعند مغادرته ترك رسالة شكر عبّر فيها عن مشاعره بالعبارات التالية:

شاهدنا في كل مكان آثار الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة، هذه المشاهد دفعتنا إلى التفكير بالله وأنه في الحقيقة سيد الكون وأنه يعطي الأرض لمن يشاء إن جبل النار هو بلا شك أحد روائع العالم وعند تأمل السهول المزروعة والمأهولة من قيمة هذا الجبل نفكر بقول الحكيم العربي حول الجلاء عن صقلية من قبل العرب:

أن أفكر فيك يا سهول صقلية من ارتفاعات "أتانا" يؤدي إلى يأسٍ لو لم تكن دموعي مألحة لشكلت أنهاراً لهذه الجزيرة جزيرة المجد، علينا من سكن الفردوس لتتمكن من وصف روائع صقلية^٢.

وقبل ركوب الأمير ومن معه أمواج البحر في الباخرة قدم سيدي الطيب بن المختار قصيدة إلى ابن عمه الأمير عبد القادر نقتطف منها هذه الأبيات:

هذي صقلية لاحت معالمها

تجر تيهاً فضول الربط من أمم

كانت منار هدى كانت محط ردى

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٠.

^٢ فارس الجزائر مصطفى طلاس، ص: ٢٩٤، ٢٩٥.

كانت شمس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي مآثرهم
بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذي المساجد قد دكت قواعدها
هذي المآذن بالناقوس في سقم
هذه المحاريب قد عاد الصليب بها
هذي منابرها قفري من الحكم
إذا رأيت مسلماً قد زارها فرحت
واستبشرت ثم باست موضع القدم
انظر لأرجائها تلق العجائب بها
قد أعلنت بسرور غير مكتتم
كيف لا وحسام الدين حلّ بها
فخر الأكابر من عرب ومن عجم
عبد القادر عز الإمارة ورونقها
بحر السماحة كم أسدى من النعم

تابعت الباخرة طريقها تمخر عباب البحر ورست في ميناء الأستانة "إسطنبول" يوم الجمعة في شهر كانون أول عام ١٨٥٣م، وكان أول عمل قام به الأمير هو زيادة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وأبو أيوب الأنصاري كانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور القسطنطينية وفي حصارها في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ولما مرض قال لمن معه من المجاهدين: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صادفتم العدو فارموني تحت أقدامكم، أما أنا سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^١، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا والله لئن نُبش لأضرب بناقوس في بلاد العرب، وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانه أبي أيوب الأنصاري عظمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تھوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أنه له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره.

وقد ترك أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً وكأنما لم يكفه ما حقق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لاحقة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً

ومكابداً بحروبه ما كابدا

حتى أتى بصلابة ومهابة

في آخر الغزوات هذا المشهدا

^١ سير أعلام النبلاء للذهبي (٢ / ٤١٢) إسناده قوي.

قد مات مبطوناً غريباً غازياً

فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا^١

وكان من الطبيعي أن يبدأ أول زيارته في إسطنبول من أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي كان ملهماً بسيرته لكثير من الأبطال والمجاهدين عبر العصور والدهور، وبعد زيارة الأمير عبد القادر ضريح أبي أيوب الأنصاري زار جامع أيا صوفيا، وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت لهم قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين، وعرض عليه عدداً من المدن ليختار إحداها لإقامته الدائمة فاختر مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها وجمال الطبيعة فيها، وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

كان خليل باشا صهر السلطان ووالي بورصة في استقبال موكب الأمير ومن معه من المهاجرين، وعند مدخل المدينة ومعه أعيان البلد ورجالها المرموقون فقالوا جميعاً على مشارفها، وسار الموكب على طريق ترابي بين أشجار السنديان والبلوط وأشجار التوت، في اتجاه الأمكنة التي أعدت لهم بالأمر السلطاني في بورصة أجمل تلك المناطق؛ وبعد أن استقر بهم المقام انضم إليهم الحاج عبد القادر بوكيخية والعلامة الحاج محمد الخروبي القليعي، وكان كاتباً لدى الأمير وخليفة على أياالة صطيف. والعالم قدور بن روبلة وغيرهم وجميع هؤلاء كانوا أسرى أطلق سراحهم المستعمرون الفرنسيون بعد وصول الأمير إلى بورصة فوجدوا لديه الملاذ والحمى والصدر الرطب، ومن أجلهم اشترى الأمير مزرعة واسعة تسمى "جليك" في ضواحي المدينة وأمر ببناء دور لسكنائهم وأشرف على بنائها الجميل مهندسون من دار الخلافة^٢، وكان الجميع يداومون على حسن مجالسة الأمير وكان يصلي لهم الصلوات الخمس في الجامع المعروف بجامع العرب. وقد شرح لهم في هذا الجامع كتب الكودي والسنوسية وصحيح البخاري والمذاهب الأربعة، وكان يكثر من

^١ الدولة الأموية للصلاحي (١ / ٣٥٢).

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٢.

الصدقات ويكرم المحتاجين فأخذ العلماء وأصحاب الحاجة يقصدونه من كافة بلاد العالم الإسلامي، نذكر منهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي العلامة الشهير الذي يشكو من محنة دهماء لم يجد لها حلاً وبينما كان في غمرة اليأس البؤس طاف به خاطر ألهمه صبراً وأحيا في نفسه أملاً.

ومحنته كانت: في غفلة من الزمن استولى أحد الأجانب المقيمين في دمشق وكان يدعى "يانكو" على دار تابعة لمدرسة الحديث في أشرفية صحنايا من ضواحي المدينة، وتطاول إلى الزاوية الغربية من المسجد وضمتها إليه، ولم يكتف بذلك الاعتداء بل عمد إلى إنشاء معمل ومستودع للخمر فيها فثار المسلمون وعلى رأسهم العلامة الشيخ يوسف الذي قدم شكوى إلى الوالي العثماني، فأهملت الشكوى على الرغم من الملاحقة المضنية، فاضطر إلى السفر إلى دار الخلافة في إسطنبول مستغيثاً، لكنه لم يجد هنا أذنّاً صاغية وبعد أن بذل جهوداً مضنية والكثير من المال حصل "فرمان" من الباب العالي، ولكن في دمشق أهمل الوالي الأمر السلطاني وشعر هذا العالم الجليل بالإحباط والظلم فقرر الهجرة إلى المدينة المنورة، وفجأة لاحت له بارقة أمل: لماذا لا يقوم بمقابلة الأمير عبد القادر أولاً؟ وشد الرحال إلى بورصة، وكان سعيداً بالاجتماع بالأمير فشكا له أمر تلك الدار التي كانت مقصد رجال الدين والعلماء وأئمة المسلمين ومنهم الإمام النووي الذي سميت باسمه وحدثه عن تاريخ هذه البقعة المقدسة التي شرفتها قدم المرسلين صلى الله عليهم وسلم: فجاشت نفس الأمير بمشاعر النخوة والحمية وأرسل فوراً يطلب هذا الرومي ولما حضر فاوضه على بيع المكان المذكور بأكمله، ودفع له الثمن نقداً كما طلب، وانتهت المشكلة وجعل هذا العقار وقفاً شرعياً باسم العلامة يوسف بدر الدين ومن بعده لذريته بحجة شرعية بتاريخ الثاني من جمادى الأولى عام ١٢٧٢هـ، ثم أمر بترميم الدار والمسجد

على نفقته وعندما فرغ من إصلاحهما كتب إلى الشيخ يوسف رسالة يرجوه فيها أن يأتي ليسكن هذه الدار فسكنها وتسلم المدرسة في أول يوم من شهر رجب ١٢٧٤هـ.

ثامناً: الأمير عبد القادر في دمشق

كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكنى اللائقة به، وعند وصول الأمير إلى ميناء بيروت وجد ومن معه جموعاً من السكان اللبنانيين في استقبالهم والترحيب بهم وإكرامهم، وفي اليوم الثاني سار موكب العربات تجره الخيول المطهية نحو دمشق الفيحاء، وكان استقبلاً رسمياً دمشقياً أُعدّ على مشارف المدينة وسار الموكب تتقدمه فرق من الخيالة والمشاة بملابسهم الرسمية وأوسمتهم، ودخل موكب الأمير دمشق وأخذ الناس يهتفون بحياة الأمير وبحياة أصحابه الأبطال واختلطت هتافاتهم الحماسية بزغاريد النساء وكان الأطفال بملابس العيد يصفقون فرحين وكأن كل واحد منهم يستقبل أباه الذي عاد للتوّ من الأسر ليحمل مستقبل أيامه البريئة وأخذوا يهتفون لحامي العروبة والإسلام البطل الذي حارب أكبر إمبراطورية برية استعمارية. كان لهذا الاستقبال الكبير الأثر العميق في نفس الأمير الذي شعر بما يعانيه هذا الشعب وما ينتظره من مؤامرة تُدبر له في ليل من جانب المستعمرين.

دخل الأمير عبد القادر دمشق عام ١٨٥٥م وبلغ احتفال السكان بقدمه حدّ الروعة، فقد خرج لاستقباله جميع السكان حتى النساء والأطفال إلى مشارف المدينة وقد لبسوا ملابس الأعياد^٢.

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٣.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٤ إلى ١٩٧.

١. العبادة والحلقات العلمية وكتبه وفكره:

كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي، وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز وكان يلقي دروساً في القرآن والفقه والحديث فضلاً عن علوم شتى في الجامع الأموي والمدرسة الجقمقية ودار الحديث الأشرفية وفي داره، ومن الكتب والرسائل التي اعتمدها في غالب الأحيان الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي، والعقائد النسفية في التوحيد للعلامة نجم الدين عمر النسفي الحنفي، وموطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري الذي كان يحفظه عن ظهر قلب وصحيح مسلم، والشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وألفية ابن مالك، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، واهتم بكتب التصوف فضلاً عن مدارس كتابات عديدة لمشاهير المؤلفين في التاريخ القديم والحديث وفي الفلسفة واللغة والتاريخ والجغرافيا والطب، وتجمعت لديه مكتبة ضخمة وكانت داره لا تخلو يوم من الزوار من كل أنحاء البلاد العربية والإسلامية^١.

لقد بدأ الأمير كفاحه في خدمة العلوم الفقهية وخدمة الإنسانية، وكان يحب العلم والعلماء الذين ما ان استقر به المقام حتى احتضنهم وحسن حياتهم وزاد إنتاجهم العلمي واستطاع أن يوجد مناخاً من الحرية، وحال دون عاديات السلطة على الشعب، وأقام الندوات العلمية والفقهية والدراسات الدينية في الجامع الأموي وساعد في رفع الظلم عن الكثير من المضطهدين، وخصص رواتب سخية في كل شهر للعلماء والصالحين

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

والمحتاجين، وتفرغ للعبادة والتأليف وخدمة الناس وألف كتاب "المقرض الحاد" لما كان في سجنه وراجعته في دمشق ونظم ديواناً من شعره الرقيق سماه "نزهة الخاطر" ومجموعة من الكتب.

واهتم العلماء بهذه الكتب وتقرّظها ومناقشتها من قبل رجال الفكر، وأدرجت جميعة العلماء في باريس اسمه من بين أسماء العلماء والعظماء في "ديوان الأمم".

وكانت أماكن ندوات ومحاضرات وحلقات الأمير عبد القادر تتغير من حين إلى آخر حسب الظروف المتاحة، فكانت أحياناً في مدرسة الأشرفية الشهيرة الآن بدار الحديث النووي، أو في المدرسة الجقمقية، وأحياناً في الجامع الأموي، لكن كان في أكثر الأحيان يدرس ويحاضر في منزله الذي غدا في دمشق مأوى لعباد الرحمن الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يشغلهم شاغل عن نهل العلوم وذكر رب العالمين، وأصبح هو مركز اهتمام العلماء والمثقفين وقبلة الفقهاء وكل من يريد معرفة فتوى، أو رأي في قضية فقهية^١، وفي السنين الأخيرة من حياته كان إذا حل شهر رمضان المبارك يذهب إلى مزرعته في أشرفية صحنايا من ضواة المدينة وزوارها ويمضي أواخر الشهر معتكفاً في غرفة صغيرة منعزلاً عن الناس لا يدخل عليه سوى الخادم الذي يقوم بخدمته، قائماً ليل ويرتل القرآن ويصلي، ولم يكن طعامه سوى الحليب والتمر والزبيب^٢.

وانفتح الأمير على ثقافات بلاد الشام والمشرق المتنوعة التي كان ينظر لها مجموعة من المفكرين والمصلحين وجملة من المثقفين من خريجي مدارس الإرساليات المسيحية التعليمية، ومن ريادة المتعلمين من أمثال ناصيف اليازجي الذي توفي عام ١٨٧١م صاحب كتاب مجمع البحرين الذي حاكى فيه مقامات الحريري، وبطرس البستاني الذي توفي عام

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٧.

^٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

١٨٨٣م الذي ارتبط اسمه بدائرة المعارف التي عمل على إخراجها وأتمها بعده أولاده، كما تأثر بحركة الطباعة ونشر الكتب وتأسيس الصحف ودورها في نشر الثقافة الحديثة والوعي السياسي والاجتماعي، وكان في طليعة النشريات التي أثرت الحياة الثقافية جريدة الأحوال التي صدرت بدمشق عام ١٨٥٥م وجريدة الأخبار الصادرة ببيروت عام ١٨٥٧م، كما تأثر الأمير في دمشق والشام بمحيطها وعمقها الطبيعي العربي، وتكامل إنتاجها الفكري بإنتاج المؤرخين والكتّاب خريجي بعثات محمد علي إلى أوروبا كالتجمات والمؤلفات العلمية والتاريخية مثل العلامة علي مبارك، والشيخ رفاعه الطهطاوي صاحب الكتاب المشهور تخلص الإبريز في تخلص باريز، وإبراهيم الدسوقي وعبد الله أبو السعود وصالح مجدي وغيرهم^١.

أ. مؤلفاته وكتبه:

بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه، فقد شرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية في علم الكلام كتبها جده الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر عبد القادر بن أحمد المدعو بن خده، وبعدها بحسب الظروف والمواقف كانت له تأليف وكتب:

. رسالة بعنوان حسام الدين لقطع شبه المرتدين، كتبها في بداية عهده بالإمارة أي عام ١٨٣٣م وذلك بالرد القاطع من القرآن والسنة النبوية على بعض أشباه الشيوخ الذين استمالهم واستأجرهم الاحتلال ليروجوا بين الناس جواز النزول تحت حكم الفرنسيين وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير المجاهدة.

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٦.

. كتاب وشاح الكتائب وزى الجندي المحمدي الغالب. ألفه بعد معاهدة التافنة عام ١٨٣٧م وهو كتاب يشتمل على الأحكام والأزياء والقوانين الخاصة بالجيش المحمدي الفتي خطّه بيده المجاهد قدور بن رويلة تحت إشراف الأمير وأضاف إليه بعض الملاحظات.

. مجموعة من المراسلات الفقهية بينه وبين علماء عصره وأجوبة كثيرة عن أسئلة لحل مشكلها وفتح ما استغلق منها، وكذلك مجموعة من المراسلات بينه وبين بعض الشخصيات المدنية والعسكرية وأجوبة كثيرة عن أسئلتهم واهتماماتهم في ميادين شتى^١.

ب. كتاب المقرض الحاد:

كتاب المقرض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد ألفه الأمير عبد القادر عندما كان سجيناً في قلعة أمبواز بفرنسا في أواخر عام ١٨٥٢م والسبب في ذلك أنه بلغ الأمير أن بعض الحكام والضباط والأمراء الأوروبيين انتقص من دين الإسلام واعتبر أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام نفسه، فوضع الأمير ذلك الكتاب من حفظه دون مراجع مكتوبة للرد عليهم بالدليل الكافي والوافي من القرآن والسنة الصحيحة وبيّن لهم خطأ اعتقادهم ووضح في الكتاب مسائل وأحكام مهمة وظهرت فيه روح الدعوة وحرصه على هداية الناس.

لقد أكد العقلاء في هذا العالم أن الإسلام حمل إلى الإنسانية حضارة عادلة ورحيمة تكمن في سعادة هذا المخلوق في دار الدنيا والآخرة، وتقضي على الشرور في المجتمعات، وفي أعماق النفس البشرية، وقد شمل كتاب الأمير عبد القادر "المقرض الحاد" على المواضيع الرئيسة في الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية والتربية من وفاء وإخاء ورحمة وعدل وبيّن مكانة الفرد في الإسلام في هذا الدستور الإلهي الذي جعله الله يشكل اللبنة الأساسية في كيان الأمة والمجتمع، هذا الفرد الذي جعله الله في المنهج الإسلامي

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

مكلفاً ومميزاً، قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ" (الأنعام، آية : ١٦٥).
. وقال تعالى : " وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا " (الزخرف، آية : ٣٢).

ففي المجتمع الإسلامي لا يوجد صراع طبقات وإنما إخوة وتعاون وتكافل اجتماعي ومساواة وعدل ورحمة، فهذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام ١٨٥٢م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد تضمينها كل هذه الأسس في الدستور الإلهي القرآن. وأعتقد أنه نجح على جعلهم يقرؤونها ويترجمونها ولم يحتجوا على عنوانها الجريء "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" وقبولهم لها وترجمتها ووضع اسمه بين علماء العالم دليل على نجاحه فيما قدّم، ولا بد لكل من قرأ هذه الرسالة "المقراض الحاد" من ملاحظة أن هدف الأمير لم يكن استعراضاً لمعلوماته وإنما الهدف كان الدعوة الإسلامية التي هي واجب على كل مسلم، وأيضاً تعريف هؤلاء المستعمرين لبلاده بدولته التي أرساها على هدي القرآن في الجزائر أراد أن يقول لهم في هذه الرسالة أن الشعب الجزائري يملك حضارة ربانية عريقة لا تقارن بحضارتهم الوضعية التي يريدون فرضها بالقوة على شعبه بحجة إنقاذهم من التخلف والتوحش وقال لهم في مقدمة رسالته: إنني لا أصلح أن أكون تلميذاً للعلماء في بلادي كان هذا الكتاب موجه إلى جماعات لا تؤمن بالإسلام ولا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان لا بد من مخاطبتهم بأسلوب العقل والمنطق الإنساني للوصول إلى غايته وهي نشر الدعوة الإسلامية التي نزلت إلى الناس أجمعين، ولقد جسّد هذه الدعوة بأعماله الملحمية قبلاً وفي سجنه أيضاً وكانت عنده سلوكاً، لقد كان كتابه في السجن يدل على مستودعاته الفكرية والمعرفية وعن كينونته ثم هدفه وكما قال الله تعالى : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ" (إبراهيم، آية : ٢٤ . ٢٦). صدق الله العظيم.

والكلمة الطيبة هي التوحيد والإيمان بإله واحد لا شريك له، ولكي يصل إلى عقولهم تناول الأمير في المقدمات علومًا مختلفة، تكلم في الفصل الأول من رسالته " المقرض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" عن العلم والجهل، ثم عن فضل العلم والعلماء، ثم تكلم عن العقل ليخاطب عقولهم، وقيمة هذا العقل والحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا العقل وتكلم عن الحواس والإدراك، ثم في الفصل الثاني تكلم عن العلوم الشرعية وحاجة الإنسان إلى الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير، وتكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة على الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقاً أو مدعياً، وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم والوفاء عند العرب. وبعلم الاجتماع وفضل التصنيف وتدوين المعارف وعن آيات الله في الأرض وفي السماء وأشار أيضاً إلى تحريم السحر في الإسلام^١، وتحدث عن رسالة الأنبياء وعن رسالة النبي صلى الله عليه وعلاماتها وأدلتها، وتحدث عن القرآن الكريم فقال: إن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وحمله معارف العرب وعلومها وهي أربعة البلاغة والشعر، والخبر والكهانة، فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم ومن الإخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبات، فتوجد على ما كانت ويعترف المخبر عنها بصحبة ذلك وصدقه، وإن كان من الأعداء ومن الأخبار عن القرون السالفة وأبناء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث الماضية ما يعجز عن تفرغ لهذا العلم عن بعضه إلى أن قال: .. ومعجزة القرآن باقية ثابتة

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٧.

إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة، لا تخفى وجوه ذلك على من نظر فيها وتأمل وسائر معجزات انقضت بانقراضهم وعدمت.

ومعجزة القرآن لا تبید ولا تنقطع ولا یقدر أحد على تغییرها وتبديلها ولو بلغ الغاية في العداوة والمعاندة والجهل^١، وقال: وحاصل أن لنا على نبوة محمد عليه السلام دلالة أنه عليه الصلاة والسلام صادق وأمين وأظهر المعجزة وهو خاتم الأنبياء^٢.

وقال: ونزلت الرسالات السماوية كما يشيد بنا الدار بالتدريج، فأصول النبوة كانت بآدم وأصل الرسالة بنوح ولم يزل ينمو حتى وصل إلى سيدنا موسى عليه السلام ثم إلى عيسى إلى أن كمل بناء الدار بالجمع بين العلم والعمل بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كان سر ختم النبيين والزيادة على الكمال نقصان، وأكمل شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع، فكم اذا الأصابع الأربع ناقص فذو الأصابع الستة ناقص، لأن السادسة زيادة عن الكفاية، فهي نقصان في الحقيقة وإن كانت زيادة في الصورة، ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والتنزيه وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك ما لم يملكه أحد من الأمم السابقة^٣.

كان الأمير عبد القادر ملتزماً في أفكاره واعتقاده بالكتاب والسنة وكان كثيراً ما يردد:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

ففكر الأمير ومعتقدده واضح المعالم، صادق وصريح، نابع من جذور ثقافته وتربيته وتعليمه وإيمانه والتصوف الذي وصفوه به كان أعمالاً وصلاًحاً وتقياً وتمسكاً بالقرآن والسنة

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٤

^٢ المصدر نفسه، ص: ١١٦.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١١٧.

وزهداً في الحطام الزائل، وكان متمسكاً بالعبادات وأوامر الشرع إلى أن حان أجله وهذه حقيقة دراسة وافية وعميقة ومتجردة في حياة الأمير وتراثه.

ج. كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

هذا الكتاب من كتب الأمير عبد القادر قسمه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وأدرج تحت كل عنوان مجموعة من العناوين التي تخدم الفكرة الرئيسة للموضوع في هذه المقدمة قدمت لمضمون الرسالة ليضع القارئ أمام الموضوع فيكون على بينة منه قبل الإقدام عليه، فقد أكد على أن مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساساً في العقل والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق، ولذلك وجب على العقل في أن ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل لأن الحكمة ضالة العاقل وأن معرفة الرجال تكون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ولا بد من نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور والتأمل للاعتبار لمعرفة الحق بالدليل، وفي ذلك يتميز الناس مراتب، فمنهم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده والأعمى لا يصلح أن يقود العميان ورغم ذلك فإن هداً العقل لا يمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله سبحانه وتعالى عنه أنوار الهداية والتوفيق فيغدو كالعين الباصرة لا يمكنها إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيران كالشمس ونحوها، فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى والعلم علمان علم محمود وآخر مذموم، فأما المحمود فهو العلم الذي ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوم أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة، أما العلم المذموم فيؤدي حتماً إلى ضرر إما بصحابه أو بغيره كتعليم السحر والطمس فالحلم هو في حقيقة الأمر الغاية من خلق الإنسان نفسه فالعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل ولذلك فإن شرف الإنسان

وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله، والعلماء هم ورثة الأنبياء وقد حذرت من أشباه العلماء الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهل فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يبتغون وراء ذلك عرضاً دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق، كالوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدرهم لكن العقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ فثم علوم لا يصل إليها ولا يهتدي إلى الاطلاع إليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم، بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل، ف وراء العقل طور آخر وأمور أخرى العقل معزول عنها ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره ولذلك وجب الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي، فالعلوم التي تحل في العقل قسماً، عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع، وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزل مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض ١.

وهذا لا يعني أن العلم العقلي يخالف أو يناقض العلم الشرعي، بل العكس لأن جميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها ما لا يهتدى العقل إليه أولاً، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له فكان لزاماً للتدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولاً وعملاً وأما المكذب للأشياء بعقله عما جاء به الرسل والأنبياء من الأعمال والعبادات فيؤدي إلى الغرور الهادي صاحبه إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر والعناد وجملة القول أن الدين عند الله الإسلام، فالدين واحد باتفاق الأنبياء وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية، إذن فلا بد من التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية بين جميع المنتسبين

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٩.

للأديان، ولا بد للإنسان من الابتكار والاجتهاد وعدم الاقتصار لما خلفه السابقون من التصانيف والتأليف والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، كما أن تصرفات العقول لا حد لها، ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين، فالعلم في بحر لجي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ ولذلك فالخطأ أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال. فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئاً، خطأ القول الصحيح كم ترك الأول للآخر شيئاً. أما بالنسبة للتصنيف والتأليف والكتابة فنجاح الأمر يكمن في إتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص وعدم استخدام اللفظ الغريب لا في الرموز ولا في الأغلاز وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حساب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم فالعلم تراث إنساني حق للجميع كل فيه شركاء، فالمآثر العلمية والعقلية ثمر جهد إنساني عام جيل يمضي وآخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقاته ودرته بهذه الأمة^١.

د. كتاب «المواقف» بطلان نسبته للأمير:

ينسب للأمير عبد القادر بعد وفاته بثمانية وعشرين عاماً حيث طبع في مصر على نفقة السيدة نبيهة خانم زوجة محمود باشا الأرناؤوطي من دون أي دليل على أن للأمير صلة به، سوى الألف واللام التي وضعت على عنوانه "الأمير عبد القادر" فالكتابة كانت بقلم فراج بخيت السيد، والتاريخ كان ١٣٢٨ هـ والأمير كانت وفاته ١٣٠٠ هـ ولم يذكر السيد فراج أنه مثلاً نقل ما خطته يده عن مخطوط للأمير، أو أنه كان يحضر ندواته الفقهية

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٠.

ونقل عنه هذا الموقف أو ذلك أو أنه استند إلى أوراق وصلته من ورثة مثلاً لا شيء من هذا البتة والأدلة كثيرة منها:

. الدليل التاريخي وهو الزمن الممتد بين وفاة الأمير عام ١٣٠٠ هـ وطباعة الكتاب ١٣٢٨ هـ وكتاب خطير من هذا النوع لا بد لمؤلفه من طباعته في حياته والتأكد من عدم تحريفه بزيادة أو نقصان أو تشويه.

. الدليل المنطقي العقلاني العلمي، وهنا لا بد لنا من الرجوع إلى علم القياس، فأمامنا كتاب "المقراض الحاد" الذي كتبه الأمير في أمبواز وقدمه إلى القساوسة، فهذا الكتاب أو الرسالة معروف تاريخ كتابتها ومكانها ومناسبتها، وعلى ذلك شهود من أهله وخاصته وبدأها بقوله: حينما طلب مني شرح معتقدي الإسلامية أجبته بأنني لا أصلح تلميذاً لعلماء المسلمين، ولكن سأبذل جهدي وهذا يعني أن الأمير هو صاحب الرسالة ومؤلفها، أما في كتاب المواقف فأول صفحة تبدأ . قال سيدنا وملاذنا .. الخ أي يقال عنه، وهذه ملاحظة تستحق وقفة وتفكير وسؤال أيضاً لمن قال؟ ومتى؟ وأين؟ وهل هذه الأفكار التي كونت كتاب من ألف صفحة هل جمعت من أوراق تخص الأمير أم اختزلت أثناء ندواته الفقهية، وخضعت بعد سنوات من وفاته للتنقيح والتحرير بواسطة خطاطين مأجورين ومن فعل ذلك؟.

التساؤلات كثيرة والشكوك كبيرة والجواب العقلاني والعلمي يقول أن كل ما يناقض فكر الأمير في كتابه "المقراض الحاد" جاء في المواقف، فهو تشويش مدسوس، مثال على ذلك ما جاء في الأسطر الأولى من الموقف ١٨٠ لأنه يناقض ما كتبه الأمير في الباب الأول من "المقراض الحاد" بعنوان الطريق إلى معرفة الله ثم خلق الإنسان تناقض صارخ ومثال آخر ما جاء في صفحة ٤٦٤ من كتاب المواقف في تفسير أين المفر في سورة القيامة، يذكر في المواقف أن العارف يقول أين المفر، وهذا خطأ يستحيل أن يرتكبه عالم كالأمير عبد القادر حتى ولا إنسان عادي فالآية واضحة وضوح الشمس وتعني الكافر بيوم

القيامة وليس العارف قطعاً، فالإنسان العارف لا يقول يوماً أين المفر، وإنما الكافر بها والحديث جاء في السطر الأخير في الصفحة وهو المهم "زدني فيك حيرة" عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ربما هو من الأحاديث الموضوعة والله أعلم ولكن الأمير العالم والمتخصص بصحيح البخاري وقد ختمه وهو يحاصر عين ماضي عام ١٨٣٧م كان يدرسه في سجن أمبواز وأعطى فيه إجازات لعدد من أعيانها.

. الدليل الفكري المعروف عن البخاري شدة حرصه على سلامة الحديث وسنده وصحته، فكيف يخطئ الأمير وهو من كان يدرس صحيح البخاري إلى أن أقعده المرض وانتقل إلى دار الآخرة، وكان يعلم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». فهل يوجد فقيه عالم لا يعلم معنى هذا التحذير؟ ومعروف هذا البيت التالي عن الأمير:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

وليس كل ما جاء في المواقف هو خارج عن فكر الأمير وعلى الأرجح والله أعلم، أن مجموعة من أوراق هذا المجاهد العالم كان قد كتبها للرد عليها في ندوته الفقهية أو للاستئناس بها أثناء ذلك أو ربما كتبها غيره ووجد فيها مغالطات وأراد الرد عليها، كل هذه الأوراق جمعت بطريقة ما ووصلت إلى محمود باشا وكان يحمل معتقدات خاصة يريد نشرها، ووجد بشخصية الأمير ضالته وكذلك تلك الأوراق مرتعاً خصباً لذلك جاء في كتاب "المواقف" بهذا الشكل المشوش المتناقض الذي اختلط فيه الأبيض من الأسود.

. الدليل التوثيقي العلمي الذي قدمه خبراء الخطوط كالأستاذ هشام الغراوي الخبير الدولي المعتمد في القصر العدلي بدمشق، ثم اللواء عبد المنعم ياسين المعتمد في دوائر الأمن العام بدمشق، وأحمد الأنباري المعتمد من الجامعة السورية، وجميعهم أثبتوا أن جميع الرسائل التي

قدمت في كتب كثيرة العدد على أنها بخط الأمير، منها إلى الجمعية الماسونية، ومنها إلى مسؤولين فرنسيين مزورة، وليست بخط الأمير ولا بأسلوبه المعروف^١.

. الدليل العائلي، وهو القرب من النبع فأول عمل يقوم به المحقق الناجح هو الاتصال بأقرب الناس من الهدف والشخصية التي هي مجال عمله إن كانت زوجة أو أبناء أو أحفاد أو جيران مثلاً أو أصدقاء ويأخذ بحذر من الأعداء، لكنه يضعهم في دائرة الشك والأحقاد والأغراض السياسية أو الذاتية، فرجل مخبرات معادي للأمير عبد القادر ولشعب الجزائر هل يمكن أن يأخذ منه المحقق معلومة صحيحة؟ أما الإنسان المؤمن الذي يخاف الله ويحذر الوقوع في آثام شهادة الزور التي هي من الكبائر في الشرع الإسلامي، حتى ولو كان ذو قرى، فمثل هذا الإنسان ممكن الوثوق بمعلوماته، لأنها صادرة عنه كأمانة وشهادة حق وعلم بقوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"^٢.

هـ. هل كتب الأمير مذكرات في السجن عام ١٨٥١م؟

وهذه قصة غريبة ملفقة لا أصل لها وأشد غرابة من صدقها، ففي عام ١٩٧٠م قدم الكاردينال هنري تيسيه أسقف الجزائر، وجاك شوفالييه الرجل السياسي الذي عاش ودفن في الجزائر قدم مخطوطاً للمكتبة الوطنية في الجزائر، زاعماً أن مالك قصر أمبواز الجديد وجد هذا المخطوط بين أخشاب قديمة في قبو القصر. فالخلطة العجيبة من المعلومات الصحيحة منها والكاذبة في هذا المخطوط والأسلوب العشوائي والركيك

^١ ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير بقلم الأميرة بديعة الحسني، ص: ٢٢٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢٢١.

والكلمات العامة والسوقية في بعض النصوص لا يستحق عناء التمهيص في ما كتب، وبراءة الأمير مما نسب إليه ظلماً وبهتاناً وزوراً^١.

إن بعض الأوروبيين لم ينسوا في يوم من الأيام عداؤهم للإسلام والعرب، لذلك عمد كتابهم إلى محاربة أعدائهم بشتى الطرق ومنها التشويه والتزييف عن طريق الفكر، ومنها تزوير وثائق وتقليد خطوط إلى نسج مذكرات وبرعوا بهذا الفن وجعلوا لأنفسهم أعواناً، حتى من أبناء أمتنا^٢.

و. كتاب حياة عبد القادر ردود على أباطيله:

للمؤلف شارلز هنري تشرشل صدر الكتاب عام ١٨٦٧م في لندن وكانت تشرشل كولونيل عمل على تشويه صورة الأمير بطريقة الغزو الثقافي ولم ينقل بأمانه الكثير مما قاله الأمير له وحاول تشويه الدولة العثمانية، والشعب الجزائري ونضاله وكفاحه ووضع السم في سيرة الأمير عبد القادر وتعمد أن يشوه تاريخه النضالي وكفاحه البطولي ورمزيته الفذة وعمل على إقامة مذبح معنوية لتاريخ العرب والمسلمين الوطني والديني واللغوي والأدبي، وتعمد إزالة هيبة الأبطال الوطنيين والتشكيك في سلوكهم وأقوالهم والسلاح الثقافي أكثر فتكاً من المدفعية والصواريخ وحاول أن يجعل من الناصر المجاهد الأمير عبد القادر مواطن فرنسي معارض ومتمرد على قوانين دولته ونظامها ثم ألقى سلاحه واستسلم بعد الهزيمة، ثم استغفر وندم وتاب، ووقف أمام الدوق دومال وقفة ذليلة يعتذر ويقدم الدليل على تمسكه بعزة وسمعة الوطن الكبير فرنسا، وكان الهدف من كل هذه الأفكار الماكرة والخداعة بعد أن تتقبلها وتؤمن بها الأجيال العربية والإسلامية والجزائرية، هو شل الذهنات وكسر سلاح الجهاد والقضاء على كل محاولة للمقاومة فيها بعد أن تموت روح الثقافة الوطنية الأصيلة والسليمة وقد حاول الكولونيل تشرشل أن يرسخ في أذهان قراء

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

^٢ ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ٢٢٢.

كتابه وقومه هذه المغالطات ويضع السم في الدسم، لتصبح خيالاته التي ألفها من غير دليل هي المرجع والحقيقة التاريخية لدى الكثير من الذين كتبوا عن الأمير بعد ذلك^١.

استطاع أن يلتقي بالأمير عبد القادر ونزل ضيفاً عنده في دمشق وكان يجلس مع الأمير كل يوم ساعة من الزمن يسأله ويكتب ويستفسر ويمده الأمير بالوثائق والمستندات والاتفاقيات الأصلية، ولما نشر كتاب حياة الأمير مجد بطولة الأمير وشخصيته ومواقفه الإنسانية مع الأسرى خلال الحرب وعلى إيمان الأمير بالتقدم والحضارة الغربية وقدم أتباع الأمير كقبليين ومتخلفين وكتب عن ظروف الاعتقال والسجن الذي تعرض له الأمير، ولم يتوان في وصف الحكام والولاة العثمانيين في أسوأ صورهم لتأليب حكومته والعرب عليهم^٢.

. وحاول صاحب كتاب حياة عبد القادر الكولونيل شارلز هنري تشرشل تشويه الشعب الجزائري من خلال حديثه عن فئة صغيرة من الجهلاء لا تخلو منهم أمة من الأمم حتى بلاده نفسها، يريد تشرشل من هذا الشعب إن قام بأي فعل جيد فهو يعود إلى روح الحضارة الأوروبية، وإن استيقظ من غفوته فيعود إلى نور الحضارة الغربية يريد من الأمير عبد القادر سلخ جلده بإرادته واستبدال جلده بآخر أوروبي خالص من أي شائبة عربية إسلامية ويريد منه أيضاً السقوط مطأطئ الرأس في نهاية المطاف أمام عظمة حلفاء بلاده الفرنسيين وأداء الدور الذي رسمه له من خلال هذه الرسائل المزعومة، والحوار الذي وضع فيه بين كل جملة دسياسة رماها هنا وفرية دسها هناك وبكل بساطة أراد أن يقول: استسلمت ورميت بنفسي بين أيديكم وليس أصحابي من رضي بذلك، وإنهم يؤخذوني ولقد جعلتم مني رجلاً خداعاً.. الخ

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٦٧.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

ومن الصفحة ٢٤٤ إلى الصفحة ٢٤٦ حشد تشرشل ما بوسعه من الخيالات في أحلام اليقظة تخيل أن القوات الفرنسية كانت على بعد النظر من موقع الأمير وأن هذا المجاهد الأمير كان لديه ثلاث خيارات آخرها الإستسلام، جعل تشرشل الحقائق التاريخية تتناثر مع الهواء بعد أن عبث فيها وحولها إلى ركام، وهذه الصفحات من كتابه أصبحت نكبة ومأساة حقيقية لأنها تحولت إلى مصدر وثائقي مع الأيام، نراها تدرس في المناهج المدرسية في البلاد العربية والجزائر بصورة خاصة.

. مما تقدم نستطيع أن ندرك أن الضابط البريطاني التجأ إلى خياله لراحة أعصابه وهذوه نفسه أولاً، وثانياً لأهداف بعيدة المدى، فبدل اتفاقية الاستئمان الزمني والهجرة إلى إستسلام أي الخضوع بذل تخيل هذا المجاهد رجلاً بلا عقيدة أو بلا كرامة وتغافل وأدار وجهه عن الكلمة التي قالها الأمير في تلك اللحظة وجملته "المنية ولا الدنية".

أدار وجهه عنها كي لا يراها وأراد من عبد القادر القول بنفسه من خلال رسائل متعددة تخيلها، فهو لا يريد من هذه الاتفاقية إلا ما دار في مخيلته فأراد من عبد القادر لوم نفسه لأنه أخذ هذه التأشيرة ويسب نفسه بكلمات نائية ككلمة "خداع" و"استسلام" كما يريد أيضاً من خلال هذه الرسائل أن يجعل منه منافقاً مهزوز الشخصية لا يملك أي نوع من مشاعر الكرامة، تخيل موقفه استسلاماً يريح أعصابه ويقدم نشوة النصر لحلفاء بلاده^١.

. وفي الصفحات ٢٥٦ وقبلها من الفصل الواحد والعشرين، جعل هذا البطل يجيب الضابط الفرنسي الذي أخذ يواسيه عن جواب حكومته كما يقول بالحرف الواحد: هذا الجواب جعل عبد القادر يسقط إلى الحضيض من اليأس: أراد عبد القادر جواب الضابط الفرنسي، تلك الإجابات كما أسلفت ويجرد نفسه، وليس نفسه فقط من الإيمان، ويصف نفسه بالجهل وإنما يصف حالة النساء وأصحابه بالنحيب واليأس.

^١ ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

أراد أن ينسى هو أيضاً أنه كتب في مقدمته أن عبد القادر يسمى بالحافظ لحفظه القرآن في سن مبكرة، وأنه كان عالماً يدرس في معهد القيطنة في شبابه ولقد ذكر أيضاً في كتابه "حياة عبد القادر" نصف الحقيقة ومع ذلك بمرته وتجاهل ذكر الذين معه وأخوته الذين نشأوا في مزرعة القيطنة التي يملكها أجدادهم ونهلوا من العلوم في معهدها الذي كان من روافد مدارس وهران ومعاهدها وأن استاذهم الأول كان والدهم محيي الدين ثم الإمام محمد بن سعد، وعبد الله سقط والشيخ المجاوي وغيرهم من علماء مدارس وهران وأساتذتها، هذه المعاهد التي كان لها امتداد بجامعة القرويين بفاس وبمسجدها الذي كان منبع الحياة الثقافية والروحية في المغرب والذي كان يفيض بالحيوية والنشاط في ذلك الزمان ومازال، كما يؤكد العلماء والمؤرخون أن جامعة القرويين هي من أقدم جامعات العالم فقد أسست عام ٧٣٩م وكذلك الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس عام ٩٦٣م فالمساجد كانت تعتبر الصروح العلمية وليس فقط أماكن الصلاة وأدخل فيها نظام الجامعات قبل جامعات أوروبا كالسربون وكمبرج وأكسفورد، فإلى جانب إقامة الصلاة كانت تناقش في أروقتها جميع العلوم والسياسة والفقه والاقتصاد في الإسلام وأمور الحكم، وخرجت هذه المساجد علماء شاركوا في صنع الأحداث وأساتذة كبار، وكانت هذه الصروح العلمية والروحية على علاقات مع بعضها، فهؤلاء المجاهدون الذين وقفوا في وجه الاحتلال سبعة عشر عاماً وقفة الند للند كانوا خريجي هذه الصروح العلمية وكان منهم أدباء وشعراء وعلماء في اللغة والفقه والقانون والاقتصاد، يذكر المؤلف أن هؤلاء لم يوقعوا على وثيقة القسم "المزعومة" لأنهم لا يعرفون الكتابة وأنّ المجاهد وحده من وقع على القسم الذي تخيله قسم يجمع الأنبياء وذكر أسماءهم جميعاً، ولكنه نسي أن هذا المجاهد عالم بالدين الإسلامي الذي لا يجوز فيه للمسلم القسم بغير الله عز وجل ثم جعل عبد القادر يصف الفرنسيين بالكرماء وغير ذلك من كلمات النفاق والاستعطاف

والخضوع وإذلال النفس، وهو القائل في الأبيات الذي نظمها والقصائد التي دونت في ديوانه الشهير اقتطفت منها هذه الأبيات:

وابذل يوم الروع نفساً كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمماً

أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزمي طغاة شداداً بأبطالي

فالذي يصف نفسه بالنفس الكريمة، وأنها في السلم أغلى من كل غال وثمين هل يخفضها إلى هذه الدرجة من الهوان والنفاق؟

ولاشك أنه كان يعلم أن أي عدو بالدرجة التي يكره فيها عدوه بالدرجة نفسها يحترم فيه الشجاعة والحفاظ على الكرامة والبعد عن النفاق.

ومن المعروف أن الأمير لم يكن يعيش في أقبية التعذيب الرطبة، وإنما في قصر من قصور الملوك، قصر أمبواز، والأمير كان قائداً لشعب عظيم وقاد ملاحم بطولية في الدفاع عن الدين والوطن، حاول تشرشل أن يجعل من الأمير صورة المهزوم المستسلم الخاضع لعدوه الطالب لعطفه وإحسانه ونسي السيد تشرشل تاريخه قبل الإمارة وبعد الإمارة وحين غدر به ولم ينقل لقارئه الحقيقة من ثبات وصمود وجهاد فالأمير عبد القادر هو القائل:

لنا في كل مكربة مجال

ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول

وخضنا أبحراً ولها زجال

فلا جزع ولا هلع مشين

ومنا الغدر أو كذب مُحال
ورثنا سؤدداً للعرب يبقى
وما تبقى السماء ولا الجبال
ومنا لم يزل في كل عصر
رجال للرجال هم الرجال
لهم هم سمت فوق الثريا
حماة الدين دأبهم النضال
سلوا تخبركم عنا فرنسا
ويصدق إن حكمت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب
به افتخر الزمان ولا يزال^١
وهو القائل في وصف رجاله في إحدى قصائده:
الصادقون الصابرون لدى الوغى
الحاملون لكل ما لم يُحمل
إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً
هم يبتغون قراع كتب الجحفل
ما منهم إلا شجاع قارع
أو بارع في كل فعل مجمل
كم نافسواكم سارعواكم سابقوا
من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربواكم ضاربواكم غالبوا

^١ المصدر نفسه، ص: ١٩٢ - ١٩٦.

أقوى العداة بكثرة وتمول

كم صابروا كم كابروا كم غادروا

أعتى أعاديهم كعصف مؤكل

كم قاتلواكم طاولواكم ما حلوا

من جيش كُفّر بافقام الجحفل

. هذا الرجل الذي يملك هذا التاريخ الحافل بالقيم الشرعية والأعمال البطولية،
يمكن أن يصل إلى الحضيض من اليأس لمجرد أنه تعرض للغدر والخداع من قبل أعداء
خُبِرَ غدرهم لسنوات طويلة؟

هذا الرجل الذي سار على هدي القرآن طيلة حياته منذ أن تفتحت براعم طفولته الذي
يعلم ثواب الصبر، ويعلم أن الإنسان مبتلى وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بهذا
النظام^١.

كيف يمكن أن ينحدر إلى الحضيض من اليأس من كان على علم بمعاني هذه الآية
الكريمة ويؤمن بها وترى عليها، وهو الذي يختم كتاب الله باستمرار، ويمر عليه تأملاً
وتدبراً وفهماً وحفظاً وعملاً، وكم من المرات والمرات مر بقول الله تعالى: "وَلَا تَيَاسُوا مِنْ
رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئِثُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ" (يوسف، آية : ٨٧).
. وقول الله تعالى: "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ
فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" (آل عمران، آية : ١٣٩ .
١٤٠).

. وقول الله تعالى : لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" (الزمر، آية : ٥٣).

. وقول الله تعالى : "وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ" (الحجر، آية : ٥٦).

^١ المصدر نفسه، ص: ١٩٧.

فهل يمكن أن يكون هذا المجاهد الكبير والأمير النبيل والعالم المؤمن عبد القادر جاهلاً بمعاني هذه الآيات وهو الذي ألف كتاباً في سجنه وجعل عنوانه "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد" وأرسله إلى رجال الكنيسة؟ هل كان رجلاً يخشى أحداً سوى ربه؟ ويصفه تشرشل بالمتدين ألا يعلم أن صبر المؤمن انصياعاً لأمر الله وإثارةً للآخرة على الدنيا الفانية، وأن كل ما في الدنيا من عذاب هو هين في سبيل مرضاة الله عز وجل؟

ألا يعلم أن الله سبحانه وتعالى شرع مبدأ الهجرة وجعل لها شروطاً وهي طريق من طرق العذاب والألم؟ وهل هناك عذاب أشد من الغربة؟ وهذه الاتفاقية الأخيرة في الواقع ليست هروباً من الأذى وطلباً للراحة في عكا أو الإسكندرية لأن الهجرة فرضها الله لحفظ كرامة المؤمن، وأمر مسلم به أن هذا العالم ومن معه من الفقهاء يعرفون أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وجوب وجواز وحرمة، والحرمة تكون حينما يصبح المسلم يعيش في ظروف كالتّي يعيشها هو وأصحابه من حصار شديد وتهديد في مثل هذه الظروف أوجبت الشريعة على المسلم الهجرة إن لم يفعل يعد عمله إهمالاً لواجب من الواجبات الشرعية الإسلامية^١.

وحاول تشرشل تشويه الدولة العثمانية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فوصف استقبال الأتراك للأمير عبد القادر بالمظاهر المتصنعة من الاحترام ووصفهم بأنهم على درجة كبيرة من العنجهية وغرباء عن العواطف النبيلة وصب غضبه وحقده على العثمانيين بطريقة تدل على أنه جاسوس يخدم لصالح المخابرات البريطانية التي كانت من ضمن دول أوروبية أخرى تسعى للقضاء على الدولة العثمانية واستخدم الكلمات النابية في هجومه^٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٩٧ - ٢٠٠.

^٢ المصدر، ص: ٢٠٥.

وأطلق خياله العنان وعبقريته الأدبية وبكل ما يحمله قلبه من أحقاد على الدولة العثمانية وكراهية صارخة، ولم يترك المجال أمام القاري ليفهم رأيه من بين السطور وإنما من الأسطر نفسها.

لقد قاده خياله نحو الدرك الأسفل من تزيف الحقائق وشاهدنا مدى جرأته على ذلك بقوله: بالرغم من وجود عبد القادر بين يدي الترك فإنه لم يكن مضطراً أن يكون تابعاً لهم.

وسياقي الحديث مفصلاً عن علاقة الأمير بالدولة العثمانية وسلطينها لاحقاً بإذن الله تعالى ويكفي هنا قول الأمير عبد القادر في بروسة وأهلها:

ألا فافر الخليل خليل باشا
سلاماً طيباً عبقاً نفيساً
له قل يا شقيق الروح عني
على ما هجرت بلدنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر
وتطلع من شمائلكم شمساً
وكنتم لنا بها غيثاً مريعاً
وكهفاً مانعاً ضراً وبؤساً
وكان لنا الزمان بكم ضحوكاً
فصار لنا بفقدكم عبوساً
بمن أعتاض عنك فدتك نفسي
وكنتم بقربكم خرجاً

ولما وصل الأمير إلى بروسة ونظر إلى موقعها وأجوائها قال: لقد صدق من أخبرنا بأنها تشبه مدينة تلمسان ولولا تكرار الزلازل فيها ما أسرع الأمير بالانتقال منها. ولقد نظم الأبيات السابقة فور مغادرتها وهو دليل على سعادته في الإقامة فيها أي في الدار الضخمة التي أمر بها السلطان وهذا رد على مزاعم تشرشل^١ مشوه الحقائق ومزيف التاريخ وخائن الأمانة العلمية.

إن تشرشل في كتابه الذي فقد المصداقية العلمية والمرجعية الحقيقية للباحثين لم ينظر إلى الأمير عبد القادر من رواد الظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين، لأن ذلك يمس بسمعة المحتلين الأوروبيين الذين نشروا الفقر والبؤس في الجزائر^٢.

لقد قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بترجمة كتاب حياة عبد القادر من الإنجليزية إلى العربية وهي ترجمة أولى إلى العربية لم يسبقه إليها أحد صدرت في عام ١٩٨٢م وهي على درجة عالية من الدقة بحيث يستطيع القارئ ملاحظة الحالة النفسية عند المؤلف أثناء سرده للأحداث في كتاب حياة عبد القادر، فإن القارئ أو الباحث سيجد شخصية المؤلف دون قناع وما تحمله في أعماقها من أحقاد موروثه على العرب والمسلمين، وهي سموم منغمة تدفقت بين السطور.

وقد قامت الأميرة بديعة الحسني الجزائري بمناقشة هذا الكتاب في كتابها القيم: ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر الجزائري.

فالخذر كل الخذر من هذا المرجع المسموم الذي كتبه أحد المستشرقين الذين انتموا إلى المدرسة الاستعمارية لخدمة بلادهم عن طريق الغزو الفكري كما ظهر للباحث المنصف.

د. كتابه تحفة الزائر:

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٠٩.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر لمحمد باشا الابن الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري. تناول المؤلف فيه تاريخ الجزائر الجغرافي والسياسي وتاريخ والده وجعله في جزأين، كتب في الأول تاريخ الجزائر ككل وتاريخ والده العسكري وملاحمه البطولية بالتفصيل، وأكثر المعلومات في هذا المجال أخذها من والده أثناء حياته حيث بدأ بتأليف الكتاب، وأخذ أيضاً معلومات من المجاهدين الذين رافقوا والده أثناء المعارك، وقادة الجيش ومن وزرائه أي من خلفائه في المدن الذين لحقوا به إلى دار الهجرة في دمشق ومن أعمامه الذين شاركوا شقيقهم في الجهاد وهم سعيد وأحمد ومصطفى وسُجنوا معه في أمبواز.

وفي الجزء الثاني تناول حياة والده في السجن وتفاصيل أخرى عن زيارة إمبراطور فرنسا له وإطلاق سراحه وذهابه إلى دار الخلافة واختيار مدينة بروسة ثم دمشق.

ولقد كتب الدكتور المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله في موسوعته الجديدة "تاريخ الجزائر الثقافي" أن الوالد هو من مكن ابنه من المعلومات والوثائق العسكرية والتاريخية والعائلية الهامة التي ساعدته على تأليف هذا المخطوط الذي انتهى منه بعد وفاة والده الأمير عبد القادر بسبع سنوات، ولكنه بعد انتهائه سرقت منه النسخة ١، وهذه النسخة بعد أن سُرقت حُرقت وأُنقذ منها الجزء الأول، فجمع المؤلف ما تبقى من المواد حسب قوله في مقدمة الكتاب ثم سلمها إلى ناشر في أحد دور النشر بالإسكندرية عام ١٨٩٨م تقريباً ولقد ذكر الدكتور أبو القاسم أنه عثر على نسخة من هذا الكتاب مهداة إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٠٧هـ، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة عام ١٩٠٣م في القاهرة وجد فروق هامة في بعض التفاصيل بين النسختين.

على أي حال فكتاب "تحفة الزائر" قيم جداً ذكر تفاصيل هامة للمعارك والانتصارات الباهرة التي أحرزها جيش الأمير على القوات الغازية من هذه الملاحم معركة "المقطع"

^١ المصدر نفسه.

وسيدي إبراهيم وعشرات غيرها مما لم يذكرها أحد قبله بهذه الدقة، فكان هذا الكتاب المرجع الأول في اللغة العربية للباحثين^١.

قالت الأميرة بديعة الحسني الجزائري: واثناء دراستي لهذا الكتاب النادر "تحفة الزائر" طبعة الإسكندرية وجدت أن المؤلف أو الناشر والله أعلم قد استعان بمؤلفات أجنبية من أكثرها كتاب "حياة عبد القادر" لهنري تشرشل الضابط البريطاني بعد فقدانه لنسخته الأصلية، وبما أنه كان لا يتقن اللغات سوى العربية والتركية، سلّم ما تبقى من النسخة المسروقة إلى دور نشر قامت بعمليات التنقيح والتحرير والنقل، واكتشفت الكثير من المتناقضات والانسلاخ عن المضمون الذي أراد المؤلف قوله، فدور النشر في مصر في ذلك العصر كانت تمتاز بالجودة ولكنها لم تكن بعيدة عن الهيمنة البريطانية التي لم يكن غزوها لمصر عسكرياً فقط، وإنما كان فكراً أيضاً وهدفها السياسي كان إخراج مصر من عالمها العربي والإسلامي وجعل الشعب المصري سداً بين مشرق العالم العربي وغربه، ومحاولة تجنيد الشباب في الجيش البريطاني لقتال إخوتهم في فلسطين، وفشل مشروعها هذا بعد أن ثارت الصحافة المصرية فانبرت "البلاغ" بالإعراب عن الغضب وكذلك الجمعيات والشعب المصري بأكمله، وأصدر علماء الدين فتوى في ذلك الحين بتكفير كل من ينضم إلى الجيش البريطاني لمحاربة إخوانه في فلسطين^٢.

كما أن دور النشر لم تسلم أيضاً من الغزو الفكري ولو أن محمد باشا قرأ كتابه بتأن واطلع على المزاعم التي دُست في صفحتين من الجزء الأول لطالب بتقديم الناشر إلى القضاء، والله أعلم، ففي كل احتلال غاشم لا بد من وقوع ضحايا وكتاب "تحفة الزائر" من الضحايا، ففي دار النشر ارتكبت الجرائم ضده من دون أن يجد من يدافع عنه أو يحميه من الدس، لأن المؤلف محمد باشا كان في دمشق والظروف السياسية لم تكن

^١ فكر الأمير عبد القادر ص ١١٠.

^٢ المصدر نفسه.

تسمح له بالسفر، فأخذ الناشر المأجور المغرض المسؤول عن الترجمة والتحرير والتنقيح أخذ حريته بانتقاء مدروس من الكتب الأجنبية ما شاء له هواه وبصورة خاصة من كتاب هنري تشرشل^١ الذي تحدثت عنه سابقاً.

إن المدقق والباحث والمطلع على شخصية هذا المجاهد الكبير لا يستطيع التسليم بصحة كل ما كتب عنه في الجزء الثاني من كتاب "تحفة الزائر".

وفي الصفحة الأخيرة من الجزء الأول، إن لم نقل الإنكار الشديد لبعض الألفاظ وليس الوقائع فالأحداث كلها صحيحة لا ريب، ولكن الاستنكار للألفاظ والتحريف والتأويل الخاطيء من حذف وإضافات مغرضة منها مثلاً ما جاء في أسئلة الجنرال دوماس صفحة ١٧٨ من التحفة السؤال الثالث عشر، وجواب الأمير عليها في موضوع تعليم النساء، فإذا حذف كلمة لكن وحذف لا من الجملة "لكن شرع الإسلام لا ينهي عن تعليم النساء الكتابة" وهو أمر بغاية السهولة، فنجد أن المعنى كله قد تغير، فيصبح جواب الأمير بعد هذا الحذف "شرع الإسلام ينهي عن تعليم النساء الكتابة"، فالسائل ضابط فرنسي خاض معارك دامية ضد الأمير سنين طويلة في الجزائر وتعلم اللغة العربية ودرس التاريخ الإسلامي عن طريق مؤلفات المستشرقين وعدد كبير من أمثاله درسوا التاريخ الإسلامي وسير العظماء وساروا وراء أحقادهم واندفعوا وراء أوهامهم أرادوها حقائق في ديننا وتاريخ أمتنا وسير أبطالنا^٢.

٢. تلاميذ الأمير عبد القادر:

تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير من الشباب تأثروا بسيرته الجهادية وبعلمه وأدبه ومنهجهم وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج وطوروه واتسعوا به ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

^١ فكر الأمير عبد القادر، ص: ١١.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٣٠.

أ. عبد الرزاق البيطار المولود عام ١٨٣٧م والذي بات من علماء الشام المشهورين حتى وفاته عام ١٩١٦م رحم الله الشيخ الداعية المجاهد عبد الرزاق السلفي العقيدة الذي لم تأخذه لومة لائم لحظة في إبانة الحق، ولم يصده عتب عاتب ولا قومة قائم، الصانع بالحق، المنكر على أصحاب الخرافات من المتصوفة ولقي في سبيل ذلك عنتاً كبيراً من الجاحدين ويكفيه فخراً هو كذلك أن تخرج على يديه علامة الشام وفقهها السلفي الكبير جمال الدين القاسمي المولود عام ١٨٦٦م والمتوفى عام ١٩١٤م.

ب. الطاهر الجزائري ابن الشيخ صالح السمعوني الذي ولد عام ١٨٥٢م وتوفي عام ١٩٢٠م وأصبح بجلته من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره وانشأ مع الأمير دار الكتب الظاهرية، والمكتبة الخالدية في القدس وله عشرين مصنف وأصبح من أعضاء المجمع العلمي العربي.

ج. الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي وهو من أقران العلماء، ولازم الأمير منذ قدم دمشق من مواليد ١٨٠٧م وتوفي ١٨٨١م كان عالماً فاضلاً من فقهاء الحنفية وله تأليف عديدة، وكان يكره البدع والأوهام والخرافات التي أدخلت على الدين ظلماً وعدواناً^١.

د. شهادة العلماء في الأمير وصلته بزعماء الإصلاح:

شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عlish وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عlish، والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد بهجة البيطار والعلامة جمال الدين القاسمي، ومفتي الحنابلة الشيخ محمد جميل الشطي، وآخرون كثر شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام وأشادوا بحرصه على إقامة أحكام الشريعة وحدودها وسعيه الحثيث لنشر علوم الدين، كما كان للأمير دور كبير في إحياء وتحديد فريضة الجهاد ورفع رايته إلى جانب بعث علوم الحديث النبوي الشريف

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨١.

ونشرها والحث على العمل بها والسعي في القضاء على البدع ونبذ التقليد الأعمى الممقوت والدعوة إلى إستعمال العقل والنظر في فهم ونشر مختلف العلوم^١. فالعقل مناط التكليف ومحور الثواب وأساس النقل، ولا تعارض بين العقل والنقل ولا يمكن للإنسان المخلوق في هذا الكون أن يدرك بعقله وبنظرياته وفلسفاته أسرار الحياة والكون ووجوده وخباياه وبداية خلقه والسبب من ذلك وفناه بالعقل وحده، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة في الله والملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزل^٢، والقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وأما عن علاقة الأمير بزعماء الإصلاح والتجديد، فقد كان مواكباً للتطورات التي حدثت في عهده وتواصل مع شخصيات إسلامية لها مكانتها في الجهاد والإصلاح أمثال الشيخ كامل الداغستاني، وخير الدين التونسي، والشيخ محمد عبده الذي يبدو أنه جالس الأمير عدة مرات عندما كان الشيخ منفياً في بيروت، ولا شك أن الشيخ محمد عبده تحدث مع الأمير عن التجديد والإصلاح، وعن جمال الدين الأفغاني وجمعية العروة الوثقى.

وأما ميل الأمير للإصلاح الإسلامي فيظهر في الرسائل المتبادلة بينه وبين خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب "أقوم المسالك" فقد أهدى خير الدين كتابه إلى الأمير عبد القادر، فقرأه وأعجب بمحتواه وآراء صاحبه، ثم وجه خطاب شكر وأعجاب إلى خير الدين، والعبارات التي وردت في هذا الخطاب تصور رأي الأمير في مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين، فبعد أن عبر له عن شكره لدفاعه عن الشريعة الإسلامية وصلاحياتها للحكم لكل زمان ومكان قال: وقد اطلعنا على "أقوم المسالك" فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الدهول من قضايا المعقول، فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه،

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٨٣.

كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار.. يزرى بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته مرتع ناظري، ومتنّش خاطري ولا يخفى أن لكل عصر رجال يقومون بأعبائه ويهيّمون في أودية أنبيائه.. فلله درك ودر ما به ألمعت وما قربت من فنون المعارف وبعدت، ثم إنك حميت ضمّار الشرع المحمدي وعصّدته، وقطعت عنه ضرر الملّحين وخصّدته. ورغم هذا السجع والعناية بالبديع فإن رأى الأمير يتلخص في الإعجاب بالكتاب للأسباب التالية:

. دفاع صاحبه عن صلاحية الشريعة الإسلامية للحكم في كل زمان ومكان.

. اهتمامه بقضايا المعقول والمنقول، وفنون المعارف العصرية والإشارة إلى أن لكل عصر رجالاً يقومون به بدور الدعاة إلى الله.

. كونه كتاباً نادراً في أخبار الملوك وأفاضل الزمان . مسلمين وأوروبيين . لذلك اتخذ الأمير متنّش خاطره وهو تعبّر لماح وكاشف عما نحن بصددده^١.

٣. علاقة الأمير بكتب ابن عربي وأفكاره:

أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير عبد القادر ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية، ومن أبرز هؤلاء البشر: الشيخ محمود الأرناؤوطي ومحمد الخاني وضموا إلى كلام الأمير ومراسلاته ووضعوا بعد وفاته بسنين عديدة في عام ١٩١١م وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير، ومما جاء فيه عن كتاب المواقف الموصوف بالثمين العظيم الجليل وأنه كتب بالنور على نحور الحور ونسبوا إليه من العقائد التي تثبت كتابه ورسائله ومواقفه أنه لا علاقة بالأمير عبد القادر بها لا من قريب ولا بعيد وهذا العمل

^١ حياة الأمير عبد القادر تقديم أبو القاسم سعد الله، ص: ١٥.

ليس غريباً في تاريخ البشرية، فقد عظم المسيحيون سيدنا عيسى عليه السلام حتى ألهوه، وزاد ونسب بعض المسلمين الذين لا يخافون الله إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الآف الأحاديث الموضوعة، إما افتراء عليه أو محتجين بالدعوة والانتصار لدينه، أيعقل للباحث والمنصف والساعي للحقيقة المجردة أن يقول مسلم سني ملتزم مثل الأمير عبد القادر يدرس في مجالسه وفي داره وفي الجامع الأموي ودار الحديث النووي في المدرسة الجقمقية وفي ندواته العلمية يغترف من تفسير القرآن الكريم لابن كثير ويعطي الإجازات في صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك يقول أن البشر الذي خلق من ماء مهين قد يتأله وبإمكانية أن يصبح الإمام والله واحد؟ أيجمع الإنسان ويحل لكونه خليفة الله في الأرض؟ أو يفسر القرآن الكريم وأحاديث شريفة خلافاً لما ذكره السلف الصالح وأهل السنة والجماعة وضوابط وقواعد التفسير التي حددها علماء وفقهاء الشريعة؟ وقد رأينا اهتمامه بالعلماء ومراجعة كبارهم في المسائل والنوازل التي يمر بها في حياته باحثاً عن حكم الشريعة، فراسل علماء القرويين بالمغرب والأزهر بمصر.

إن الدراسات العلمية الدقيقة المتجردة في حياة الأمير والتي عشت معها بتمعن وأخذت مني الوقت الكثير وصاحبه خلال البحث في أسفاره وإقامته وفرحه وحزنه في المعارك وفي حلقات العلم وفي أماكن العبادة ومع القرآن الكريم وفي ندواته العلمية الجزائرية والشامية والتركية . تدل على أنه أبعد الناس عن المعتقدات الفاسدة والمتصوف المنحرف وعندما سئل عن عقيدته في الكرامات والوسطاء أجاب: إن ثقتي في الله وحده^١.

إن اتهام الأمير بتأثره بالعقائد المنسوبة والمتهم بها ابن عربي من وحدة الوجود والاتحاد والحلول اتهامات باطلة، فوحدة الوجود تعني . بأوجز عبارة: إن الله تعالى والعالم شيء واحد فوجود المخلوق هو وجود الخالق^٢، ومعنى الحلول والاتحاد اصطلاحاً: الحلول والاتحاد عقيدتان نشأتا في بعض الأديان الوثنية والفلسفات القديمة، وظهرتا على وجه

^١ المصدر نفسه، ص: ١٦.

^٢ مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٨٠، ١١٢، ١٤٠، ١٤١).

الخصوص بين النصارى الذين حرفوا دين الله وألهوا المسيح عليه السلام حيث ادّعوا حلول الله أو اتحاد به، كما ظهرت في العالم الإسلامي عند بعض غلاة الطوائف وبخاصة بعض الفرق المظهرة للتشيع الزاعمة حلول الله تعالى أو اتحاد بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أو بعض ذريته^١، فالحلول - عند من يعتقد - : هو نزول الذات الإلهية في الذات البشرية ودخوله فيها، فيكون المخلوق ظرفاً للخالق بزعمهم^٢.
والإتحاد - عند من يعتقد - : هو اختلاط وامتزاج الخالق بالمخلوق فيكونا بعد الاتحاد ذاتاً واحدة^٣.

وحقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله ليس وجودها غيره وليس شيء سواه البتة^٤.

فالخالق هو المخلوق والمعبود هو العابد والناكح هو المنكوح والله عندهم - عين الخنازير والكلاب والكفار تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً^٥.

وخلاصة الفرق بين الحلول والإتحاد:

١. أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.
٢. أن الحلول يقبل الانفصال أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال^٦.
- ومن أعظم العقائد المنسوبة لابن عربي قوله بوحدة الوجود، وهي أن الله تعالى والعالم شيء واحد وأن الله عين وجود الكائنات، فكل ما تراه فهو الله^٧.
- وهذه العقيدة فاسدة وباطلة ولا يمكن لشخص اعتنق عقائد القرآن الكريم وما ثبت عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد هذه الأباطيل:

^١ ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه د. دغش العاجي، ص: ٣١.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٣٢.

^٣ المصدر نفسه، ص: ٣٢.

^٤ المصدر نفسه، ص: ٣٢.

^٥ المصدر نفسه، ص: ٣٢.

^٦ المصدر نفسه، ص: ٣٥.

^٧ المصدر نفسه ص: ٣٥.

. فقد دلت النصوص الشرعية الكثيرة على أن الله تعالى هو خالق الكائنات ومصورها وموجدتها من العدم، قال تعالى : " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ " (الزمر، آية : ٦٢).
وقال تعالى : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ " (الأنعام ، آية : ١).
وغيرها كثير تثبت أن الله الخالق وثبت أن الوجود ليس واحداً، بل فيه خالق ومخلوق ورب ومربوب.

. ودلت النصوص الشرعية على أن الله عز وجل . هو المالك الملك الذي له الملك التام، قال تعالى : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (الملك، آية : ١).
وقال تعالى : " أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " (البقرة، آية : ١٠٧). فالله مالك المخلوقات.
. كما دلت الأدلة على أن الله هو المحيي والمميت يهب الحياة لمن يشاء ويسلبها عمن يشاء، قال تعالى : " وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ " (الحج، آية : ٦٦).

وثمة غير الله وهو المخلوق الذي يموت ويحيا.
. وأمر الله بعبادته وحده لا شريك له فقال : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ " (البقرة، آية : ٢١).

وأخبر سبحانه أنه ما خلقنا إلا لعبادته فقال : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (الذاريات، آية : ٥٦).

وما أرسل من رسول إلا لهذا الأمر، قال تعالى : " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ " (النحل، آية : ٣٦).

فهذه النصوص وغيرها كثير . تدل على أن هناك عابداً ومعبوداً.

. نهي الله سبحانه وتعالى عن الشرك أشد النهي وحذر منه أشد التحذير، وأخبر أن صاحبه محرم على الجنة وأنه خالد مخلد في النار، وأنه لن يغفر لمن مات عليه، قال سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا" (النساء، آية : ٤٨).

وقال تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ" (المائدة، آية : ٧٢).

فهذه النصوص تدل على أن هناك غيراً يجعله بعض الناس شريكاً لله تعالى ولو كان الوجود واحداً كما يقول أصحاب وحدة الوجود لكان الشرك الأكبر هو عين التوحيد الخالص ولكان الذين عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار والملائكة ما عبدوا إلا الله لكون هذه المعبودات مظاهر لذلك الوجود الواحد كما نص عليه أصحاب وحدة الوجود^١.

وقد أخبر الله تعالى أن المشركين عبدوا غيره، قال تعالى: "قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر، آية : ٦٤ ، ٦٥).

وأخبر بوجود المشركين فقال: "ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ٦٤).

وأمر نبيه أن يتبرأ من المشركين فقال: "قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ١٩).

وبذلك أمر أنبياءه فقال هود عليه السلام لما قال له قومه: "إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ" فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ "إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَلَيْ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" (هود، آية : ٥٤).

^١ المصدر السابق، ص: ٥٣-٥٦.

ونزه الله . جل في علاه . نفسه عن الشرك وأهله فقال : " فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " (الأعراف، آية : ١٩٠).

وقال : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " (التوبة، آية : ٣١).

وكان الرسل ينهون عن عبادة مظاهر الوجود ويجعلون ما عبده المشركون غيراً لله، ويجعلون عابده مشركاً بالله جاعلاً له نداً، وكان يُبَيِّنون بطلان عبادة تلك المعبودات والآيات في ذلك كثيرة جداً.

والرسل هم أعلم الخلق بالله فلو كانت المعبودات هي الله لما نُهوا عن عبادتها، فدل ذلك على أنها غير الله فثبتت الغيرية وبطلت وحدة الوجود^١.

. ونزه الله نفسه عن مماثلة المخلوقات وعن كل عيب ونقص، فقال تعالى : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " (الشورى، آية : ١١).

وقال سبحانه : " لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ " (البقرة، آية : ٢٥٥).

وقال عز وجل : " لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى " (طه، آية : ٥٢).

وقال سبحانه وتعالى : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " (الإخلاص، آية : ١ - ٤).

فدلت هذه النصوص ونحوها على أن الله لا يُماثل المخلوقات ولا يتصف بصفات النقائص، ونحن نشاهد الكائنات ٢ متصفة بصفات النقائص كالنوم والنعاس والضلال والنسيان والموت والفقر.. الخ وثبت أن النقائص صفات لغيره فانتفت الوحدة وبطلت.

. كما دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أن الله موصوف بعلو الذات، قال تعالى : " يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ " (النحل، آية : ٥٠).

وقال سبحانه وتعالى : " أَلَمْ تَأْتُوا اللَّهَ مَنًّا فِي السَّمَاءِ " (الملك، آية : ١٦).

^١ ابن عربي عقيدته د. دغش العاجي، ص: ٥٣. ٥٧.

^٢ درء التعارض (٦ / ٧٧).

وقال جلا وعلا: "تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ" (المعارج، آية : ٤).
وقال تعالى: "وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ" (الأنبياء، آية : ١٩).

فهذه النصوص تدل على أن هناك خلقاً وخالقاً، وأن الخالق تعالى على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم فبطل بهذا كون الوجود واحداً لأنه لو كان كذلك لما وصف الله نفسه بالعلو.

. والقول بوحدة الوجود إنسلاخ من الشريعة لأن من البديهييات أن من يرى أن ذات الإله حلت فيه أو اتحد هو بها، وأن الخالق هو المخلوق من البديهييات أنه لا يرى نفسه موضعاً للتكاليف الشريعة، لأن التكليف ملازم للعبودية وأما وقد صار العبد رباً فلا تكليف مع الربوبية^١.

قال ابن تيمية: ولهذا يظهر فيهم من إهمال العبادات والأوراد والأذكار والدعوات ما لا يظهر في اليهود والنصارى ومن سلك منهم مسلك العبادات فإن لم يهده الله إلى حقيقة دين الإسلام وإلا صار في آخر أمره ملحد من الملاحدة من جنس ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما^٢.

وقال . رحمه الله . ولهذا يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم الذين لم يشهدوا أنه حقيقة الكون، فمن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الأمر؟ ومن المأمور^٣.

. كما أنهم يتجرؤون على مقارفة النواهي الشرعية بما في ذلك الكفر بالله والسجود لغيره والاستهزاء بالشرع والطعن في الدين وغير ذلك.

^١ المصدر السابق، ص: ٦٣ ، ٦٤ .

^٢ المصدر نفسه.

^٣ مجموع الفتاوى (٢ / ٨٢).

وقال ابن تيمية في التلمساني : وهو كان أعرفهم بقولهم وأكملهم تحقيقاً له، ولهذا خرج إلى الإباحة والفجور وكان لا يُحرم الفواحش ولا المنكرات ولا الكفر والفسوق والعصيان^١.

إن الأمير عبد القادر الجزائري ليس من عقيدة وحدة الوجود في شيء بدليل سيرته وكتبه ومقاتله وقد بينا بطلان ما نسب إليه من كتب في التصوف المنحرف "المواقف" وإنما أراد أصحاب هذه الاعتقادات الاستفادة من شهرته ومحبة الناس له.

كما أن الشعر المذكور في هذا الكتاب المزعوم إلا دليل إضافي على أن الكتاب ليس من تأليفه، فأبياته جلها مختلفة في وزنها تميزت باضطرابات عروضية تجاوزت في بعض الأحيان حتى ما أتاحه العرضيون الشعراء وعدوه شاذاً، فضلاً عن تهويمات وأذكار صوفية لا تدخل في الشعر كما أن أغلب الأبيات والقصائد الواردة هي قريبة من النظم أكثرها منها إلى الشعر في تفعيلاتها المعروفة عند الشعراء، فأكثر هذه النصوص لا يدخل في الشعر، فهو ليس إلا أذكراً وتسبيحات ونجوى على مذهب القوم، أو إيماءات وتعايير متوسل بها في شطحة من شطحات الفرق الصوفية أسمع معي إلى بعض ما ورد في الكتاب المزعوم، وأحكم وزن بعقلك وإيمانك على هذه العبارات بميزات العقيدة والشرع:

أمطنا الحجاب فأنمحي غيهب السوى

وزال أنا وأنت وهو فلا لبس

ولم يبق غيرنا وما كان غيرنا

أنا الساقى والمسقى والخمر والكاس

تجمعت الاضداد في وأنني

أنا الواحد الكثير والنوع والجنس

^١ ابن عربي عقيدته، ص: ٦٦.

فلا تحتجب بما ترى متكثرًا
فما هو إلا شخصنا النزه القدس

ومن الأبيات الباطلة التي نسبت إلى الأمير في كتاب المواقف:

أنا العابد المعبود من كل صورة
فكنت أنا رباً وكنت عبداً
فطوراً تراني مسلماً أي مسلم
زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مدا
وطوراً تراني للكنائس مسرعاً
وفي وسطي الزنار احكمته شدا
أقول باسم قال الباحث والأب
وبالروح روح القدس قصدا ولا كيدا
وطوراً بمدارس اليهود مدرساً
اقرر توراه وأبدي لهم رشد^١

لا حول ولا قوة إلا بالله، أليس قائل هذه الأبيات إلا أن يحدد ويصحح عقيدته، لقد
تعمد بعض الناس تشويه حقيقة عقيدة وفكر الأمير عبد القادر، وفي أيامنا هذه نرى
رأي العين كيف يعمد المفسدون إلى رجل من المشاهير الذين نعاصرهم ونشهد لهم بالخير
فيشوهون صورته أمام الناس وينسبون إليه الأباطيل حتى يسقط من أعين الناس،

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٩.

ويعمدون إلى رجل وضع خسيس فيرسمون له صورة زائفة ويزينونها للناس حتى يظنوا أنهم
أنهم أمام رجل عظيم وصدق القائل:

نظرت بحال الحاضرين فرايتني

فكيف بحال الغابرين أصدق^١

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة واختلقوا له الأكاذيب
وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف وزوّروا عليه رسائل ومعاهدات
سخيفة ومخزية وزعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوروا عليه
رسالة بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، ولم
يكتفوا بذلك بل أسرعوا فور وفاته لتزوير كتاب عليه وهو كتاب المواقف في الوعظ
والإرشاد وضمّنوه كلاماً يجعل الأمير يسقط عند الناس باعتباره الإسلامي والإيماني أيضاً،
فلا يبقى شيء يصلح لاتخاذ قدوة ولكن الله أبلّ إلا أن يخرج الحق للناس.

إن الأمور التي تبين بطلان ما نسب للأمير من الأمور المنكرة كثيرة منها:

أ . تقرير الخبرة الفنية الذي كتبه الاستاذ الغراوي الخبير المحلف بشؤون الوثائق لدى وزارة
العدل السورية من ١٩٥٢ . ١٩٧٩ م والذي أثبت فيه أن المخطوطات الخاصة بكتاب
المواقف والتي كتب عليها إنها بخط الأمير هي ليست بخطه قطعاً وكذلك الوثائق
العسكرية التي تروج لها بعض الكتب الفرنسية، هي أيضاً ليست بخط يده بل مزورة عليه
والتزوير مفتضح لكل متأمل.

ب . إن الأمير عبد القادر لم يذكر أنه ألف كتاب المواقف ولا غيره ولم يشير إلى ذلك لا
في أشعاره ولا في رسائله.

^١ الأمير عبد القادر فكره وحياته، ص: ٢٥٩.

ت . إن الأمير عبد القادر كان قائداً عسكرياً وحاكماً وقاضياً وسياسياً وأمضى عمره على صهوات الخيل مجاهداً ثم المنفى ثم متنقلاً بين الإستانة وبورصة ودمشق ولم يكن عنده من الوقت ما يسمح لتأليف كتاب ضخيم ككتاب المواقف الذي يقع في أكثر من خمسمائة وألف صفحة.

ن . لم يذكر أحد ممن كان يحضر مجالس الأمير عبد القادر الخاصة أو دروسه العامة في الجامع الأموي، أن للأمير كتاباً اسمه المواقف.

ج . إن المقربين من الأمير عبد القادر من علماء عائلته كابن أخيه السيد عبد الباقي الحسني وكان مفتي المالكية بدمشق وهو جد والد الدكتور خلدون بن مكّي بن عبد المجيد بن عبد الباقي الحسني، وابن أخيه الثاني السيد محيي الدين الحسني وهو جد السيدة بدیعة، وهما صهره أيضاً وكانا ملازمين للأمير، ولم يسمعا أبداً الأمير يتحدث عن هذا الكتاب ولم يسمعا منه كلاماً يوافق الكلام الموجود في كتاب "المواقف" بل على العكس كان كلامه لآخر لحظة من حياته مخالفاً لما في المواقف من العقائد الباطلة، وليس في أسرة الأمير من يقول بتلك العقائد لا في أبنائه ولا في أحفاده، بل ورثوا عنه العلم الصحيح والعقائد الواضحة السليمة.

ح . إن الأمير عبد القادر ولآخر يوم من حياته كان يدرس في الجامع الأموي بدمشق صحيح البخاري، وموطأ مالك، ورسالة أبي زيد القيرواني ويشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب "المواقف" فكيف يكون مدرس هذه الكتب وكاتب كتاب المواقف شخصاً واحداً؟ مع هذا التناقض الكبير بين الإيمان والكفر^١.

كان الأمير يشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وهذه العقائد التي أشاد بها الأمير وصفها مؤلفها ابن أبي زيد القيرواني بأنها: جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٦٣.

تنطق به الألسنة وتعتقد القلوب، وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب من ذلك السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقيين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته^١.

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفعدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك، ليس لولايته ابتداء ولا لآخرته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ما هية ذاته، ولا يحيطون بعلمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى. لم يزل بجميع أسمائه وصفاته تعالى أن يكون صفاته مخلوقاته وأسمائه محدثة. كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه وتجلي للجبل فصار دكاً من جلاله.

^١ شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ٩.

وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفذ.

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قدره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فيجري على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به : " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (الملك، آية : ١٤).

يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله فكل ميسر تسييره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق كل شيء هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم الباعث الرسل فيهم لإقامة الحججة عليهم، ثم ختم الرسالة والنبوة بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون.

وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " (النساء، آية : ٤٨).

ومن عاقبه الله بناره أخرجها منها بإيمانه فأدخله به جنتين : " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ " (الزلزلة، آية : ٧).

ويخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم من شفع له من أهل الكبائر من أمته، وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق من سابق علمه.

وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والمملك صفاء لعرض الأمم وحسابهم،

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد : " فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الأعراف، آية : ٨). ويؤتون صحائفهم في أعمالهم.

وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم ف ناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليهم من نار جهنم وقوم أبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمتة لا يظماً من شرب منه ويزاد عنه من بدل وغير وأن الإيمان بحوض باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة لا يكمل قول الإيمان إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين. وأن المؤمنين يفتنون من قبورهم ويسألون : " يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ " (إبراهيم، آية : ٢٧).

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم واتباع السلف الصالح واقتضاء آثارهم والاستغفار لهم وترك

المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً^١.

هذه العقيدة السنية البهية كان الأمير عبد القادر يشيد بها ويحث عليها في حلقاته ودروسه وندواته وتدريبه في المسجد الأموي.

خ . لم يذكر أحد من العلماء المعصرين للأمير عبد القادر رحمه الله صحة نسبة كتاب المواقف إليه.

هـ . هناك من يقول إن الأمير قد أوصى أن يدفن بجوار قبر الشيخ ابن عربي، وهذا دليل على أنه كان يتبنى عقائده ومن ثم فهو مؤلف كتاب المواقف، وهذا غير صحيح لأن الأمير عبد القادر لم يوص قط بذلك، بل إنه اشترى أرضاً بطرف مقبرة الدحداح ليدفن فيها وأوقفها على ذريته ليدفنوا جميعهم وبجواره ولكن بعض مشايخ دمشق هم الذين أصرّوا على دفنه بجوار ابن عربي ظناً منهم أنهم يسدون إلى الأمير معروفاً وأما ذرية الأمير فما زالت تُدفن في مقبرة الأمير في الدحداح، إلى أن استولى عليها مكتب دفن الموتى والأوقاف.

د . كل من ذكر أن للأمير كتاباً اسمه المواقف مثل الشيخ محمد جميل الشطي في كتابه "أعيان دمشق" نقل ذلك من كتاب تحفة الزائر لمؤلفه محمد باشا الأبن الأكبر للأمير عبد القادر ونحن نعلم أن كتاب "تحفة الزائر" كتبه محمد باشا في حياة والده الأمير ثم حُرق الكتاب كله بعد وفاة الأمير وضاع وحاول محمد باشا إعادة كتابته وأعانه بعضهم في ذلك فكان نتيجة ذلك ولرجوع الناشر إلى مصادر أجنبية غير دقيقة أن شمل كتاب "تحفة الزائر" الكثير من الأحداث المغلوطة ودخل فيه ما كان يزوره المزورون ويدسه المبطلون، فلا يمكن الاعتماد على ما فيه وخصوصاً نسبة كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر بعد ذكر كل الأمور التي تنفي عن الأمير هذا الكتاب.

^١ شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ١٦، ١٧، ١٨.

س . طبع كتاب الموافق بعد وفاة الأمير بثمان وعشرين سنة في القاهرة وكل المخطوطات الموجودة هناك وفي المكتبة الظاهرية بدمشق يقول ناسخها إنه نقلها عن المخطوطة الأصلية، ولم يكتب على أية مخطوطة اسم ناسخها بل يذكر دائماً أن كاتبها مجهول أو لا يعرف والمخطوطة الأصلية ليست بخط الأمير بل مزورة عليه، فكيف نصدق المجهولين وكيف نقبل سنداً لكتاب معلول بعلة كثيرة الإنقطاع والجهالة والكذب والمخاطبة؟ وصدق القائل:

هل صح قول من الحاكي فنقبله

أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب

والعقل غرس له بالصدق إثماراً^١

كان الأمير عبد القادر كعالم من علماء عصره أطلع على كتب ابن عربي ومنها الفتوحات المكية ووجد في إحدى نسخه تناقضات كثيرة، فظن أن شيئاً من التشويه والتحريف طال هذا الكتاب، فحاول التحقيق للوصول للحقيقة عن طريق النظر في النسخ الأصلية، لا أن يعتمد أكاذيب وأفكار متناقضة لا مرجع لها ولا أصل وهذا ليس جديداً فقد برأ الشيخ سراج الدين البلقيني المتوفى عام ٨٠٥هـ بعد بحث مستفيض برأ الشيخ ابن عربي من القول بالحلول والاتحاد واعتبر العلامة جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١هـ أن هناك دس مفضوح في آثار الشيخ ابن عربي كتب رسالة أهمها تنبيه الغبي

^١ المصدر السابق.

في تبرئة ابن عربي، بيّن فيها على حد اجتهاده منهج الشيخ الذي لم يكن يحيد عن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الأمير عبد القادر في دروسه يصحح وينفي عن الشيخ ابن عربي بالدليل والتحقيق، كتب نُسبت إليه وخارجة عن العقيدة الإسلامية مثل كتاب النعمانية والفصوص والفتاوى وكتاب الجفر، فبيّن أنها من أناس أعداء للحق وبالرغم من هذا الاهتمام والتحقيق بكتب ابن عربي وبيان المخلتق والمنسوب إليه من خلال البحث العلمي، فإن اهتمامه بهذه الكتب ضئيلاً جداً أمام اهتمامه بعلوم القرآن والسنة النبوية ومنهج أهل السنة ولا يوجد دليل على أن الأمير عبد القادر عقيدته عقيدة ابن عربي وأنه يوافقه على كل الأفكار والتفاسير التي دونت في كتبه، كما أن الأمير لم يترك أية وصية لطبع كتب الشيخ ابن عربي والدليل على ذلك مادياً وليس عقلياً فقط، فقد كتب وصية في حياته وأودعها المحكمة الشرعية بدمشق تحت رقم ٧٥٦ ورقمت الوثيقة بعد ذلك تحت رقم ٢٥٦ هذه الوصية فتحت بتاريخ الثاني عشر من شعبان ١٣٠٠هـ أي في شهر جوان ١٨٨٣م بعد وفاته بثلاثة أسابيع حسب الأصول المتعارف عليها، ولم يكن فيها أي ذكر لكتاب الموافق المزعوم، أو أي شيء مادي أو عملي يتعلق بتخصيص المال لطباعة كتاب أو غير ذلك، بل كان ما في الوصية هو تخصيص أموال معتبرة من إرثه للفقراء والمساكين ولنسائه ولأولاده^١.

إن ابن عربي شخصية جدلية بامتياز فكثير من العلماء ذكره بسوء واعتبروا الكتب المنسوبة إليه والتي تحتوي على عقيدة وحدة الوجود والعقائد الباطلة. هي كتبه وهناك من كان له أكثر من رأي في الموضوع والعلماء الذين أنكروا على ابن عربي كلامه في "الفصوص" و"الفتوحات المكية" اعتبروها كتبه وقد ذكر منهم الدكتور دغش بن شبيب العجمي في كتابه "ابن عربي عقيدته وموقف علماء المسلمين منه من القرن السادس إلى

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

القرن الثالث عشر" ذكر أكثر من مائتي عالم كلهم يثبت كلامه في الفصوص والفتوحات المكية لم يشيروا إلى أن شيئاً مما ذكره مدسوس عليه لاسيما مع قرب عهد كثير منهم بابن عربي ومعاصرة بعضهم له، با إثم أنكروا على من أنكر نسبة هذين الكتابين له أو زعم أنه قد دُس فيهما ما لم تخطه يمين مؤلفهما ١.

ويبدو أن العلامة البلقيني ٨٠٥هـ استقر في فتواه في ابن عربي: لا يجوز لأحد أن يعتقد في المذكور ولا يُثني عليه ولا يُحسن الظن به، لاستفاضة عقائده القبائح، وما ظهر عليه من الفضائح في "فصوصه" الزغل كم دسّ فيها من دغل وسم وزلل وفي "الفتوحات الهلكية" التي سماها "الفتوحات المكية" وفي غير مما اشتهر عنه من أردى المسالك، وقد أخبر عنه من يرجع إليه من العلماء الأعلام المشهورين بين الأنام بزندقته وسوء طريقته ٢.

وهذا ابن تيمية يقول: وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لما رأيت في كتبه من الفوائد .. ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع الفصوص ونحوه وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا ٣.

وحاول بعض الناس أن يظهرها بمظهر العلماء المعتبرين وتصوفه صورة التصوف المبني على الزهد والإعراض عن الدنيا وأنه النموذج الذي يجب أن يحتذى وأكثر العلماء الذين أثنوا على ابن عربي لم يطلعوا على كتبه، بل لم يروها سيما من كان معصراً له ٤. وهناك بعض العلماء من أثني ابن عربي لم يطلع على كتبه ولم يعرف حقيقة مذهبه، ولكن بلغه ما يتناقله أصحابه من نسبته للزهد والورع والكرامات وغير ذلك، فأثنى عليه بناء

^١ ابن عربي عقيدته د. دغش العاجي، ص: ٧٧٤.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٧٧٥.

^٣ الفتاوى (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥).

^٤ ابن عربي عقيدته ومواقف علماء المسلمين منه، ص: ٧٧٩.

على ذلك فمثل هذا يُعرف بحقيقة ابن عربي، ويوقف على كلامه من كتبه حتى يرجع عن ثنائه ومدحه ١.

وقال الحافظ تقي الدين الفاسي "ت: ٨٣٢هـ": وأما من أثنى عليه فلفضله وزهده وإيثاره في العبادة، وأشتهر ذلك عنه حتى عرفه جماعة من الصالحين عصرًا بعد عصر، فأثنوا عليه بهذا الاعتبار، ولم يعرفوا ما في كلامه من المنكرات، لاستغلام عنها بالعبادات، والنظر في غير ذلك من كتب القوم، لكونهم أقرب لفهمهم مع ما وفقهم الله تعالى من حسن الظن بآحاد المسلمين فكيف بابن عربي؟ وقد بان بما ذكرناه سبب ذم الناس لابن عربي ومدحه ٢.

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا الحلول ولا الاتحاد بل كانت عقيدته سنية صافية بهية ومال إلى القول بأن ما كتب في الكتب المنسوبة لابن عربي من عقائد فاسدة فهو من الأباطيل المنسوبة إليه، إن الأمير عبد القادر اشتهر بالتقوى والخوف من الله والإيمان به وباليوم الآخر وحفظ القرآن وهو في سن مبكرة من حياته، متزن صافي العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة مالكي المذهب متقيد بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته وما نسب إلى الأمير من الرموز والحلول والاتحاد وغيرها من الرموز الصوفية ما هي إلا أباطيل واتهامات، وإتهامه بالخيرة وزعمهم أنه كان يكررها في كثير من كتبه.

ايا حيرتي وما الذي اضع

لقد ضقت ذرعاً فما ينفع

أكاد تراني منطراً

جواهري ماثوثة أجمع

^١ المصدر نفسه، ص: ٧٨١.

^٢ العقد الثمين (٢/ ١٩٧ - ١٩٨) باختصار.

وما نسب إليه:

فحيرتي ما كنت كائنة

وحتى القيامة لا تفلح

فأشكو إلى حيرتي حيرتي

فليس إلى غيرها مفرج

إننا عندما نرجع إلى كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد نرى عقيدته الصافية وفكره الرشيد ومنهجه المستقيم ففي الفصل الخاص بإثبات الألوهية ذكر الحيرة بالحرف التالي: إن الفلاسفة جرهم الجدل العقلي إلى قصور وحيرة وهذا يناقض ما نسب إليه من فوضى فكرية ظلماً وعدونا، فالأمير عبد القادر نبراسه:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

حيثما سار سر وإن وقف قف

وقال من شعره العذب الجميل:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لانا الصبور لدى اشتداد البأس

وتحدثني شكراً لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس^١

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩٢.

وهناك أمر مهم ويحدث كثير في ما يتعلق تشابه الأسماء فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه وكتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف واختلط الحابل بالنابل على بعض الناس وألتبست الأسماء والمؤلفات على بعض الناس ومن هؤلاء العلماء عبد القادر بن محيي الدين الجيلاني المتوفى عام ٥٦١هـ وعبد القادر بن محيي الدين قضايب البان المتوفى عام ١٠٤٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين المتوفى عام ١١٥٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين الصديقي الأربلي القادري الذي عاصر الأمير وعاش بعده خمسة عشر سنة.

إن الأمير عبد القادر نسبت إليه أفكار ضالة وهدامة بعد مماته وليس في حياته فأصحاب المناهج الضالة أردوه حلولياً اتحادياً مثلهم وأما الفرنسيون فأردوه صديقاً لهم يعترف بفضلهم عليه، ونسوا أنه جزء من شعب يعاني ويلات الاحتلال ووطن افتدته بروحي كما أمره خالقه وأرشدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهوية هذا الوطن ودينه وتاريخه وحضارته تعني له كل شيء في هذه الحياة^١.

إن الأبيات الشعرية التي وضعت في كتاب "المواقف" لا تمت إلى الأمير بصلة ليس لبعدها عن الجمال وإنما لركاكتها وفساد معتقدها وبعدها عن أسلوب الأمير في الشعر الذي اشتهر بعذوبته وسعة افقه الفني والتاريخي والديني والاجتماعي فأسلوبه من نوع السهل الممتنع.

ولقد عالج الأمير في أشعاره وأبياته الحكمة مختلف جوانب الحياة كما عاشها بحلوها ومرها ويظهر من خلال أشعاره تأثره العميق بكتاب الله عز وجل وظهرت في أشعاره فحولة الشعراء ورصانة الحكماء وما أحوجنا إلى أن نغرس في نفوس النشء الجديد من أبنائنا معاني العزة والشهامة والإباء والأصالة والشجاعة التي وردت في حكمه وأن نردد معاً قوله:

^١ المصدر نفسه، ص: ١٩٤.

وما كل شهم يدّعي السبق صادق
إذا سيق للميدان بان له الخسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا
على ظهر جردبل من تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس
إذا ثار نقع الحرب والجؤ مُغبرٌ
وما كل سيف ذا الفقار بحده
ولا كل كَرّار عليّا إذا كَرّوا
وما كل طير طار في الجو فاتكاً

وما كل صيّاح إذا صرصر الصقر

ولا عجب في اعتزاز الأمير بترائه العربي الإسلامي الأصيل، ولا عجب في اختياره التراكيب المنبثقة من بيئة أجداده العرب، مثل قوله "عند تجلي النقع" و "ظهر جردبل" واستشهاده بقيادة المسلمين الذين ملأت أمجادهم الدنيا في قوله "ولا كل كَرّار عليّا"^١.

٤. علاقة الأمير بالدولة العثمانية:

كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية، والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

^١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٩.

وكان يكن الإحترام والتقدير للدولة العثمانية وسلاطينها ونظم الأمير قصيدة في مدح
السلطان عبد المجيد فقال:

يا رب يا رب الأنام ومن
إليه مفزعنا سرّاً وإعلانا
يا رب أيد بروح القدس ملجأنا
عبد المجيد ولا تبقيه وحيرانا
ابن الخلائف وابن الأكرمين ومن
توارثوا الملك سلطاناً فسلطانا
أحي الجهاد لنا بعد ما درس
وضاعف المال أنواعاً وألوانا
فانصره نصراً عزيزاً لا نظير له

حتى يزيد العدا همّاً وأحزاناً
واحفظ علاه وأرسل يا كريم له
من الملائكة حفاظاً وأعواناً
واهدم وزلزل وفرق جمع شائنه
واجعل فؤادهم بالرعب ملأنا
وانصر وأيد مثبت جيش نصرته
أنصار دينك حقاً آل عثمانا
الباذلون بيوم الحرب أنفسهم
لله كم بذلوا أنفسهم وأبداناً ١

١ الأمير عبد القادر حياته وفكره بديعة الحسني، ص: ٨٨.

والضاربون ببيض الهند مرهفة
تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر البيد عالية
إذا العدو رآها شرعت بانا
والراكبون عناق الخيل ضامرة
تخالها في مجال الحرب عقباننا
والمصطلون بنار الحرب شاعلة

مطلوبهم منك يا ذا الفضل رضوانا^١
ونظم قصيدة عام ١٨٥٣م والتي قال فيها فور وصوله إلى مدينة بروسة أقتطف منها:

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً
ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا
وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي
حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي
خليفة الله أفياء وأظلالا
فالله أكرمني حقاً وأسعدني
وحط عني أوزاراً وأثقالا

^١ المصدر نفسه، ص: ٨٨.

هذه الأبيات دليل على ما كان يعانيه من ألم وسنيّ عمر في الأجواء الأجنبية واثقال من
الحزن أجبر على حملها أثقلت كاهله فيشكر الله سبحانه وتعالى في هذه الأبيات بعدما
غمرته شمس الحرية لتتوج صبره في وصوله إلى دار الخليفة الإسلامية.

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن

قد أكمل الله فيه الدين إكمالاً

عبد المجيد حوى مجداً وعز على

وجل قدراً كما قد عم أنوالاً

هذا مقام التهاني قد حللت به

فارتع ولا تخشى بعد اليوم أنكالا

يا رب فاشدد على الأعداء وطأته

واحم حماء وزده منك إجلالاً

فرع الخلائف وابن الأكرمين ومن

شدوا عرى الدين أركاناً وأطلال

كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا

كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالاً^١

إن كتاب "حياة عبد القادر" الذي كتبه شارلز هنري تشرشل شوه الدولة العثمانية من
خلال خياله وأكاذيبه فالدولة العثمانية نظر إليها الأوروبيون المستعمرون في تلك الفترة
كامتداد للفتوحات الإسلامية التي تناقض حضارتهم بما تمثله من قيم الفكر ومفاهيم
اجتماعية واقتصادية ونظم إدارية وأساطيل بحرية كانت تنافسه أكبر أساطيلهم في البحار
والتي كانت تشيد في كل بقعة من عالمهم مسجداً وتنقل إليهم الحضارة الإنسانية
الإسلامية بجوانبها المتعددة، كان الأمير عبد القادر يكن لها الاحترام والتقدير لتمسكها

^١ ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ١٥٤.

بالمبادئ الإسلامية، ويعتبرها حصن الأمة المنيع الذي يحمي كيانها من أعدائها الطامعين بخيراتها ومقدساتها.

كان الأمير عبد القادر يحترم الخلافة من منطلق إسلامي ديني بحت وكذلك كان أبنائه الذين كان يُعدون الإمبراطورية العثمانية، لذلك استمروا على علاقتهم الودية بالسلطان، ووصل أربعة من أبناء الأمير عبد القادر إلى لقب "باشا" وشغلوا مراكز مرموقة في عهده وكان الولاة يحترمون الأمير ويعترفون له بصلاحيات واسعة في إدارة بعض شؤون البلاد الشامية وخاصة ما يتعلق بالمهاجرين وكان يرى أن تصحيح الواقع والأخطاء في الحكم يتم بفضل رأي من هم أكثر حكمة بين العلماء والمفكرين المسلمين والأكثر قدرة على اقتراح الحلول المستنبطة من تجارب الماضي من جهة والمعتمدة على نظرة مستقبلية ثابتة من جهة أخرى.

وكان يقول: الرجل العالم العارف يستطيع استشعار المستقبل من النظر والرجوع به إلى أحداث الماضي في ضوء التواتر، وحقيقة علم التواتر هي التفكير بمحسوس يمكن وقوعه من خلال هذا العلم والإنسان الذي أوتي العلم والمعرفة يستطيع أن يستشعر المستقبل بما يملكه من سعة الرؤية أمامه التي تمكنه إحساس وشعور وتنبؤ، وهو لدى بعض العلماء الفقهاء على جانب كبير من الدقة^١.

ولاحظ الأمير أن الضغوط تتزايد على الإمبراطورية العثمانية، وأن التغلغل الأجنبي عبر القناصل والعملاء التجاريين في البلاد الشامية خاصة أصبح مزعجاً لأصحاب الحرف والصناعات المحلية، وأن احتكارات المحلات التجارية من جانب الطوائف غير الإسلامية يزداد باستمرار بمساعدة الوكلاء التجاريين الغربيين وبنفوذهم، كما لاحظ أن البعثات الدبلوماسية تتدخل بشكل غير معلن في هذه المجالات، وأن نفوذها يتصاعد وأن السلع

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٠.

الأوروبية تغزو الأسواق وتنافس البضائع المحلية بتشجيع من بعض الولاة وبغض النظر من جانب بعضهم الآخر.

وكانت تلك الأمور تؤرق بال الأمير وهو يرى أن شبح الاستعمار ومآربه تقترب ليس فقط على المستوى الشعبي في هذه البلاد، بل إلى دار الخلافة في إسطنبول، وإلى مساجدها وإلى رسالة تلك المساجد وإلى مآذنها ونداءات "الله أكبر حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" وأن الخطر الداهم يتهدد هذه الأماكن ومكائنها في بنية المجتمع الإسلامي، فكان الأمير في ندواته العلمية في الجامع الأموي وفي دار الحديث النووي وفي داره كان في كل هذه الأماكن يحث الجميع على الحذر من المؤامرات التي تحاك في الظلام، وكان يشير إلى النبع وهو الشريعة الإسلامية ويذكر قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة، آية : ١٩٠).

وكان يبصر الوجهاء والأعيان بعواقب التفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وبأخطار الصدام المسلح بين الطوائف وكان يدعوهم إلى عدم الوثوق بعود الدول الأجنبية لأنه عهد لهذه الدول ولا ذمة ولا وفاء.

ونصح الجميع بالتمسك بالبعد الحضاري لهذه الأمة وبعدم التماذي في زرع الدمار والخراب والأحقاد وكل ما يدوي ويستفحل ويحترق ويصبح رماداً مما يجعل البلاد لقمة سائغة في فم الاستعمار وكان يتكلم وكأنه يقرأ هذا المخطط في كتاب أسود بين يديه، وينطوي هذا المخطط على ضرب الإمبراطورية الإسلامية العثمانية من الداخل وتفتيتها إلى دول تسهل الهيمنة عليها، ثم تحجيم الإمبراطورية العثمانية وبتز جذورها الإسلامية^١.

كان الأمير عبد القادر مهتماً بدعم الدولة العثمانية والتواصل مع خلفائها وسلطينها، ففي شهر جوان من عام ١٨٦٥م عزم على السفر إلى الإستانة لزيارة الخليفة السلطان

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٠٣.

عبد العزيز خان، فاستقبلها وأكرمه وكبر به، فطلب منه أن يصفح ويسرح المنفن إلى جزيرتي قبرص ورودرس اليونانية من الذين تورطوا في أحداث ١٨٦٠م بالشام، فلبى رجاؤه وصدر الأمر العالي بتسريحهم^١.

لقد كانت حياة الأمير عبد القادر مجموعة من المآثر الخالدة وأصبح بعد أن قضى على الفتنة الطائفية في سوريا محط أنظار العالم، وأمل دعاة استقلال العرب عن الدولة العثمانية التي تتالت هزائمها أمام روسيا، فاجتمعت الطليعة في بلاد الشام وبحثوا مصير سوريا وعقدوا المؤتمرات السرية في دمشق سنة ١٨٧٧م واقترحوا فصل البلاد عن الدولة العثمانية وتنصيب الأمير عبد القادر ملكاً عليها، لأنهم وجدوا فيه أملهم الوحيد لما يتمتع به من هبة واحترام عند العثمانيين والعرب على حد سواء وبعد قضائه على الفتنة الطائفية نال تقدير جميع الدول الأجنبية واحترامها وهو الذي سبق له أن أنشأ دولة وقاد أمة وهو بالإضافة إلى ذلك العالم ذو المقام العالي والمجاهد ذو النسب الشريف.

وعندما عُرض على الأمير هذا الموضوع لم يتحمس له، ولم يرفضه ولكنه نصح أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً وبدأت رسائل الزعماء اللبنانيين تتوارد على الأمير مبايعة ومنها رسالة من الزعيم اللبناني يوسف كرم الذي كان منفياً في إيطاليا، وأما المشروع الفرنسي الذي كان يرمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية تمتد من شمالي بلاد الشام حتى قطاع عكا يرأسها الأمير عبد القادر، فقد رفضه الأمير بشدة في سنة ١٨٦٠م^٢.

رفض الأمير عبد القادر هذا المشروع لأنه مطلب فرنسي استعماري وبعد سبع سنوات عندما ظهر المشروع العربي القومي تردد أيضاً في قبوله، لأنه كان يحترم الخلافة الإسلامية من منطلق ديني وكان عدم تحمس الأمير لهذا الأمر ناشئاً عن احترامه لمبدأ الخلافة

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٨.

^٢ فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٨.

الإسلامية ثم جاء مؤتمر برلين وتولى عبد الحميد الخلافة وأصبح سلطاناً فتأخر والحل العربي^١.

٥. موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق:

أ. وضع الطوائف في بلاد الشام:

بلاد الشام تتميز بتنوع الطوائف واختلاف المذاهب وتباين العقائد، ففيها الأغلبية المسلمة السنية وفيها الشيعة والمسيحية التابعة لكنيسة روما من اليونان الأرثوذكس، والأرمن والجورجيين واليعقوبيين والبروتستانت ثم الأقلية اليهودية، وقد كان للموارنة الكاثوليك وضع خاص لارتباطهم بكنييسة روما مباشرة ولصلاقتهم المتميزة مع دولة فرنسا، والعدد الأكبر من هذه الطوائف يتركز في جبل لبنان وفي فترة حكم محمد علي للشام في الأربعينات من القرن التاسع عشر، قام ابنه إبراهيم باشا باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات الأمر الذي أدخل بالتوازن المتوارث، وأصر بالامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى فكان ذلك تمهيداً لتعاون بعض الطوائف مع الدول الأوروبية مباشرة والتزود منها بالسلاح وبالمال دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها فسمح للإنجليز بالاتصال بطائفة الدروز، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية وشجعتها على الوقوف ضد من يمس بمصالحها، مما هيأ الظروف للبداية لحدوث الاضطرابات بعد ذلك بين طائفتي الدروز والموارنة منذ عام ١٨٤٥م، وبعد أن أصدر السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٦م مراسيم عرفت بالخط الهمايوني الذي أقر نهائياً المساواة بين أفراد مختلف الملل والطوائف والأديان مع المحافظة على أحوالهم الشخصية أصبحت الأوضاع في مجمل بلاد الشام وخاصة مع حلول عام ١٨٥٧م تنذر بانفجار خطير، بدأت شرارته بعدما استولى

^١ فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٩.

فلاحون موارنة في شمال جبل لبنان على أراضي الاقطاعيين وامتنع موارنة الجنوب عن دفع الإيجارات إلى الملاك من الدروز واشتعلت الفتنة الطائفية في بلاد الشام في شهر جوان عام ١٨٦٠م واعتدى بعض الموارنة على الدروز فقام الدروز والغوغاء من الناس بإيعاز من بعض أشباه المشايخ وكبار القوم الذين يظنون أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة حجّتهم في ذلك تجبر النصارى وتكبرهم وتجاوزهم حدهم وخروجهم عن العهود الذمية وتعلقهم بالدول الأجنبية، فراحوا يأخذون في كل حذب وصوب الثأر بالخرق والقتل والسلب ونهب الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنسيين في جبل لبنان وطرابلس وصيدا وزحلة ودير القمر واللاذقية وغيرها، وعاثوا في الأرض فساداً وفسقوا واعتدوا على البنين والبنات وخرّبوا القرى والمدن وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال ومالوا عليهم كل الميل وبادرت لمساعدتهم والغنيمة معهم فرسان دروز الجبل الشرقي، تذبج النصارى ذبح الأغنام وتعندي على الأموال والأولاد ودام هذا الأمر إلى غاية عيد الأضحى في شهر جويلية من عام ١٨٦٠م ولما هرب كثير من النصارى إلى دمشق، ظانين أن الحكومة سوف تحميهم من بطش الدروز، تغاضت الحكومة في بداية الأمر عن ذلك فزاد الدروز من طغيانهم وبتطشهم والتخويف والتهديد والتنكيل بمن فر أو سكن في دمشق^١.

ب. لم يبق الأمير مكتوف الأيدي:

لاحظ الأمير أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان الوجهاء، وكان الأمير قد أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين الجزائريين واشترى لهم السلاح وكان قد قام بتدريبهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى، وعندما تناهى إلى مسامحة ذات صباح أن الجموع تتجه نحو حي القصاص استدعى فرسانه الأشداء وخرج هو وأبناؤه كلهم، وقام بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٩.

ووزع المهمات على رجاله، من شرفاء الناس وعلماء المسلمين وكبرائهم وغيرهم من أبناء دمشق المخلفين إلى حماية ما استطاع من المعتدى عليهم وإخماد الفتنة وفتح داره وبذل كامل همته بأمواله ورجاله وسلاحه، في خلاص من قدر عليه المهالك، ومرافقة من كان خارج الميدان إلى حصن الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم، فكان الأمير وأتباعه من سكان الشام يطوفون على من كان في الميدان في سلامة وأمان ويدودون عليهم ليل نهار، يحرسون النصارى من الأشقياء والأشرار، وكان يواسيهم ويهنيهم بالسلامة ويطيّب قلوبهم بالأمن والأمان^١.

وكان الأمير قد أصدر أوامره لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة "زقاق النقيب" وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل في بعض المنازل في حي القصّاع وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات والأطفال إلى الأديرة وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال برصاص القناصة والطلقات الطائشة وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر حتى بلغ عدد من نقلوا إلى دوره في حي العمارة خمسة عشر ألفاً بين رجل وامرأة، وعندما غصّت الدار بهذا العدد الكبير من السكان نقل بعضهم إلى القلعة.

وفي اليوم الثالث من تلك الأحداث الفظيعة قامت الجموع بمهاجمة حي العمارة، فخرج إليهم الأمير وما أن وقعت عليه الأنظار حتى ألقى الله الرعب في قلوب الجموع المهاجمة فعادوا من حيث أتوا، وقبض فرسان الأمير على بعض منهم وكم كانت دهشة الأمير كبيرة عندما اكتشف أن بينهم عدداً من المسيحيين اللبنانيين، فسأل شاباً كان يتقد حماسه هستيرية ما الذي جاء به إلى هذه المعركة المشينة؟ فأجاب بعد نقاش معه: وما السبيل إلى القضاء على هذه الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

وزعزعة أركانه، إن فرنسا تزيد الأخذ بيدنا نحو حضارتها وما جنودها في ميناء بيروت سوى رسل لهذه الحضارة.

أمر الأمير عبد القادر بإخلاء سبيل هؤلاء وراعه أن يجد البلاد قد أصبحت في محنة حقيقية وكان عليه معالجة الأمر بما أوتي من شجاعة وحكمة وموهبة في القيادة والحوار مع أقطاب الحكومات الأوروبية^١.

ج. وقوف الأمير ضد مخططات فرنسا في الشام:

احتجت الدول الأوروبية وهددت بالتدخل ففي ٢ أوت ١٨٦٠م اتفقت الدول الأوروبية على الوقوف بجانب النصارى وحمايتهم عن قرب وكانت ذريعة مباشرة لاحتلال الشام فتطوعت فرنسا لذلك لداعي قربها المذهبي من المسيحيين في لبنان ولكونها المشرفة على الكنائس في بيت المقدس وراحت بعد أسبوع ترسو بأسطولها الحربي في ميناء بيروت وتنزل قواتها وتحدد الدروز بتأديبهم وقصف دمشق وبذل الأمير كل ما في وسعه لتفادي الاحتلال^٢.

وبعد أن تأكد الأمير أن القوات الفرنسية وصلت إلى رفاق في طريقها إلى دمشق، امتطى صهوة جواده خفية وأخذ يقطع الجبال والوديان لا يهاب وحشة الليل أو وعورة الطريق وعندما وصل إلى قرية "قب الياس" أرسل من يخبر الجنرال بوفور قائد الحملة الفرنسية بوجود الاجتماع به، وعين المكان وكان مشهداً للقاء جزائري - فرنسي على مستوى سياسي وعسكري وطلب الأمير من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق أو قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبل الأمير للإمبراطور لويس فيليب بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد

^١ الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٢٠٥.

^٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٠.

وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها^١. هذه الفتنة التي كان المحتمل أن يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أبناء حيّ القصاب في دمشق في سبيل مخطط استعماري كان هدفه احتلال سوريا ولبنان بحجة الدفاع عن المسيحيين وإنقاذهم ولكن الأمير عبد القادر كان لهؤلاء المستعمرين بالمرصاد، فعمل على إخفاق ذلك المخطط وقضى على المؤامرة التي دُبرت لبليل^٢.

وأسرعت الدولة العثمانية فأرسلت فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق وفوضت إليه الأمر المطلق للقضاء على الفتنة فأجرى الأحكام العرفية وقبض على الألوف من أهلها غوغائها ومشايخها وكبرائها ورؤساء مجالسها وبعض باشاوات العسكر، فأمر برد المسلوبات وأخذ القصاص من المعتدين وأعدم وسجن ونفي من ثبت عليه الجرم، وقامت عليه البينة، وبعدها جرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يعوض المسيحيون كل ما خسروه ومنح أهل الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، يرأسها رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات اقترحتة الدولة العثمانية ووافقت عليه أوروبا، واستتبت الأوضاع وانسحبت فرنسا بقواتها في بداية صيف ١٨٦١م وكفى الله المؤمنين القتال^٣.

وقد طلب فؤاد باشا وزير الخارجية من الأمير عبد القادر السماح له بتعيين كتيبة مسلحة من المهاجرين الجزائريين مهمتها الحفاظ على الأمن في دمشق وضواحيها، وعيّن قائداً لها محمد بن فريجة أحد أبناء عمّ الأمير عبد القادر، وأجرى استعراضاً عسكرياً تقديراً للأمير على جهوده في وأد الفتنة، وتقدمت تلك الكتيبة الجزائرية بأسلحتها ذلك العرض^٤.

س . الملوك والحكام يشكرون الأمير على فعله الجميل:

^١ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٥.

^٢ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٧.

^٣ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥١.

^٤ الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٨.

أرسل الخليفة العثماني الوسام المجيدي العالي الهمايوني من الرتبة الأولى إلى الأمير عبد القادر مع رسالة تقدير حملها إليه الصدر الأعظم علي باشا في السابع من صفر ١٢٧٧هـ الموافق لعام ١٨٦٠م^١، وكان مع فرمان الشكر والعرفان مكافأة مادية، ثم توالى رسائل الشكر وقصائد التهنئة من الأدباء والشعراء والعلماء والأعيان من المسلمين وغيرهم، منها رسالة من المجاهد الكبير قائد الجهاد في داغستان والشيشان الشيخ محمد شامل رحمه الله وأما النياشين والتشريفات والهدايا الأجنبية فكانت كالتالي:

. هدية من الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا الكبرى كانت بندقية مكتوباً على ظهر صندوقها عبارة: من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانيا العظيمة إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر، تذكراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠م، كانت الهدية مرفقة برسالة حررها قنصل دولة إنجلترا في دمشق المكلف من الحكومة الإنجليزية مؤرخة في أوت ١٨٦٠م.

. نيشان وسام الشرف من الرتبة الأولى من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، مرفق برسالة من وزير خارجية فرنسا عن الإمبراطور مؤرخة في ٣١ أوت ١٨٦٠م.

. النيشان الكبير رتبة أولى المدعو بنيشان المخلص من ملك اليونان أوتون الأول استلمه في شهر سبتمبر ١٨٦٠م.

. نيشان موريس والعاذر من قاربيالدي ملك إيطاليا الجديدة وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية استلمه في شهر سبتمبر عام ١٨٦٠م.

. نيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى من غيوم الأول ملك بروسيا، استلمه في ١٢ نوفمبر ١٨٦٠م.

. نيشان النسر الأبيض أعظم فرسان رتبة من طرف الملك الكسندر الثاني قيصر الروس استلمه في جانفي ١٨٦١م.

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٠٨.

وقد وضع كل هذه الأوسمة على صدري وأخذت صوراً فوتوغرافية بها وهي الأوسمة التي قلدها الخليفة العثماني وضعها في أعلى الصدر وإلى أسفل منها بقية النياشين ولم تكن هذه الصور بالنياشين للترزين أو التفاخر والتكبر، بل كان الغرض منها أن تنشر في الصحف الأوروبية والعالم فيرى الناس صورة المسلم الحقيقي الداعية للسلم والأمان والذي يتعامل مع أصحابها المعاهدين من أهل الذمة وفقاً لأحكام شريعة الإسلام السمحة التي لا تسمح بالاعتداء عليهم وتقتيل العزل منهم، وتذكير وتحذير كل من سولت له نفسه العودة إلى مثل تلك المغامرات الخطيرة التي حدثت في بلاد الشام وهذه الأعمال من الأمير عبد القادر تدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن الحقد والتعصب وسفك الدماء للمسيحية من عاشوا في أوساط المسلمين مئات السنين بعقد الذمة ،ان حرب الأمير مع فرنسا كانت لكونهم غزاة معتدون لا لأنهم مسيحيون^١.

٦. علاقة المجاهد شامل الدغستاني بالأمير عبد القادر:

شاء المولى عز وجل أن يكون جهاد الإمام شامل ضد الروس في نفس الفترة التاريخية التي حمل فيها راية الجهاد الأمير عبد القادر وتشابكت أحوالهم، فالإمام شامل الدغستاني الملقب بأسد القوقاز وصقر الجبال، جاهد ضد جحافل الروس لمدة خمسة وعشرين سنة بعد أن نجح في توحيد القبائل، رغم تعدد مكوناتها الثقافية واللغوية، وعمل على تأسيس جيش حديث ووضع أسس إدارة منظمة حسب مبادئ الشريعة الإسلامية كما عرف بحنكته السياسية وفروسيته التي أبداهها في الحرب واكتسب شرعية في ممارسة السلطة وقيادة المسلمين بوطنه وبين أهله عن طريق المبايعة، فجمع بين رضا الخاصة والعامة، مما سمح له بأن يلقب بأمير المؤمنين.

كان الأمير عبد القادر يسمع عن الإمام المجاهد شامل وعن جهاده وهو في الجزائر وتعرف عليه وحظي لدى الأمير عبد القادر بالتقدير والإحترام، ولم تشأ الأقدار أن يلتقوا

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٢-١٥٣.

جسدياً ولكنهما كانا متقاربين روحياً وفكرياً وثقافياً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، كان الأمير عبد القادر يتبادل معه الرسائل طول مدة اعتقاله من عام ١٨٦٠م إلى ١٨٦٩م وكان يسعى بكل الوسائل وبكل ما لديه من معارف من أجل الحرص على مكانته وشرفه وإطلاق سراحه من الأسر، كانت للإمام شامل تربية دينية وورع وثقافة إسلامية متينة، درس العربية والفلسفة والفقه والأدب العربي وتعمق في التصوف السني وتشرب الثقافة الإسلامية وكان على معرفة واسعة بها، عاش حياة تميزت بالبساطة والتمسك بالعقيدة والتشبث بالوطن والوقوف بحزم وشجاعة أمام غزو أجنبي متفوق في المستوى الحضاري وفي العدد والعدة، ولد الإمام شامل علي ابن دنغو عام ١٧٩٦م في غامري بداغستان وتعلم في المساجد مبادئ العلوم الدينية واللغوية، وتفوق بشجاعته على أقرانه، وتمتع بقوة بدنية عظيمة وكان متعطشاً للمعرفة منذ صباه تأثر برفيقه ومعلمه الشيخ محمد الغمراوي المشهور بكنيته غازي مولا، داعية الإصلاح الديني، وصار من أتباعه ومريديه. واستطاع توحيد المسلمين في داغستان والشيشان في الكفاح ضد الاحتلال الروسي الذي رسخ أقدامه في داغستان والشيشان مستغلاً الخصومات القبلية والتنازع بين حكامها. ففي عام ١٨٢٩م بدأ الإمام غازي ملا في تحريض شعوب الجبال للجهاد لوقف الزحف الروسي على أراضي المسلمين القوقاز، وأمام تماسك قوة المجاهدين، شن الروس هجوماً واسعاً وأحرقوا البيوت على ساكنيها كي يجبروا المجاهدين على الخروج والاستسلام وبعد مقتل غازي ملا عام ١٨٣٢م في معركة غمري المشهورة لم ينجو إلا القليل وكان منهم الإمام شامل الذي تمكن من الفرار رغم غصابته البالغة واعتقد المجاهدون بمقتل الإمام شامل في المعركة، فاختر حمزة بيك قائداً بعد تركيته من الشيوخ وبعد عامين في ترتيب الصفوف وتدعيم قوة الجيش لقي حمزة بك الهزيمة ثم اغتيل وهو يؤم المصلين في المسجد الجامع بمعقل الجهاد في خترخ بداغستان، فبويع شامل إماماً عام ١٨٣٤م وأعاد تنظيم

جيشه بالطرق واستفاد من الأسرى الضباط والهاربين من الجيش الروسي في تطوير قدرته العسكرية على النمط الأوروبي الحديث، كما نظم العمل البريدي في دولته ونسق الانفاق على الجيش مع ريع الأراضي الزراعية التي ضمت إلى المساجد، كما نظم جمع الزكاة لتجهيز الجيش وبدأ في دعم ركائز نفوذه في القوقاز المعتمد على الشيشان وداغستان وحلفائهم، حتى امتدت منطقة نفوذه من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً، كان الإمام شامل يسعى للمساواة بين القوميات المختلفة بغض النظر عن اللغة والعرق والطبقة واستمد التشريعات الشخصية والمدنية من الشريعة الإسلامية، وحاول أن يستفيد من القوى الدولية لمساعدته واستمر الجهاد بأسلوب الكر والفر إلى أن نفذ شامل انسحاباً تكتيكياً إلى داخل جبال أفاريا وتوغل خلفها عبر الغابات الكثيفة وكان ينقض على العدو من جهات مختلفة واجه الإمام شامل جحافل الروس بالقوقاز وحقق انتصارات مدوية، ولقن الروس دروساً في فن الحرب، واستمات في الدفاع عن دينه ووطنه وخلال حرب القرم التي استمرت من عام ١٨٥٣م إلى ١٨٥٦م سعى إلى فتح خط اتصال بين كل من تركيا وإنجلترا وفرنسا لدعمه العسكري بعد أن تحالف معها في عدائها لروسيا، فمنحه السلطان العثماني رتب خانية قفقاسيا وأمدّه بالمساعدات العسكرية، ولما وضعت الحرب التركية الروسية أوزارها، بدأت القوات الروسية بتركيز ضرباتها العسكرية على الجبهة القوقازية فحرقت الغابات التي يحتمي بها المجاهدون، وألبت الأهالي عليهم، واستمالت عشرات القبائل التي أنهكتها الحرب والفقر والتشرد وتخلّى عنه حكام المسلمين المجاورين له واشتد عليه الحصار واضمحلت قواته وقتلت إحدى أخواته وزوجته وابن صغير له وبعد احتلال الروس للشيشان في عام ١٨٥٨م التجأ إلى قلعة فيدينو، ثم آوى إلى غونيت على وادي سالاك في أبريل ١٨٥٩م وفي معركة فاصلة انقض الروس على الثوار الأربعمائة الباقية معه، فحاصروهم من كل جانب فسقط جريحاً في ساحة المعركة، وبعد مقاومة مستميتة لأصحابه عرض عليه القائد العام للقوات الروسية وحاكم بلاد

القوقاز الجنرال بريانتسكي الإنسحاب إلى الأراضي العثمانية وبعد أن توسط في المحادثات ضابط أرميني في جيش القيصر يسمى لازاريف طلب له الأمان من الروس في ٦ سبتمبر ١٨٥٩م فنال عهد أمان له ولأصحابه يضمن حريته وترك سبيله مع اتباعه الذهاب إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، غير أن من أعطى له العهد وكلمة الشرف بإطلاق سراحه غدر به، فسلم أمره لمشئمة الله واستسلم للقدر بعد جهاد دام حوالي خمسة وعشرين سنة.

وفي العاصمة سان بطرسبرغ استقبله القيصر الكسندر الثاني ثم نقل بعدها إلى كالوغا جنوب غرب موسكو سنة ١٨٦٩م ثم إلى مدينة كييف بأوكرانيا في سنوات الاعتقال الأخيرة، وبعد أن تدخلت في شأنه شخصيات لإطلاق سراحه أرغم العدو على الاعتراف بشهامته مواقفه البطولية، واستقبل من طرف قيصر روسيا ألكسندر الثاني مرة أخرى ورحب به في سان بطرسبرغ واتجه إلى إسطنبول، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة وتوفي بها في ٤ من فيفري ١٨٧١م وبذلك طويت صفحة ناصعة من صفحات التاريخ الإسلامي^١، وخلال العهد الشيوعي في الإتحاد السوفيتي منذ أكتوبر ١٩٧١م حتى ١٩٩١م شنت حملة شرسة ضد جهاد الإمام شامل وخاصة منذ عهد ١٩٥٠م وصور لدى عامة الناس والجهال بأنه رجعي عميل للإمبريالية الأجنبية وجرت حملة ضخمة لتطهير كتب التاريخ السوفيتية من مسيرته وجهاده ونضاله وكفاحه غير أن الله يدافع عن الذين آمنوا حتى في مرقدهم فأنصفه العقلاء والعلماء والمؤرخون.

وأحسب أن مسار حياة الإمام شامل وحتى بعدما التحق بالرفيق الأعلى، في طبيعة جهاده وتخلي حكام المسلمين عنه، واستسلام القبائل المساندة له للعدو وطلبه للأمان، وغدر العدو وإخلافه للعهد والوعد واعتقاله بدون وجه حق وهجرته ووفاته في الغربة

^١ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٠ - ١٧١.

ومحاولة طمس ذاكرته الطيبة كل ذلك كان يشبه ويتطابق مع جهاد الأمير عبد القادر واعتقاله وغربته وتاريخه المجيد^١.

أ. رسالة من الإمام شامل إلى الأمير عبد القادر:

كان دفاع الأمير عبد القادر عن المسيحيين العزل بالشام محل تقدير واحترام عند عقلاء البشر من المسلمين وغيرهم ومن بين هؤلاء الإمام شامل الذي أرسل من منفاه بروسيا إلى الأمير عبد القادر رسالة جاء فيها:

إلى الذي اشتهر بين الجميع الكبار والصغار، الذي بصفاته المتعددة والرائعة يتميز عن باقي الرجال الذين أطفأ نار الخلاف قبل أن يستفحل أمرها، الذي اقتلع شجرة الشر والتي ثمارها ليست سوى وجه الشيطان المجد لله الذي منح خادمه القوة والإيمان أننا نتحدث عن الصديق الوفي الحقيقي عبد القادر العادل السلام عليك، ليحمل نخيل الاستحقاق والشرف على الدوام ثماره بشخصك لتعلم أن أذني قد صدقت بما هو مكروه على السمع وفطيع على الطبيعة الإنسانية وإني ألمح هنا إلى الأحداث التي جرت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والمسيحيين حيث تصرف الأولون بأسلوب غير لائق باتباع الإسلام والذي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى كل أنواع التجاوزات أن غشاه قد غطت روحي ووجهي الهادئ عادة وامتلاً بطلال من الحزن، كنت أصرخ لنفسي: الشر على الأرض وفي البحر بسبب شرور وحقد الإنسان.

لقد دهش من عموم الموظفين الذين أنغمسوا في مثل هذه التجاوزات الذين نسوا كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم في حق المعاهدين وحمائهم ولكن عندما اطلعت على أنك أويت المسيحيين تحت جناح الطيبة والمحبة وأنتك تصديت للذين يتصرفون خلافاً لشريعة الإسلام وأنتك رجحت سعف النصر في مسرح المجد "نجاح تستحقه عن جدارة" فإنني قدرتك كما الله تعالى العلي القدير سيباركك يوم لا ينفع مال ولا بنون والواقع أنك

^١ المصدر نفسه، ص: ١٧٠ - ١٧١.

نفذت كلام الرسول الأكبر الذي أوفده الله تعالى كدليل على محبته لمخلوقاته المتواضعة وأقمت حاجزاً ضد أولئك الذين تخلوا عن مثاله الكبير ليحميك الله من الذين يخالفون شريعته في رغبتى بالتعبير لك عن الإعجاب الذي أكنّه لتصرفك أسارع بارسال هذه الرسالة كنقطة فائضة من ينبوع مشاعري الودودة^١.

ب . رد الأمير عبد القادر على رسالة الإمام شامل:

جاء فيها: .. هذه الكلمات من يد من هو بحاجة كبرى إلى رحماته الوافرة، عبد القادر بن محيي الدين الحسيني موجهة إلى أخيه وصديقه في الله شامل الأجدد ليباركك الله أنت ونحن في بلادنا وفي خارجها، ليعم سلام وبركة الله علينا على الدوام. لقد إستلمنا رسالتك المحترمة وكلماتك الطيبة التي أسعدت قلبنا إن ما سمعته بخصوصنا والذي منحك هذا القدر من الرضا حول دفاعنا عن المحتاجين، والحماية التي قدمناها لهم سواء لأشخاصهم أو لأملأهم بقدر ما سمحت لنا به قدرتنا وامكانياتنا كل هذا كما تعلم جيداً ليس سوى طاعة لمبادئ إيماننا المقدس والمشاعر الإنسانية، إن الرذيلة مكروهة من قبل كافة الأديان والسماح لأنفسنا بالانقياد لها ليس سوى ابتلاع السم والاحتفاظ به في المعدة.

في حين أنه كما قال الشاعر: الرجل عند التجارب معصوب العينين بشكل يجعله يعتقد أن ما يراه هو الأنسب والواقع هو أن العكس هو الصحيح في الواقع أن علينا أن نكرر: إنا لله وإنا إليه راجعون.

عندما نفكر إلى مدى قلة الرجال المؤمنين فعلاً وإلى أي مدى نادرون المدافعون وابطال الحقيقة عندما نرى أشخاصاً جهلة يعتقدون أن مبادئ الإسلام هي الشدة والصرامة والتجاوزات الوحشية آن الأوان لنكرر هذه الكلمات، الصبر جميل والله المستعان ..

^١ فارس الجزائر الأمير عبد القادر ، مصطفى طلاس، ص: ٣٢١.

وقبل لنا أيضاً أنك طلبت زيادة الأماكن المقدسة، مكة والمدينة، ونأمل من الله أن يوفقك لتحقيق رغباتك.

الواقع أن إمبراطور روسيا هو أحد الملوك الأكثر احتراماً أنه أحد الذين يرغبون برؤية سيرة الأعمال المذكورة في الكتب، نأمل بالتالي بأن عظمتة توافق على رغباتك دون عقبات. هكذا تصرف السلطان نابليون الثالث تجاهنا لقد اتخذ تدابير في صالحنا لا يمكن لعقل الإنسان تصورها ثم علينا أن نضع أملنا في الله وحده وهو وحده الذي يستحق احترامنا^١.

٧. الأمير عبد القادر والماسونية:

اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونيين ثم انتسب إلى محافلهم وقد روج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة عبد القادر" ولم ينقل بأمانه الكثير مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل عن وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع، وبجرة قلم أعلنت الحركة الماسونية بعد وفاة الأمير عبد القادر في ٢٦ ماي سنة ١٨٨٣م أنه انتسب إليهم واحتفوا به ونعتوه، ولكنهم لم يجدوا دليلاً واحداً يقدمونه لإثبات ما روجوا له ذلك، وزعموا أن هناك نصوصاً ماسونية موثقة تثبت انتماء الأمير للحركة الماسونية وأنه كلف من طرف الحكومة الفرنسية بمهمات إنقاذية للمسيحيين في الأحداث الدامية التي وقعت في دمشق في شهر جويلية من العام ١٨٦٠م، فقدّر نابليون الثالث هذه المبادرة وقلد الأمير وسام الشرف الفرنسي وأرسل للأمير ما يسمى بالجوهرية أو الرمز المعدني عرفاناً للأمير بجهوده.

والحقيقة التاريخية تقول أن الأمير عبد القادر لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا وقنصلها في دمشق والمبادرة التي قام بها الأمير كانت خالصة لوجه الله تعالى، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

^١ المصدر نفسه، ص: ٣٢٤.

وأما بالنسبة للمحافل الماسونية مثل محفل هنري الرابع الذي أرسل إلى الأمير في ١٦ سبتمبر ١٨٦٠م كتابات شكر وتقدير وإعتراف للأمير في عدة رسائل أخرى بالحب للإنسانية جمعاً والأخلاق الحميدة واقترح عليه أن يكون عضواً في الماسونية دون أن يكون عضواً مكرساً لأنه من الرجال العظماء فهذا ثابت تاريخياً ولا جدال فيه.

لكن من يستطيع أن يمنع أحداً من الكتابة للغير وأن يشكره ويقترح عليه أموراً قد يراها بصدق أو بنية مبيتة تناسب قدر من أقترحت عليه ويقدم له هدية، والأمير ليس له ذنب إذ حاولت المحافل الماسونية في كتاباتها ومحافلها أن تستفيد من اسمه وتكذب عليه محاولة من خلال هذا الإفك والكذب والزور البهتان أن ينشر أفكارها الهدامة في المجتمعات العربية والإسلامية بالمشرق^١.

لقد نسبوا إلى الأمير مقولة بأنه لم يلمس في المبادئ الماسونية ما يتعارض وشريعة القرآن الكريم والسنة والفقه الإسلامي وهذا من الافتراء والكذب المبين.

لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير مثل الأسئلة عن واجبات الإنسان تجاه الله وتجاه الإنسانية أو الأسئلة حول خلود النفس والمساواة والإخاء والحرية أو حضوره في محفل الإهرام في الإسكندرية أثناء عودته من الحجاز في ١٨ جوان ١٨٦٤م، أو في محفل هنري الرابع للشرق الكبير الفرنسي في ٣٠ أوت ١٨٦٥م وقصة التكريس والامتنياز والدرجات الماسونية الثلاثة وغيرها من أكاذيب، فلا أصل لها وهي من نسج خيالهم^٢.

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات، آية : ٦).

^١ المصدر السابق.

^٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٦.

لقد حاول تشرشل ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيره ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية ولكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه.

. ألا يرى معي القارئ أن هدف هذه الكذبة هو أوسع مما يدركه الإنسان للوهلة الأولى ويعني الدعاية لهذه الجمعية في الجزائر بصورة خاصة وفي العالم الإسلامي؟ فهذا المجاهد هو رمز كفاح أمة وقدوة لعدد كبير من أبناء الشعب الجزائري والشعوب الحرة.

. هذه الكذبة أليست من فنون الدعاية البراقة التي تحتاجها الجمعية رأس الهرم فيها مجهول دوماً متعددة الشعارات والألوان في نظامها الداخلي الغموض والطاعة العمياء لرأس الهرم وربما رؤوس لا تشجع الالتزام بالدين، بل تعتبره عدوها الأزلي؟ وهذا المبدأ غير سري فيها، ففي عام ١٨٥٨م فتح في تونس محفل لأطفال قرطاج برئاسة أنطونيو فينا، وعدد من المحافل جاءت من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ومحفل "المثابرة" برئاسة بامبيو، ولكن بعد استقلال تونس أمرت الدولة بإحراق وثائق المحافل وإغلاقها، وفي الجزائر كانت المحافل الماسونية سرية جداً ولم يعلن عنها، وعرفت من وثائقها أثناء الحرب العالمية الثانية حينما أمرت حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية ومصادرة وثائقها فعرف أن محفل أطفال مارس سكيكدة فتح عام ١٨١٤م سرّياً ومقره عام ١٩٢٦م في شارع يوغرطة برئاسة ألبيرت أوبارتين، وبولاية قسنطينة محفل "نجمة الساحل" عرف عام ١٩٠١م في بجاية ومحفل "أخوة كلاماً" في قالمة، الذي كان يحث في جميع محاضراته العلنية على الطاعة والعمل على تحقيق مجتمع إنساني متضامن حر بعيد عن الله وعن الدين، ثم محفل "سرتا" في قسنطينة ولا يعرف تاريخ لتأسيسه، وشعاره عين الإنسان تحتها مثلث وسطه نجمة خماسية ومطرقة، وفي هذه المدينة يوجد محفل "هبوبة" عرف عام ١٩٠٠م، ويذكر الباحث الأستاذ يوسف مناصريه أن في الجزائر محافل أخرى منتشرة في الشرق الجزائري ومناطق القبائل في بجاية وغيرها ومنها محفل "الوفاق الطائفي" بسطيف، ومحفل "جون

جوريس" ومحفل "نوميديا" بسوق الأهراس، ويذكر الباحث أن غاية هذه المحافل هي الوحدة والهدف منها منع تعليم أبناء المسلمين اللغة العربية والقرآن في المدارس والكتاتيب بطرق سرية للغاية ولكن المعلن كان محاربة الأديان بشكل عام ويسحق هذه الأديان وإزالة رجالها من طريق الماسونية العالمية، وكان القصد من إشاعة أن الأمير عبد القادر كان من أعضائها هو انتشار هذه الفرية أو هذا الخبر الكاذب في الجزائر بعد ترجمة كتاب تشرشل إلى الفرنسية والدليل أنه في عام ١٩٠١م افتتح عدد من المحافل في الجزائر بشكل علني ولم يبق سرياً منها مثلاً "محفل أطفال مارس بسكيكدة" تحت رئاسة "البير أوبارتين" وكما يذكر الباحث الجزائري يوسف مناصريه في مجلة الدراسات التاريخية في العدد السادس ١٩٩٢م في بحث له ودراسة عن المحافل الماسونية في كل من بجاية وكلمة وقسنطينة وعناية وغيرها من المدن الجزائرية كما أسلفت.

. من المعروف عن هذه المحافل أنها لا تشجع على الالتزام بالأديان ولا تناصرها، وهذا الأمر لم تنتبه إليه حكومة فيشي في البداية ولكنه أدركته لاحقاً الحكومات التي جاءت بعدها لأنه يخدم الأهداف الاستعمارية في الجزائر بالقضاء على الدين الإسلامي بالدرجة الأولى والبعد عن لغة القرآن في نفس الدرجة وبالدرجة الثانية ساعد على انتشار أفكار ومبادئ، كحركة فكرية بديلاً عن الإسلام وحاولت أن تزرع في أذهان أبناء الوطن من أطفال وشباب ومثقفين "الإلحاد" وهي حركة فكرية لا تعترف بوجود الله الذي يعبدّه المسلمون.

. ألا يرى معي القاري الكريم أن هذا الأسلوب في الدعاية وجد نجاحاً إلى حد ما في الجزائر؟ فالمواطن العادي أو المثقف حينما سمع أن رمز كفاح بلاده انتسب إلى هذه الجمعية، من المسلم به أنه لم يجد غضاضة في انتسابه إليها، فلو أن هذه المحافل في الجزائر لم تجد من ينتسب إليها، لأغلقت محافلها وعادت أدراجها، ولكنها وجدت على ما يبدو إقبالاً عليها وكيف لا تقتدي برمز كفاحها؟ ولكنها لو علمت هذه الجموع من أبناء

الشعب أن هذا الخبر كاذب، وأنه من مزاعم مستشرق بريطاني، مزاعم تصب في مجرى تناقضاته بكتابة "حياة عبد القادر" لا نفضت عن هذه المحافل، كما حدث مع حفيد هذا المجاهد الأمير سعيد الذي أغرته شعارات هذه الجمعية في البداية وظن أن جده انتسب إليها فانتسب إليها ولكنه اكتشف بعد فترة أن جده لم يكن يوماً من أعضائها ولم ينتسب إليها، فنفي تلك التهمة في الصحف والمجلات وقام بنفي معلومة كاذبة ذكرت عن جده فنشر في صحف ذلك العصر نقداً لأعضاء هذه الجمعية في لجوئهم إلى الأكاذيب وذكرهم لأسماء شخصيات لم تنتسب إليها قط ومن هذه الصحف "الحقائق" عام ١٩٣٣م.

. إن كل الرسائل التي جاءت من المحافل الماسونية من رسائل التقدير والإحترام بمناسبة إنقاذه خمسة عشر ألف مسيحي في دمشق والقضاء على الفتنة الطائفية تبين حقيقة واضحة هي عدم وجود أي نص أو إشارة في الرسائل المذكورة يفهم منها أن المرسل إليه كان عضواً من أعضائها، فلا يوجد فيها ما يدل أو ما يفهم منه أن المرسل إليه عضو من أعضائها أو أن له أية علاقة بها، أو أنه انتخب عضو شرف فيها كما جاء في رُقم الجمعيات الأخرى ٢ فوافق على ذلك.

ففي عام ١٨٦٠م أرسلت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم "جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر" كتاباً بمناسبة دفاعه عن المسيحيين بالشام جاء فيها:

إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها اعترافاً بما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سوريا سنة ١٨٦٠م وبناء على ذلك بعثت إليه بهذه الرقيم في يونيو/ حزيران ١٨٦٢م وفعلت مثل ذلك الجمعية الأمريكية الشرقية فقرر مجلس إدارتها اعتبار الأمير عبد القادر عضو شرف فيها، وأرسلت إليه رقيماً في ١٨٦٠م وكذلك جمعية حماية المدن

^١ ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير، ص: ٢٣٢.

^٢ فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٧٠.

في فرنسا وفي تلك المناسبة ذاتها وصلت الأمير مئآت من رسائل التقدير والأوسمة الرفيعة من حكام العالم وزعمائه ومفكريه .. الخ . ومن المؤكد أن هذه الرسائل والرقم والهدايا قد اطلع عليها أبناء الأمير العشرة وبناته الستة وأزواجهن وأولاد أخوته، وكان من بين هذه الأشياء كتب التقدير هذه المومي إليها من هذه المحافل التي انتهزت فيما بعد فرصة وجود الأمير في مصر في تشرين ثان من عام ١٨٦٩م عندما دعا إسماعيل باشا خديوي مصر الأمير عبد القادر لحضور حفل افتتاح قناة السويس، فتوجه الأمير إلى بيروت ومنها إلى الإسكندرية حيث اجتمع بأباطرة فرنسا والنمسا وألمانيا وملك إيطاليا، وعلى متن بارجة حربية وصلوا إلى ميناء بورسعيد لحضور ذلك الاحتفال التاريخي الكبير وفي تلك المناسبة زاره في مقر إقامة عدد كبير من الشخصيات العالمية وكبار رجال الفكر ومندوبو بعض الجمعيات الخيرية، كالجمعية الفرنسية وأوفدت إليه هيئة من أعضائها شرحت له مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية^١، ولكن الأمير أبداً لم يدخل فيها ولم يدعوا إليه وهو رجل العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى الخلفاء الراشدين والحافظ للقرآن وصحيح البخاري والمعمق في كتب السلف وإنما كانت دعوته للإسلام كما بينا ذلك في كتابه المقرض الحاد، قال تعالى : " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (فصلت، آية : ٣٣).

إن بعض المنتمين إلى هذه الجمعية اتخذوا بعد وفاته من تلك الزيارة ذريعة نسبوا للأمير دخوله في جمعيتهم من دون أن يتوفر لهم أي دليل.

لقد قامت هذه الجمعية الغامضة إلى ذكر انتساب شخصيات تاريخية كبيرة إليها كدعاية ووسيلة لانتشارها، وكان ذلك يتم بعد وفاتهم، كما فعل المؤرخ البريطاني هنري شرشل فذكر في الفصل الأخير من كتابه خبراً وهمياً عن انخراط الأمير في هذه الجمعية، ومن

^١ فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢١٧.

المعروف أن شرشل كتب هذا الفصل "أي الرابع والعشرون" من كتابه المذكور بعد مغادرته دمشق التي كانت قبل حوادث ١٨٦٠م أي قبل الفتنة بعدة أشهر، وكتب الفصول الأخيرة من كتابه في إنجلترا ومنها الفصل الأخير "أي الفصل الرابع والعشرون" كما ذكرت، وقد اعترف شرشل بهذا في مقدمة كتابه المذكور حين قال إنه غادر دمشق في شهر شوال ١٢٧٦هـ / ربيع ١٨٦٠م وأن المعلومات عن الفترة الزمنية الممتدة بين ١٨٦٠م إلى ١٨٦٤م، أي الفترة التي كتب في أثناءها هذا الخبر قد أخذها عن شهود عيان من جماعة منتمية إلى هذه الجمعية وهذا يقلل من أهمية وصحة الفصل المذكور، فلم يذكر المؤلف أسماء شهود العيان أو أي دليل بهذا الخصوص وهذا أكبر برهان على كذب هذا الادعاء إذ لا يوجد أي مستند ولم يعثر على أي دليل مادي بين أوراق الأمير عبد القادر على صحة هذا الخبر ولو كان لدى الجمعية أي دليل لأظهرته للصحفي شرشل التابع للمخابرات البريطانية أو لمن يريد الكتابة في هذا الموضوع ١.

. إن الأمير عبد القادر رضي الله رباً وبالإسلام ديناً، ومحمد نبياً ورسولاً وعاش حياته منفذاً لأحكام الإسلام ولا يمكن للأمير أن ينخرط في جمعية غامضة من هذا النوع لكي يعمل الخير بواسطتها، يقول جرجي زيدان أن الأمير كان منتسباً إلى الجمعية الماسونية عام ١٨٦٤م.

إن هذه الأقوال كذب وإفتراء وإختلاق ما لها من دليل ولا برهان لم يستطع هو ومن سار في هذا النفق المظلم أن يأتي بدليل واحد على صحة أقوالهم ٢.

إن هذا المسلك الخبيث ضد الأمير عبد القادر محاولة فاشلة لتشويه جهاده وسيرته المجيدة فالمستهدف هو ما يمثله من قيم دينية ومثل وطنية وأخلاق ربانية ومبادئ إيمانية ومواقف إسلامية، فالأمير عبد القادر رمز للشعب الجزائري وللأمة الإسلامية والشعوب الحرة التي تسعى لنيل حقوقها وحريتها وكرامتها.

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٧١ ، ٢٧٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢٧٣.

إن حياته صفحة بيضاء ناصعة ونقية طاهرة واتهاماتهم الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى أمام الحجج الدامغة وتذهب جفاء لأنها زبد وسيرته العطرة تبقى نبراساً وقدوة وأسوة لأنها تنفع الناس، إن أعداء الأمة الإسلامية حرصوا على تشويه حتى سير الأنبياء والافتراء على تاريخهم وقد عانى من ذلك أيضاً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أبي هريرة رضي الله عنه ولم يسلم أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم من الطعن والإفتراء والتشويه.

إن كل الذين إدّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهده إياه ملك إيطاليا فيكتور عما نوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة، وهذا من دون أي تعليق سوى عدم الرغبة في الإطالة والحقيقة أن هذه الحجة هي أيضاً باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في باب "القليل والقال" نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية لهذه الجمعية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة.

فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض استعمارية غير خافية ولكن مما يؤلم أن نرى أكاديمهم وقد تناقلتها أفلام مؤلفين من أبناء أمتنا وكأنهم أفعى ظفرت بصيد ثمين.

لم يكلف أحد من المؤرخين الذين نسبوا للأمير انتسابه إلى هذه الجمعية نفسه عناء البحث والتمحيص، فذكروا ما ذكره نقلاً لا تحقيقاً وبحثاً من دون أن يقدموا مستندات أو حقائق علمية ما جاؤوا به^١.

. ومن الأدلة الدامغة التي أوردها الدكتور فؤاد صالح السيد مقال للأمير سعيد حفيد الأمير، فيه نفي صريح وشديد وتبرئة للأمير عبد القادر مما نسب إليه في هذا الموضوع ومما جاء في نص الأمير سعيد في مجلة الحقائق في سنة ١٨٦٩م دُعي الأمير عبد القادر مع من دُعي من ملوك لحضور احتفالات فتح ترعة السويس وبينما الأمير عائداً لسوريا عن طريق الإسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها تكلمت أمامه عن مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية، فأثنى الأمير على ما ادّعته من خدمات للإنسانية فاتخذ بعض المنتمين لهذه الجمعية من هذه الزيارة إشاعة حسنة لدخول الأمير في جمعيتهم وبالتأكيد هذا الزعم باطل، ولا يليق بهذا الجمعية، فهو كذب وبهتان ومن المعلوم أن جمعية الماسون لها نظام كسائر الجمعيات في العالم ولا يدخل أحد بها إلا بطلب رسمي يسجل على أنه دخل بإرادته، فأين طلب الأمير الذي يجب أن يطبع على حجر كما جاء في نظامها المعروف؟

. وفي هذا العصر ألف أحد الكتاب الفرنسيين مع اثنين جزائريين كتاباً وُضِع فيه ثلاث أو أربع رسائل رغم أنها من الأمير إلى الجمعية، قُلِّدَ فيها خط الأمير وزوّر توقيعهم مع العلم أن تقليد خط الأمير عبد القادر من قبل الفرنسيين وغيرهم أصبح من استراتيجيتهم التي غايتها خدمة أهدافهم، ولقد فضح الدكتور صالح الخرفي عام ١٩٧١م في مجلة الثقافة الجزائرية في عددها الرابع هذه المؤامرة القديمة على فكر الأمير عبد القادر، وذكر الدكتور من أسماء من يرفعون في هذا الفن، فن تقليد خط الأمير منهم هنري بيريس و شيربونو،

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٧٧ ، ٢٧٨.

الذي كان في الجزائر الوصي على اللغة العربية وتقليد أنواع خطوطها قبل استقلال الجزائر ١.

إن اتهام الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تنهاوى أمام البحث العلمي ولا وجود لها في حقائق التاريخ وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح والجهاد في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب الشيطانية.

٨. من شعر الأمير عبد القادر في زوجته:

أ. هذه الأبيات يخاطب فيها الأمير الشاعر زوجته ابنة عمه:

ألا قل للتي سلبت فؤادي

وأبقتني أهيم بكل واد

تركت الصبّ مني ملتهباً خشاه

حليف شجّيّ يجوب بكل ناد

وما لي في اللذائذ من نصيب

تودّع منه مسلوب الرقاد

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد

وأرعاه ولا يرعى ودادي

أريد حياتها وتريد قتلي

بهجر أو بصدّ أو بعاد

وأبكيها فتضحك ملء فيها

وأسهر وهي في طيب الرقاد

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

وتعمى مقلتي إما تناءت
وعيناها تعمى عن مرادي
وتهجري بلا ذنب تراه
فظلمي قد رأت دون العباد
وأشكوها البعاد وليس تصغي
إلى الشكوى وتمكث في ازدياد
وأبذل مهجتي في لثم فيها
فتمنعي وأرجع منه صاد
وأغفر العظيم لها وتحصي
عليّ الذنب في وقت العداد
وأخضع ذلّة فتزید تيهاً
وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عزّ
وما أنفك في دُليّ أنادي
فما في الذل للمحبوب عار
سبيل الحب دُلّ للمراد
رضا المحبوب ليس له عدیل
بغير الذل ليس بمستفاد
إلا من منصفی من ظبي قفر^١
لقد أضحت مراتعه فؤادي

^١ ظبي قفر : غزل البرية.

ومن عجب تهاب الأسد بطشي
ويمعني غزال عن مرادي
وماذا غير أن له جمالاً
تملك مهجتي ملك السواد
وسلطان الجمال له اعتزاز
على ذي الخيل والرجل الجواد
وهذا الفعل مغتفر وزين
إذا يوماً أبيت على معاد
فإن رضيت عليّ أرت محياً
بشوشاً بالملاحة ظل باد
خليلي إن أتيت إلي يوماً
بشيراً بالوصال وبالوداد
فنفسي بالبشارة إن ترمها
فخذها بالطريف بالتلاد
إذا ما الناس ترغب في كنوز
فبنت العم مكتنزي وزادي^١
وقال أيضاً في ابنة عمه زوجته هذه القصيدة:
إلام فؤادي بالحبيب هتور^٢؟
ونار الجوى بين الضلوع تتور
وحزني مع الساعات يربو مجدداً
وليلي طويل والمنام نفور

^١ فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٤.

^٢ هتور : مولع دنف

وحتى متى أرعى النجوم مسامراً
لها ودموع العين ثم تفور؟
أبيت كأني بالسماك موكل
وعيني حيث الجدّي دار تدور^١
أود بأن أرى ظبي الصحارى^٢
وأرقب طيفه والليل سار
وأطلب قربّه فيزيد بعداً
قديمًا من وصال في نفار
وهذا الظبي لا يرعى ذماماً
ولا يرضى مؤانسة لجار
يتيه بدله ويصول عمداً
غني بالجمال فلا يداري
أمازحه فلا يرضى مزاحاً
وأسأله المراء فلا يماري
ويعتبي^٣ فيكسو القلب بسطاً
لأن العتب يطفئ حرّ ناري
فإن هو لم يجد بالوصل أصلاً
ويدي الطيف من سكني وداري
أقلّ للنفس ويك ألا فذوي
وموتي فالقضاء عليك جاري

^١ السمّاك : نجم معروف ، والجدي : برج من أبراج السماء.

^٢ ظبي الصحارى : غزال الفلوات.

^٣ ويعتبي : يقبل عتاي.

ويسلبنى الحياة إذا تبدى

بوجه في الإضاءة كالنهار^١

٩. أيامه الأخيرة ووفاته:

كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل و ينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م وأصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعد الناس.

كان الأمير عبد القادر يستيقظ قبل الشروق بساعتين وينصرف إلى الصلاة وتلاوة القرآن والأذكار والتفكير في فقه القدر على الله عز وجل ويبقى حتى شروق الشمس وبعد صلاة الشروق يعود إلى منزله ويتناول وجبة خفيفة ثم يعمل في مكتبته حتى الظهر وأذان الظهر يدفعه إلى المسجد من جديد حيث يكون تلاميذه قد تجمعوا بانتظار وصوله فيأخذ مقعداً ويفتح الكتاب الذي اختاره للمناقشة ويقرأ فيه بصوت عال تقاطعه باستمرار طلبات الإيضاح التي يقدم الأجوبة عليها فاتحاً الكنوز العديدة في الدراسات والأبحاث التي جمعت لديه طيلة حياته المديدة.

وبعد صلاة العصر يعود عبد القادر إلى منزله حيث يمضي ساعة مع أولاده . مستوضحاً عن النتائج التي حصلوا عليها في دراستهم ثم يأكل وعند غروب الشمس يعود من جديد إلى المسجد حيث يدرس لمدة ساعة ونصف وتنتهي مهمته كمدرس لذلك اليوم ومازالت لديه بعض الساعات يقضيها في المكتبة ثم يذهب ليرتاح.

وكان الأمير عبد القادر دقيقاً أيضاً في إحسانه كل يوم جمعة كان بالإمكان رؤية الشارع المؤدي إلى منزله مليئاً بالفقراء المجتمعين كالعادة لتوزيع الخبز وكان الفقراء الذين يموتون مفلسين تماماً ليس في حيه فقط وإنما في دمشق كلها يدفنون على نفقته، ويكفي أن

^١ فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٥.

يسمع بمعاناة إنسان ليسعفه فوراً وكان يكرس بصورة مستمرة جزءاً من ماله للأعمال الخيرية.

استفاد من ذهابه الأخير للأراضي المقدسة وحج مرتين وبقي في مكة والمدينة تلك الفترة المتواصلة، استقبله شريف مكة وأمر بتخصيص غرفتين له في الحرم واستفاد من العلماء والعباد واجتهد في طلب العلم وفي العبادة، وبقي في مكة اثني عشر شهراً متتالية وصرف كامل وقته للدراسة والصلاة والتأمل والصيام وملاقة العلماء والزهاد وطلاب الآخرة ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة بقي بها أربعة أشهر على مقربة من المسجد النبوي ثم عاد إلى مكة للحج من جديد وكانت تلك الرحلة زاداً روحياً لبقية حياته حافظ على ذلك حتى أيامه الأخيرة ١.

أ. مرض الأمير عبد القادر ووفاته:

مع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خفّ نشاطه وجهده وعمّت الإشاعات عن حالته الصحية وذهبت بعض الصحف إلى حد إعلان وفاته عام ١٨٨٠م فرثاه الشاعر محمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي، واطلع الأمير على ذلك وكتب يشكره وكذلك الجرائد على اهتمامها به وتقديرها له وكان ذلك مبعث للسرور للأمير في نفسه فقد علم بأنه بعد مماته سوف يكون له ذكر حسن "وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ".

وأثناء تلك الأيام زاره الأديب التونسي محمد السنوسي، فأكرمه وأحسن ضيافته وذكر الأديب التونسي جزءاً من سيرته ومرضه بعد ذلك في كتابه الرحلة الحجازية.

وفي بداية شهر ماي ١٨٨٣م وكان معتكفاً بمصيف دمر في داره يتهدد ويتبتل لربه، اشتد عليه مرض المثانة وحصر البول، فزاده الضعف والهزم وفي منتصف ليلة السبت ٢٦ ماي ١٨٨٣م دعاه موله وقبضت روحه وحان أجله وغسله ونزله وضيّفه الشيخ عبد الرحمن عليش الأزهري وفي الصباح نقل في عربة من قصره في دمر إلى داره بالشام وصلى

^١ فارس الجزائر الأمير عبد القادر، ص: ٣٢٧ - ٣٢٨.

عليه في المسجد الأموي في مشهد قلّ نظيره وخرج لتشيعه جمع كثير وجمع غفير مع الخضوع والتذلل وشيعته دمشق عاصمة الأمويين في موكب مهيب ودموع وقصائد رثاء سطرت بمداد مضيء، ويكتب مقالات جاءت لتكون اعترافاً بمكانته النضالية والفقيهة والإنسانية وتكريماً لهذا البطل من الله عز وجل على لسان سكان هذا الكوكب ١. قال تعالى: "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

ودفن في الصالحية من دمشق أسفل جبل قاسيون بحي المهاجرين ٢

ب . رثاء في الأمير عبد القادر:

. ومن الشعراء الذين رثوه الشيخ العلامة الكبير طاهر الجزائري فقال في رثاه:

خطب تبدلت الدموع به دماً

وجرى كغيث هاطل مدرار

وغدت به الأكباد وهي كلمة

حرّاء حامية كجذوة نار

إلى أن قال:

وا حسرتا لليل من ذا بعده

يحييه بالطاعات والأذكار

ذهب الذي قد كان برّاً عابداً

مستغفراً لله في الأسفار

لهفي على الفقراء من ذا بعده

ينجيهم من مقلب الإعسار

ويرد ناب البؤس عنهم نائياً

١ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٨٠.

٢ حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٤٥.

وينيل ما راموا من الأوطار
لهفي على الأيتام ماذا بعده
يلقون من ضنكٍ ومن إقتار
ذهب الذي قد كان خيراً أب لهم
يوليهم فيض الندى المدرار
لهفي على الأدباء من ذا بعده
يلقونه ببدايع الأشعار^١
. ورثاه من أدباء عصره الأديب حسن بيهم من وجهاء مدينة بيروت، فقال في
قصيدة من ستين بيتاً منها:

مصاب به العلياء تبكي أميرها
وكل أمر من ذا المصاب به شطر
به جاء ناعي البرق يرعد قلبنا
فأمطرت الآفاق ما ضمه الصدر
أجل مات عبد القادر الحسيني من
به سادت وافتخر الفخر
قضى العمر شغلاً لم يذق طعم راحة
وما شغله إلا الجهاد والذكر
يراقب وجه الله في كل حالة
وما للهوى نهي عليه ولا أمر
غدا في جوار الله أكرم نازل
وبين ملوك الأرض كان له الصدر

^١ فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٣٢.

به ملتقى البحرين للعلم والندى
ففي صدره بحر وفي كفه بحر
وإن أعمل الصمصام أنشد وقعه
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وإن شق قلب الحرب يوم كريهة
يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر
فقدناه والآمال ترجو بقاءه
وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر
وساعة ساروا يحملون سريره
قد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحر دموعهم
على أنه هول به أقفر البر
لئن مت يا مولاي والموت سنة
ففضلك باق في الأنام له الذكر^١

ج. نقل رفات الأمير إلى الجزائر عام ١٩٦٦م:

لم تنتهي ملاحم الكفاح وبطولات الجهاد ونضال الأبطال بالجزائر يستلهمون الصبر
والعزيمة جيلاً بعد جيل من عقيدتهم وكتاب ربحهم وسنة نبينهم، وتاريخ آبائهم واجدادهم
سيأتي تفصيل نضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال من بعد الأمير عبد القادر في الجزء
الثاني من هذه الموسوعة.

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

لقد استمر الشعب في الكفاح وقدم قوافل الشهداء فأصبحت ثورة تعرف بثورة مليون ونصف مليون شهيد واحتضن الشعب بجميع فئاته وأحزابه هذه الثورة وغذاها بالقوة والرجال إلى أن يئست فرنسا من النصر وكان الجنرال ديغول قد وصل إلى الحكم وأصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية وقدم عدة مشاريع لإنهاء الثورة لصالح فرنسا، فباءت جميعها بالإخفاق الذريع وأخيراً اضطرّ إلى تقديم مشروع الاستفتاء فنالت الجزائر على إثره استقلالها التام وانتصر الحق وزهق الباطل " إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا".

وأخذت جحافل المستعمرين المنهزمين تغادر البلاد بعد مائة وثلاثين عاماً من الاحتلال، وخرج آخر جندي ومستوطن فرنسي، وعادت الجزائر حرة مستقلة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل تضامن أبنائها ووحدتهم الوطنية والدينية، ووقوفهم ضد المستعمرين كالبنيان المرصوم

ولم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها، وزعمائها رفات الأمير عبد القادر فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاتة من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الدولة السورية وتم الاتفاق.

وفي احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء بعد أن أصبحت دار سلام ليُواري في التراب الذي روته دماء جروحه وتضحيات إخوانه وجنوده وابناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

سار الموكب المهيّب في شوارع دمشق وراء النعش الملفوف بالعلم الجزائري على عربة مدفع تتقدمها فرقة موسيقى الجيش وفرق رمزية من الجيش السوري تمثل جميع أسلحته إلى المطار، وعندما هبطت الطائرة التي تُقله في مطار مدينة الجزائر كان الملايين من الشعب بانتظارها، وعند سُلم الطائرة وقف رئيس الجمهورية وكافة الوزراء وأعضاء جبهة التحرير، وما إن أطل جثمان الأمير الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية

والوزراء لتحمله وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الآلاف من الجزائريين "الله أكبر" تشق عنان السماء وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء كما كانت دموع الفرح تملأ ما في الجميع وتسيل مدراًراً^١.

لقد قال الأمير عبد القادر لحظة الغدر به واعتقاله، إن الجزائر عربية وستبقى عربية حتى لو احتلّتموها مائة سنة، ويقال: أن التاريخ لقاء بين إرادة وحدث أما الإرادة فكانت عبد القادر ومقاومته الشعبية، وأما الحدث فكان بعد قرن من ذلك وهو كفاح الشعب الجزائري الذي نجح في التحرر من الغزاة المستعمرين. وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء حيّا بها دمشق الفيحاء بقوله:

يا دمشقُ الفيحاء الف تحية
قد عرفناك في الندى أموية
أي بُشرى حملتها لبلادي
برُفات الأمير أي هدية
وهو من قد سعى إليك اشتياقاً
يستحث الخطى ليلقى الحمية

إنما قد رعيت حق إخاء
عربي يا أختنا العربية
فاته أن يعود للدار حيّا
ويرى الدار في الكرامة حيّة

ثم قال مخاطباً الجيش الجزائري:

^١ الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٧٦.

انزلوا في العيون أو في الحنايا
يا جنود الأمير هدي البقايا
أيُّ قبرٍ يضمها وهي أفقٌ
من معالي وقمة من سجايا
من غلاها استمد جيشٌ بلادي
ذلك العزم يوم خاض المنايا
فدعوها منارة من سناها
يتلقى الهدى جميع البرايا
هي ليست كما سمعتم زُفَاتاً
بل تُراث مقدساً وعطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

أرجع الطرف غير هذي البطاح
لن ترى يا أمير غير النجاح
ذهب الغاصبون لا دو ميشيل
ولا دورليان ولا صليل السلاح

مات ييجو وألف ييجو وأودى
كل جيش رمته هُوج الرياح
غبت لكن بقيت في كل شخص
ماثلاً في القلوب والأرواح
لم تغب عن عيونهم في مكان

كلُّ شبر ظنوه "خنق النطاح" ١

أنت في كل نائركنت تحيا

عبقريا محنكاً في الكفاح ٢

ح . كلمة الرئيس عبد العزيز بو تفليلة التي ألقاها عام ١٩٩٩م بمناسبة إحياء الذكرى ١٦٧ لمبايعة الأمير عبد القادر هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته

لقد جئناك في الموعد وفي المكان وفي البقعة المباركة بالذات التي تمت فيها مبايعتك في ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م. جئناك بمثل ذلك الحماس الصادق الجياش الذي كانت تطفح به قلوب أولئك الجزائريين والجزائريات الذين وضعوا ثقتهم وأموالهم في إمام الجهاد والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى المختار الحسني فبايعوه بالإمارة ليقود جهادهم ضد العدو الغازي ومسيرتهم المظفرة نحو الغد الأفضل.

وكيف لا يغمري الفخر والاعتزاز وأنا أفق وقفتي هذه بهذا المكان وأمام الشجرة المباركة الثابتة في عهدنا هذا الذي استعاد فيه بلد الأمير عبد القادر كامل سيادته وحرية وكرامته بفضل وفاء الأجيال المتعاقبة المتواصلة التي تمسكها بالعهد المقدس الذي قطعه شعب برمته على نفسه وأودع مضمونه في أعماق ذاكرته الجماعية متواصيا جيلاً بعد جيل بالوفاء له والالتزام به ليتوارثه أبنائه البررة اباً عن جد.

^١ خنق النطاح : معركة انتصر فيها الأمير على فرنسا.

^٢ الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٧٧.

وكيف ولا ألي وأنا مدعو إلى حضرة القائد الهمام الذي كان نبراس الأجيال المتوالية وسبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكيف لا ألي الدعوة إلى حضرة من علمنا الرفض، رفض القيم والجور، من علمنا رفع ثوبنا عن كل لوم، من علمنا الذود عن الدين بذلك النضال المستميت، من علمنا ركوب كل هول من أجل المكارم والثبات عليها، من علمنا كيف نجعل الغدر منا محالاً وكيف ترقى بنا المكارم وتنوع فينا الخصال، من علمنا كيف نكون نحن الرجال رجالاً للرجال كيف لا آتي إلى هذه الحضرة وأقف وقفة من سبقنا من الأجداد وقفة تحلي وإكبار وخشوع وأبايع رمز الأنفة والإباء، رمز المجد والشموخ وأبايع هنا كل عظيم حبلت به الجزائر لنجدتها وتحريرها وإعلاء شأنها، ابايع السيد المهاب الذي يبقى أبد الدهر مهاباً وإن رحل إلى جوار ربه منذ عقود عديدة مضت وأسكنه فسيح جناته.

فيا لها من وقفة لم تبق من حزن في قلب مضني ولا كذا لدى ضجر.

ايها السيدات أيها السادة:

إن أول ما يترتب علينا في مثل هذه المناسبة الطيبة من واجبات هو أن نشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم علينا به من استعادة الاستقلال وسيادة كاملة على أرضنا محققاً لنا بذلك الغاية التي كرس عبد القادر جهاده في سبيلها بعد أن غرس في قلوب أبناء وطنه الغيرة عليها يتوارثونها اباً عن جد ويحمل شعلتها عبر السنين أبطال وبطولات من أمثال لا لا فاطمة نسومر والشيخ الحداد والمقراني والشيخ بو عمامة والشيخ بو زيان والأمير خالد وميعالي الحاج وغيرهم من رجيل أول نوفمبر المجيد.

ومن أخلص مظاهر شكرنا لله أيها الأخوة والأخوات أن نلتئم في مثل هذا الحفل المهيّب ونحدد مبايعة صادقة صريحة لروح قائدنا الذي لم يطلب الإمارة بل فُرضت عليه فرضاً من أجل تثبيت هويتنا وتنظيم مواجهة الاجتياح العدواني الكاسح للبلاد المبيد للعباد وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره فقبلها مكرهاً وحمل أمانتها محتسباً لخالفه وناكراً

للذات متفانياً مخلصاً وراح يستमित في الذود عن حق ربه ويواصل الجهاد بالسيف وبلسان الرشاد والسداد وبالعمل الدؤوب والمثابرة والإصرار رغم شح الوسائل وتفوق العدو عدة وعدداً وخذلان المناصر وفقدان المعين وتقاعس ملوك المسلمين وأمرائهم عن معونته ونصرته حتى باللسان، إنه جاهد وصمد في وجه الغزاة الدخلاء والخونة المارقين والقعدة من ضعفاء النفوس.

وكما بايع المسلمون جدك رسول الله محمد بن عبد الله تحت الشجرة، وقال تعالى في سورة الفتح: "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" صدق الله العظيم، كذلك بايعك الجزائريون، إذ كنت أحسننا وأفضلنا فرحم الله أولئك الذين بايعوك تحت هذه الشجرة على سنة أجدادنا الذين اقتدوا بالأسلاف الأوائل في مبايعتهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يوم بيعة الرضوان، فما أحوجنا إلى صدق المبايعة التي خص بها أجدادنا الأمير ثم انصرفوا إلى ساحة الوغى يخوضون المعركة تلو الأخرى في خضم وهج السنايك وطعن القنا وخفق البنود ورعد المدافع وقصف البارود لا نشيهم لا مخاطر ولا صعاب ولا تغريهم محاسن عيش، ولا يحسبون للموت حساباً فكانوا قدوة حسنة لمن خلفهم من أبناء وأحفاد تسلموا منهم مشعل الجهاد فرفعوه عالياً وصانوا الأمانة من خلال معارك متواصلة على مدار القرن والنصف حتى أفضت إلى طرد العدو وإزالة دنسه عن أرضهم وكان سر نصرهم المبين وحدة الصف ورباط الدين الواحد والانتماء المشترك إلى الوطن والقيم الفاضلة وصدق العزائم وبقيت هذه أعمالهم وأخلاقهم إلى أن أدوا للجزائر حريتها وللشعب عزته وكرامته ومكانته المرموقة بين الشعوب والأمم وكأن الله أبى إلا أن يمحوا عار الخامس من يوليو ١٨٣٠م المتمثل في الاجتياح الجائر الظالم للجزائر بنصر مبين باهر صريح تمّ في نفس اليوم ونفس الشهر من سنة ١٩٦٢م.

ثم تابع رئيس الجمهورية كلامه فقال:

أيها السيدات أيها السادة:

تمر لشعوب العالم الحية الواعية في مسيرتها التاريخية بمحطات فتتوقف عندها للتأمل في خصلة أعمالها السالفة بمراجعة مضامينها على ضوء الأسباب والأجواء الخاصة التي ساهمت في أخذ كل قرار وإرساء كل اختيار فتكون مناسبة طيبة لمراجعة الذات وتغيير ما بالنفس والرجوع عن غواية أهوائها وتقييم أعمالها وذلك قصد مواصلة الطريق على أسس مجددة سليمة نحو غايات بينة الملامح مثمرة النتائج محمودة العواقب، فتعبي لها الوسائل الكافية المناسبة وتُشجّد لكسب رهانها المهم المخلصة الوفية.

إن المبايعة التي نحيي اليوم ذكرها المائة والسابعة والستين لتعد بحق من تلك المحطات المصيرية في تاريخ الجزائر المجيد وخصال شعبها الأصيل الأبي، إذ أقدم الجزائريون والجزائريات على تلك المبايعة دخلوا عهداً جديداً، عهداً متساوياً مع قيمهم السمحاء وتقاليدهم الخيرة عهداً يتميز بالغيرة على سلامة تراب الوطن واستقلالية والتطلع إلى التطور السريع المبني على العلوم وضروب الفنيات الحديثة، عهداً يفتح المجال أمام المساهمة الكاملة الفعالة للمواطنين في اختيار قادتهم وأخذ القرار عند البت في قضاياهم المصيرية. إنه ليس من باب المصادفة بعد بدء الغزو وتواصله وإن سقطت العاصمة واستسلم النظام العثماني القائم وأخذت جيوش العدو تكتسح مختلف المناطق تسفك الدماء تفتك وتهتك الأعراض والممتلكات أن تتجه الأنظار إلى الشيخ محيي الدين لتوليه زمام الأمور وإدارتها على الأسس التي يرتضيها الجميع.

أما الشيخ محيي الدين فقد رفض تولي السلطة لثقل مسؤولياتها وكبر سنه ولم يتولها ابنه غير مخير إلا لخطورة الوضع وجسامة المشاريع الإصلاحية التي تفتضيها في جميع المجالات أية محاولة جادة لمواجهة وإيجاد حلول لها إن حضورنا في الموعد والمكان قد تكون له أكثر من دلالة فنحن جئنا نجدد العهد ونستقي من معين الجهاد أركى ما فيه من معاني

حب الوطن المقرون بعبادة الله عز وجل هنيئاً لمن قاسموك على مر الأجيال جهادك بجهادهم، وكان سخاؤهم كبيراً وهم يجودون في سبيل الوطن بالنفس والنفيس والدماء الزكية الطاهرة هنيئاً لمن ولو بالاسوة الحسنة حاول الاقتداء بك وبصحابك في الرجولة والاستقامة والتعبير عن المواطنة حقوقاً وواجبات، هنيئاً لمن سخروا أقالمهم وبياتهم وبلاغاتهم فأضفوا المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم صفحات تاريخ البلاد المشرقة، ولكن هنيئاً كذلك لمن لم يتناسوا زعماءنا من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها فأعطوا كل ذي حق حقه بنعمة القصد ونظرة الشاعر ودقة المؤرخ وبأمانة الشاهد النزيه لكل رجل قام هنا أو هناك على مر الزمان مع زرافة من الأحرار ليقولوا رفضهم الذي لا رجعة فيه للمحتل والمغتصب وكل من أراد أن يغير فينا ما هو منا بما هو ليس منا، ولتكن نصيحتي رنانة مسموعة اليوم عند المجتهدين من الطلبة وخاصة أولئك الذين تخصصوا في علم التاريخ وهم لا يزالون يكدحون في الجامعات، فلتصل فرحتي إليهم حتى يزيلوا كل ما كدسه الغزاة من غبار على تاريخنا وأجدادنا ورجالنا وماضينا المجيد. ولكم يعلم أهل الذكر قيمة ما تزرعه معرفة تاريخ البلاد من مفعول في هم الرجال ونفوس الشباب الطامحين من غيرة للذود على حاضرهم وتصور مشرق بالأمل لمستقبلهم مفعم بثقتهم بالماضي الثقة التي ترسخ هويتهم وأصالتهم وتضرب في الأعماق بأطناب جذورهم.

وكل من يساهم في دراسة هذه الصفحة المشرقة من تاريخ الجزائر وإضفاء المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم ونهجهم وأقالمهم وعلمهم حروف بيانها من أمثال الأمير وخلفائه المتوزعين على مختلف مناطق البلاد.

أيتها السيدات أيها السادة:

إن سر صمود الدولة الجزائرية الحديثة التي وضع أسسها الأمير لمواجهة الغزو الاستعماري العاتي طيلة المجابهة المسلحة التي دامت خمسة عشر سنة كاملة وبقاء مبادئها حية متقدمة

في وجدان أبنائها عبر مختلف انتفاضاتهم المتواصلة الحلقات إلى غاية إندلاع ثورة نوفمبر المظفرة يعود إلى مميزات المبادئ القائمة عليها هذه الدولة وطريقة توزيع السلطات ضمنها والشروط الواجب توفرها في المسؤولين على المستوى المركزي والمستوى المحلي، ومن أهم مميزات هذه الدولة دولة الأمير عبد القادر:

. أولاً: طابعها الأخلاقي الذي تتميز به قوانينها ويتحلى به الرجال الساهرون على تطبيقها وخلفاؤه.

. ثانياً: التوزيع المحكم للسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية داخل هذه الدولة بما فيها الجيش وعلاقته الخاصة بالأمير الذي يراعاه بعنايته السامية ليكون الدرع الواقى للأمة.

. ثالثاً: التسامح الديني وتطبيق تعاليم الإسلام السمحاء على المواطنين من أهل من يهود ونصارى وحتى الأسرى من أفراد الجيش الغازي، فكان يراعاهم بعناية خاصة مطبقاً حقوق الإنسان التي شهد له بها العالم من ملوك وأمراء عهده في حادثة المسحيين بسوريا الحبيبة.

. رابعاً: ومن عظمة هذه الدولة الحديثة التي أنشأها الأمير أنها قامت على المبادئ التي بدأ ظهورها عبر القارة الأوروبية وهي المبينة على القوميات والحدود الفاصلة والرامية إلى إقامة "الدولة الأمة" جامعاً بين الأصالة والعصرية.

هذا، وكان الأمير في سعيه من أجل تحقيق المشاريع الضخمة يعتمد على التعبئة الشعبية وتضافر الجهود المخلصة عملاً بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جعل من مجاهدة النفس والعمل الصالح الدؤوب الجهاد الأكبر الذي لا أمل في تحقيق النصر فيه إلا بوقوف أبناء الأمة الواحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وإن لعلاقاته الخارجية وسمعته على الساحة الدولية إنجازات ومناقب يشهد له بها العدو قبل الصديق .

أيتها الأخوات أيها الأخوة:

كان تحرير الجزائر وبناء دولتها الحديثة صفحة من البطولات والتضحيات صور فيها شعبنا بروحه الأبية وبخاصة الشباب مثل الأمير عبد القادر ورفاقه، إصرارهم على عدم التنازل على أدنى ذرة من عزة الوطن وكرامته ورفع مكانته بين الأمم. وكان شباب الأمس يرمي بنفسه ونفيسه في سبيل تحرير الوطن ناكراً ذاته، فعلى شباب اليوم والغد أن يرمي في سبيل بقاء الجزائر عزيزة كريمة بالتفاني والإبداع. عزة الجزائر وهيبته في عزة الجزائر بنفسه وشيمه لا بماله وإنما بأخلاقه وروحه الأبية الوطنية لا بحسب ثروته وعصبيته وإنما في التعاون على النهوض بالمواطنة لا في جمع المال، فثروة العقل والإرادة لا بالذهب والفضة وجمعها.

هذه هي ايتهى الأخوات أيها الأخوة رسالة ذكرى المبايعة وعلينا أن نرتفع إلى مستواها، نقبل وننهض بهذه المسؤولية التي سبقنا إلى حملها أجيال وأجيال قبلنا، وننذر أنفسنا للقيام بها خير قيام، ثم يأتي من بعدنا فيواصل على الدرب، وحسبنا أن يقال عنا حينئذ أننا أدينا الأمانة وخدمنا جزائرتنا وأضفنا لبنة إلى صرحها الركين.

إن الله تعالى عظم شأن المبايعة وحذر من نكثها بقوله خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ" صدق الله العظيم.

فالشعب الجزائري لما هب لاستئناف النضال في أول نوفمبر ١٩٥٤م بايع الله وشهدائه وأسلافه الميامين على مواصلة التضحية من أجل كسب التحدي الكبير الذي يجب على كل أبنائها أن يهبوا لمواجهة ويعينوا كل طاقاتهم لتحقيقه بتحرير البلاد وبعث دولتنا الحديثة واسترجاع سيادتنا السلبية من ثمة علينا أن نسير على هدى من سبقنا ونستكمل المشوار معتمدين على الكفاءة العالية والأمانة التامة والولاء المطلق للشعب والأخذ بأسباب التقنيات المتقدمة والوسائل والأساليب الحديثة في مختلف مجالات التسيير والتخطيط والتقييم والمتابعة، ذلكم هو ما عقدنا العزم على التعهد به يرضي الله والشعب

الجزائري ومعه في المرحلة الجديدة التي دخلنا بعد ١٥ أفريل الفارط إنه بناء جزائر المستقبل والمجتمع الأفضل البناء الذي نأمل أن يكون ثلاثون مليوناً من البناء والمدرين والمقتدرين المؤهلين إخلاصاً وأمانة وكفاءة وترسخ فيه المنهجية الوطنية القائمة على توظيف نشر الحق والعدل والإخاء والمساواة أي كل شروط المواطنة الصالحة التي لا تُستوفى إلا بوجود الأسوة الحسنة وجوباً في قيادة البلاد من قاعدتها إلى قممتها وإلا تعذر تعميم العيش الكريم بين الجميع وبناء مجتمع الأمل والمحبة والخير قبل أن أودعك أيها الأمير أريد أن ألتمس منك عذراً إن كنا تطاولنا عليك أنا ورفاقي من ساروا إلى رحمة الله فاجتهدنا اجتهاداً مخلصاً وأرجعنا رفاتك إلى وطنك وأنت صاحب المواقف العظيمة وأنا هنا نعتقد أن الجزائر هي دمشق، ودمشق هي الجزائر ولربما كنت هناك في راحة أكثر مما لو كنت في أحضان شعبك وذويك.

إن إخوانك في الشام احتضنوك وبجلوك وكرموك وأنت الكريم وما كانوا يفعلون ذلك حباً فيك فقط ولكن كانوا ينطلقون من أنك من أبنائهم وأن شعب الجزائر شعبهم، كما كانوا آنذاك أنهم لا يزالون اليوم يفرحون لأفراحه ويتراحون لأتراحه ويقاسمون السراء والضراء، فأنعم به شعباً سورياً قوي الشكيمة في الوطنية يعرف قيمة الرجال الذين تساموا بأرواحهم وارتقوا إلى ما لا زلنا نتغنى به من مكارم الأخلاق على أبناء البشرية جمعاء، إننا قوم لا نتنكر الجميل ونعتذر اليوم لمن اختطفناك منهم تحفظاً ولا يوحى من نية أنانية لقد أتينا بك إلى وطنك، وطنك الأول برضاهم. ارجعناك إلى ديارك حتى نقول لمن أبعوك عن مسقط الراس وبيتك من الشعر لمن قالوا بالأمس عدنا إليك يا صلاح الدين بنفس النخوة والاعتزاز والقوة. لقد عدنا بك يا عبد القادر والوطن العزيز يهتز خففاً للحدث العظيم من الشام إلى الجزائر وسيعود صلاح الدين إلى الجولان فيسترجع الجولان كل الجولان وجنوب لبنان، كل جنوب لبنان ويعطي للفلسطينيين حقهم المشروع في دولتهم المستقلة بعاصمتها القدس.

إنك اليوم يا عبد القادر كباقي الشهداء لا امتياز يحيط بك أو يفضلك عليهم إلا ما تركته من حسن الذكر وما تركت من جميل الخصال وكريم الأعمال ومن تراث ثقافي تغبط عليه في الجزائر وخارجها.

هل جئنا اليوم لتذكر فقط أو جئنا للتأمل فيما صنعت أنت والصديقين والشهداء الذين توافدوا من بعدك في كل شبر من الوطن، للتأمل في المعنى العميق للرسالة التي أورشتموها للأجيال، أو لا تسمحون أن أخبركم بأن الوطن كاد يضيع ولا زال البغاة من أعدائه في الداخل والخارج يريدونه في مهب الريح، ينتهكون الأعراض ولا يستحون، يقتلون الأطفال ويتجحون يفسدون في الأرض فساداً، يخربون بيوتهم بأيديهم ويدخلوا السرور والبهجة في كل مشؤوم يتربص ببلادنا الشر ويبتغي لها الإنحيار.

ولكن ها هو الشعب قال قولته الفصل وقولة الشعب فصل وما هي بالهزل، إنه شعب جنح إلى السلم والسلام إلى المصالحة والوئام.

وكما جئنا نعاهدك اليوم على أن نبقي على الدرب سائرين لقد عاهد شعبنا نفسه وربه أن يبقى هو أيضاً على العهد يدفع أغلى ثمن من أجل السلام ووحدة الجزائر تراباً وشعباً والدفاع عن النظام الجمهوري والالتزام بهيبة الدولة واحترام صرامة القانون في عدالته.

قد يسمعي شباب لا يفهم لهجتي ولا يقفه كلامي لأنه استقى من وطنية تمخضت عن الاستعمار الاستيطاني والاحتلال وهو لا يعرف شيئاً عن تلك العهود، ينظر إلى واقع الدنيا وكأنه في شاشة التلفزيون ويريد أن يصل اليوم قبل الغد إلى مستوى الدول المتقدمة ولا يعرف إطلاقاً ما دفع في سبيل ذلك من ثمن وجهود وتضحيات شباب طموح منكوب بمآسيه من تزعزع الأمن والبطالة والحاجة إلى السكن والتطلع إلى المدرسة وانتظار المستشفى إلى غير ذلك من حاجيات لا تخفى علينا كما هي لا تخفى عن أبناء شعبنا الصالح منهم والطالح، شباب يرى من يتجح تبجحاً مشيراً مستفزاً لحرمانه مما دفع به إلى فقدان الأمل والرؤى القائمة للمستقبل، لقد فسدت الأخلاق وعمّ فسادها أمن رجال

ونساء لازالوا للعهود حافظين يغيرون على هذا الوطن الذي حباه الله بأهمية الموقع واعتدال المناخ وشساعة الأرض وتعدد الإمكانيات حتى أشارت إليه الأصابع بخير وكذلك بسوء.

أمن غيورين على بلادي ليتعاونوا اليوم على البر والتقوى ويتأكدوا نهائياً أن ليس لهم عن الجزائر وطناً بديلاً، وأنه لا بد أن يتقاسموا العيش في أرجاء هذا الوطن الحبيب، وأن لكل شيء بداية وبداية الأمور اليوم عندنا هو استتباب الأمن والاستقرار ومن ثم نقسم بالله، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ما من شيء تعسر اليوم على البعض إلا تيسر غداً للجميع، وإن بلادي من عند الله مرموقة من أحبها أحبها بعشق المتيمين ومن كرهها لا يجد راحة في التآمر عليها وعلى مصيرها.

ومن هذا الباب أتوجه إلى أخواني أبناء شعب جزائرتنا الغالية وأغتتم فرصة إحياء ذكرى مبايعة الأمير عبد القادر واستعين بالله وبكم وأدعوهم مرة أخرى إلى طريق الرشاد إلى سبيل العزة إلى نهج الكرامة ولن يكون ذلك إلا منا جميعاً نساءً ورجالاً شباباً وكهولاً مشمرين عن السواعد في بناء الوطن والتوكل على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ونعم الوكيل.

وبارك الله في كل غيور لا زال يغار على عزة الجزائر وعلى كرامة شعبها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ١.

س . إطلاق اسم الأمير عبد القادر على مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية وإشعاع الأمير في العالم:

إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل.

١ فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٥٥-٢٦٦.

لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم الغربي كما كان له صدى كبير حتى في أمريكا.

وهكذا ففي سنة ١٨٤٦م أسست مدينة صغيرة بولاية إيووا "Iowa" من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون وتيموثي ديفيس، وتشتت سايج، أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير وهكذا فإن سمعة الأمير قد تعدت بكثير مجال نشاطاته ولم يكن من وراء هذا العمل الذي يشرف عليه إلا الإعجاب بهذا الرجل العظيم وبعد أن إتفق الرجال على تسمية هذه المدينة التي كانوا ينوون تشييدها قال لهم تومسان: فلنتقابل غداً لوضع مخطط هذه المدينة، وهكذا فبعد ١٢٥ سنة سيعلم الناس بأن شيء يتعلق الأمر. وتعبير هذا فإن تومسون كان يعلم بأنه هو وأصحابه قد أحسنوا الاختيار ولم يخطئوا فيما يخص خلود شهرة هذا الرجل الذي شرفوه وتروي الصحيفة المحلية "سيدير رايد قازيت" أن يوم ٥ نوفمبر ١٩٨٥م قد خصص "يوم عبد القادر" أي بعد مرور ١٣٩ سنة من وضع أولئك الرواد الأشاوش لمخطط مدينتهم.

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لشخصية الأمير هم الوحيدون الذين اندهشوا لتعدي إشعاعه المحيطات في زمن كادت به الاتصالات أن تنعدم، في نفس الوقت كانت كل أوروبا تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقاتله البطولي وعبقريته التنظيمية وهذا من قبل حتى معاهدة التافنة التي أقرته كرئيس دولة كتتويج لنضاله الطويل.

وهكذا كتب المؤرخ الإنجليزي لورانس كايف: إن سمعة الأمير قد أصبحت أوروبية منذ ١٨٣٥م، وهذا الإعجاب بعبقرية الأمير الحربية ووطنيته الفياضة سرعان ما تحول إلى تعاطف عميق عندما بدأ نجمه يفل ثم انقلب بعد ذلك إلى سخط على تنكر الدولة العظيمة لوعدها وقد كتبت مجلة "التايمز" مقالاً في هذا الموضوع ١٠ / ١٠ / ١٨٥١م: إن

^١ الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٢٧٩.

لعبد القادر في سجنه بفرنسا، نفس الصدى العالمي الذي حققه في السابق عندما كان يقود فرسانه العرب.

كما أن كارل ماركس قد أجرى دراسة حول الأمير تكاد تكون مجهولة ويصفه فيها "قائد مغوار" والرأي العام الفرنسي بدوره قد حيّ وبعبارات كثيرة ما كانت طنانة، شجاعة الأمير في القتال وعزة النفس حين البلوى، وزيادة الوسام الرفيع للجوقة الشرفية فإن فرنسا قد منحته وساماً كتبت عليه العبارات التالية: أمير من شمال أفريقيا مدافع عن القومية العربية وحام المسيحيين المضطهدين^١.

إلا أن عمله البطولي خلال أحداث دمشق بالذات هو الذي زاد كثيراً من إشعاعه في الغرب، أما فيما يخص الحكومات فإنها جميعاً قد منحته أسمى أوسمة بلادها.

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن عمله البطولي والإنساني لصالح المسيحيين لم يرفع مكانته عند الغرب فحسب ولكن العالم العربي في مجمله قد قدر عمله سواءً من الناحية الإنسانية أو السياسية وفهم أن تقتيل الأبرياء لولا التدخل الشجاع للأمير، كان سيؤدي بفرنسا إلى وضع يدها على سوريا.

وقد رأينا أن أول من منح الأمير وساماً ووضع صورته بجانب صورة أجداده كان السلطان عبد المجيد نفسه وقد وصلت شهرة الأمير إلى حد أن الخديوي كان يغير منه ويخشى منه على عرشه.

ولنذكر في الأخير هذه الملاحظة التي أبداها الملك فيصل ملك العراق سنة ١٩٢٠م لكاتب فرنسي يدعى "ب. ديسنايور سانتان" "يعد الحاج عبد القادر واحداً من أكبر رجالات الإسلام وأكثرهم مدعاة للإحترام وأجدرهم بتقدير الإسلام وإجلاله"^٢.

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢٨٢.

تاسعا: ثورات الشعب الجزائري بعد الأمير عبد القادر

١. ثورة الزعاطشة:

بعد سنتين من توقف ثورة الأمير عبد القادر اندلعت ثورة الزعاطشة وهي واحدة بمنطقة الزاب الظهراوي ٣٥ كيلو جنوب غربي بسكرة قادها بوزيان شيخ الطريقة الدرقاوية بالزيان الذي عمل في دولة الأمير كشيخ على سكان الزاب الظهراوي، بدأت الثورة بتدمير القرويين من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون على كل نخلة وأيدهم الشيخ بوزيان وتوجه الجيش الفرنسي فاعتقله فهدب الناس وافتكوه من معتقله بالقوة وانفجرت عند ذاك الثورة واستمرت المعارك بين فرنسا والثوار وحشدت فرنسا قوات هائلة في ١٢ / ١١ / ١٨٤٩م وبدأت معركة سيدي مرزي وراحت القوات تقذف جدران القرية بالمدفعية لفتح ثغرات في سورها تمكنهم من الدخول ومهاجمة منزل الشيخ بوزيان ومساعديه مثل بو عزوز والحاج موسى والشريف بو عمار واستمر هذا القصف حتى منتصف نهار ٢٦ / ١١ حيث اقتحمت الجيوش الفرنسية القرية داراً داراً وزقاقاً زقاقاً في حرب شوارع شبيهة بحرب شوارع قسنطينة لدى سقوطها سنة ١٨٣٧م ودافع الشيخ بوزيان وابنه ورفيقه الحاج موسى بشجاعة وسقطوا شهداء برصاص العدو وقذائف مدافعه وجز الفرنسيون رؤوسهم وعلقوها على أبواب مدينة بسكرة عدة أيام تكبد الفرنسيون ١٥٠٠ بين قتيل وجريح.

قامت قوات الجنرال هيريون بارتكاب فظائع مرعبة فدمرت المدينة وقطعت عشرة آلاف نخلة هي كل ما يملك سكانها، ودمرت كل منازلها وشنقت ١٥٠٠ مواطن أمام الملاء ووسط خرائب البيوت وأرغموا من بقي من السكان على الهجرة إلى جهات أخرى حددوها ليعملوا بالسخرة في حظائر العمل التابعة للكلون.

فقد روى المؤرخ بوديكور: هنا جندي قطع ثدي امرأة راحت تتوسل إليه بأن ينهي حياتها وهناك جندي آخر حمل طفلاً صغيراً من رجله وحطم رأسه على جدار فخرج

رأسه من جمجمته، هنا وهناك كانت مناظر مخزية يحجل أي شريف من سردها، لقد تركت هذه الثورة دويًا كبيراً في الداخل، فالأعمال البربرية هذه لم تكن ضرورية وهي من شأنها أن تثير الذعر بين الناس ولكنها تغرس الكراهية في نفوسهم ضد المستعمرين وتلد ثورات أخرى. قال بيليسييه دو ريننو: إنني لا أخشى أن أقول إن مجد المهزومين يُشحب لون وجه المنتصرين^١.

٢. ثورة بو بغلة ولالة فاطمة نسومر:

قرر الفرنسيون إخضاع منطقة القبائل والشمال القسنطيني فقد بقيت منطقة الجبال غير خاضعة للاحتلال وهي الممتدة من متيجة غرباً وحتى وادي الصفصاف، ومن البحر شمالاً وحتى السهول المرتفعة لمجانة وسطيف جنوباً في يوم ٩ / ٥ / ١٨٥١م توجه الجنرال سانتارنو من ميللة على رأس جيش قوامه ٨٧٠٠ جندي فوصل جيجل يوم ١٦ وتقدم حتى الوادي الكبير واصطدم بمقاومة كبيرة لكنه تمكن من التقدم نحو القل، وأخضعت القبائل بين القل وجيجل "مايو - يوليو" ثم سلك طريق بجاية سطيف ودمر وأحرق قرى أربعين قبيلة وكتب لزوجته يفتخر بأنه أحرق بنفسه ١٠٠ منزل مغطاة بالقرميد وقطع أكثر من ألف شجرة زيتون، وتصور أنه أخضع المنطقة نهائياً لكنه ما أن عادت قبائل نواحي القل وجيجل للثورة قرر الجنرال هوتبول إخضاع القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وبدأ بالكبرى حيث دشرات زواوة ووادي سباو.

وظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله المشهور ببو بغلة سنة ١٨٥١م ودعا الناس إلى الجهاد واستجاب المواطنين له في تلك المناطق وكانت لالا فاطمة نسومر إلى جانب بو بغلة واجه الثوار جيشاً بقيادة الجنرالين راندون وماكماهون وخاضوا معه معركة ضخمة في هضبة تيميزغيدة.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٥. ٥٦٦.

وفشل العقيد دوريل في محاصرته وفي أبريل نيسان سار جيش كبير على رأس جنرالات هما كامو وبوسكيه غربي واد ساحل وعاقبا القرى التي استقبلت الشريف كتبت صحيفة "مونيتور": كل قرى أورلزان نُهبت وأحرقت وتركت شوارعها مزروعة بجثث الناس والمواشي.

كان بو بغلة مدعوماً بزواوة: قبائل المعاكطة والقنشولة وبني عيسى والفيليسة، طارده الجنرال جوني نحو الشرق في اتجاه وادي سباو، فأحرق ثلاثين قرية وتوجه العقيد بورياكي نحو قرى بني كوفي فدمرها وهاجم قبائل فليسة نوفمبر ١٨٥١ م. واستمر الشريف بو بغلة في كر وفر مع جيوش العدو. يبرر الجنرال روندون التدمير فيقول: لا بد أن نترك على الأرض آثاراً لانتصارنا بواسطة تدمير جزء من ثروة الذين هزمناهم^١.

٣. ثورة الشريف محمد بن عبد الله بو رقلة:

ظهرت ثورة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وامتدت حتى ورقلة وتقرت ووادي سوف في أوائل ١٨٥١ م وقد سبق للشريف محمد أن اختلف مع الأمير عبد القادر وهاجر للمشرق حيث قضى هناك ثلاث سنوات ثم عاد للجزائر مؤمناً بضرورة استئناف مهمة الأمير عبد القادر وقيادة الجهاد لتحرير الجزائر من الغزاة، دخل طرابلس ومنها إلى غدامس ثم تقرت وقصد زاوية الرويسان قرب ورقلة ونادى بالثورة واستجابت له الجماهير واتخذ الاغواط قاعدة له ثم راح يشن هجماته على مراكز الفرنسيين بالتل.

قاد الجنرال روندون جيشاً وتوجه إلى الأغواط وانسحب الشريف وانتقم الفرنسيون من النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوه في واحة الزعاطشة فأحرقوا المنازل ودمروا كل شيء. وقد روى العقيد تروملي: كانت مذبحة مرعبة اختلطت فيها جثث النساء والأطفال بجثث الحيوانات وأحرقت الجثث ورميت في الآبار ويعتبر الذي قمنا به عاراً ما يعده عار،

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٧.

لقد اشتكى بعض المطعونين بالسيوف بأن هذه لم تكن حادة فتقتل على الفور بل تركتهم يتعذبون.

ويروي الكاتب الورسام فرومنتان أوجين: لقد روى لي ملازم شارك في مجزرة الأغواط ما حدث لامرأتين شابتين شاهدهما بعد أن اغتصبهما الجنود وقتلوهما بالحربة كانتا جتتين لا تحملان حليا: لا أقراط بالأذان، ولا خلاخيل بالأرجل ولا مشابك كانتا عاديتين تقريباً واستمرت الطيور الجارحة تحلق فوق المدينة مدة شهر كامل أما الحمام فقد هاجر منها ١. واستمرت المعارك سجالاً بين الشريف وبين العدو كان يجمع الأنصار فيهاجم مراكز العدو، وكلما اشتد عليه ضغط العدو انسحب إلى الصحراء واستمر يقاتل إلى أن اشتد الضغط عليه فاخفى، سجنه سنة ١٨٦١م الباشاغا بو بكر بن حمزة ولد سيدي الشيخ وسلمه للفرنسيين الذين سجنوه، لكنه تمكن من الفرار من السجن ليظهر مرة أخرى كثائر بعد اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٦٤م فانضم لها وجاهد مع قادتها إلى أن اختلف معهم فانسحب إلى تونس ٢.

٤. ثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة:

ظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله مرة أخرى في ثورة الصبايحية في ناحية سوق أهراس.

والصبايحية وحدات من الجزائريين في الجيش الفرنسي التي انضمت مع الثوار وشارك الشريف محمد مع رفاقه القدامى فاتصل بآبن ناصر بن شهرة في تقرت ومحمد بن التومي المعروف بآبن شوشه في ورقلة وربط صلاته بأولاد خليفة الثائرين بناحية تبسة وبمحيي الدين ابن الأمير عبد القادر الذي قدم خفية إلى طرابلس عبر نقطة ونفزاوة ليتزعم الثورة في الحدود الشرقية.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

كانت ثورة الصبايحية سببها قيام الجنود الجزائريين بالتمرد في شرق البلاد في أواخر سبتمبر عام ١٨٧٠م وذلك عندما حاولت فرنسا أن تنقلهم إلى أوروبا لمحاربة الألمان في بروسيا وقد قامت السلطات الفرنسية بإصدار أحكام الإعدام ضد البعض من الجنود ونفذتها بالساحة العامة بمدينة سوق أهراس وصادرت أملاك وأراضي سبعة دواوير وأخذت عشرات المواطنين كرهائن^١.

واشترك الشريف محمد مع ثواره قبيلة النمامشة يوم ١٠ / ٩ / ١٨٧١م في مهاجمة واحة ليانه بالزاب الشرقي، وقاد معارك ضد فرنسا وقويت حركته وعندما اندلعت ثورة محمد المقراني سنة ١٨٧١م كان يمثل جناحها الشرقي واستمر داعماً لها إلى أن فشلت فغادر معسكره يوم ١٢ / ١٠ / ١٨٧١م إلى مدينة الكاف التونسية فاعتقله باي تونس وسجنه وتوفي هذا الثائر الكبير الشريف محمد عبد الله بالجنوب التونسي سنة ١٨٩٥م ودفن بقرية دوز التونسية^٢.

في ١٨٧٥م احتل الجنرال راندون قمم تيروردة وبنيت آيت يحيى والأربعاء ناث إيراثن وأمر ببناء قلاع بها بهدف عزل القبائل بينها وبين بعضها وهي قبائل : آيت يحيى وآيت إيراثن، بني مقلات وبني بني، بعد أن اكتشفوا أن قوة الثورة تكمن في ارتباط القبائل بعضها ببعض، لقد احتل الفرنسيون المناطق الوعرة بحرب شرسة سقط فيها المئات من الجنود الفرنسيين واستمر السكان يقاومون الغزو بالقنص من وراء الصخور. وبعد معاناة كبيرة من هذه الحرب غير المتكافئة وغير الشريفة المؤسسة على الإفكار والتدمير اضطرت كثير من القبائل إلى طلب الأمان.

٥. أسر لالة فاطمة نسومر وكفاح النساء:

استطاع المحتلون أسر المجاهدة الكبيرة لالة فاطمة نسومر يوم ١١ / ٧ / ١٨٥٧م وبأسرها انتهت المقاومة وهي ابنة محمد بن عيسى مقدم زاوية الشيخ أحمد أمزيان على الطريقة

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٠.

الرحمانية في ايتسوارع دوار يللتن في بلدية عين الحمام ولدت في هذه القرية سنة ١٨٣٠م أخذت عن أخيها الطاهر الساكن في قرية نسومر التي نسبت إليها ولما قامت ثورة بو بغلة سنة ١٨٥١م تطوعت لالة فاطمة لخوض الحرب مع المجاهدين وسرعان ما انتشر اسمها كبطلة شجاعة فقرر الجيش الفرنسي توجيه حملة للقضاء عليها وعلى بو بغلة لتأثيرها هي على الخصوص في المجاهدين، لكن لالا فاطمة تمكنت من اعتراض طريق الجيش الفرنسي في الأربعاء بمهاجمتها لمراكزه وإلحاق خسائر كبيرة به.

فقرر الحاكم العام توجيه حملة كبرى للقضاء عليها وعلى بو بغلة بقيادة الجنرال روندون والمارشال ماكماهون والجنرال جوزيف في جيش ضخم ودارت معركة بين الطرفين يوم ١٠ / ٧ / ١٨٥٧م في أعراش إيتسوارع ويللتن ولما اشتدت المعركة خشيت لالة فاطمة على النساء والأطفال والأموال، فأخذتهم إلى قرية الخميس قرب ربوة تمزغيدة مما أوقعها في الأسر هي ومن معها من الأطفال والنساء اللاتي كان عددهن ٢٠٠ امرأة. لقد أدت لالة فاطمة دوراً عظيماً في الثورة الكبيرة التي استمرت من سنة ١٨٥١م وحتى ١٨٥٧م وتوفيت في سبتمبر سنة ١٨٦٣م ببني سليمان حيث دفنت.

لقد لعبت المرأة الريفية دوراً مباشراً في الصمود يروي الضباط الفرنسيون أنه: كنا نسأل القبائل لماذا أنتم مصرون على الدفاع عن القرى ضد جيش يقوده جو؟ فيجيبوننا: كنا مستعدين للاستسلام أمام هذه القوات الضخمة، لكن نساءنا كنّ يرفضن ذلك ويهددن بأنهن سيهجرنا إلى الأبد إذا لم نستمر في الدفاع ١.

٦. ثورة الصادق بلحاج:

أخضع الفرنسيون بلاد القبائل لكن الثورات استمرت في سائر أنحاء عمالة قسنطينة وذلك في السنتين التاليتين ١٨٥٨م - ١٨٦٠م وبخاصة منطقة الجنوب، فبعد إخضاع منطقة القبائل قرر الفرنسيون إخضاع بقية العمالة وتوجهوا بجيوشهم للجنوب وتصدى

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٧٢.

لهم عدد كبير من رؤساء القبائل أهمهم الصادق بلحاج الذي ينتمي إلى أولاد سيدي منصور شيخ أولاد أيوب في جبل أحمر خدو بسفوح الأوراس الذي سبق له أن شارك في ثورة سكان الزعاطشة سنة ١٨٤٩م إلى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدي ناجي مساندة للشيخ بوزيان وسكان الواحة.

استمرت ثورة الصادق بلحاج تعدّ الناس في السر حتى نوفمبر ١٨٥٨م حيث أدركت القيادة الفرنسية خطورتها فقررت ضربها قبل استفحالها واستطاعت فرنسا إخماد الثورة بواسطة قوات من المرتزقة الجزائريين العارفين بوديان ومسالك المنطقة بقيادة القايد موهوب بن شنوف وتمكنت من اعتراض الثوار في واد العرب يوم ٢٠ / ١ / ١٨٥٩م فاعتقلت قائد الثوار وأكثر من ثمانين من رفاقه وعلى إثر اخماد الثورة قام الفرنسيون كعادتهم بحرق القرى وقتل النساء والأطفال.

كانت لثورة الصادق بلحاج في بسكرة والخنقة والأوراس تأثيرها الكبير على قبائل المنطقة فبعد أشهر في مارس آذار سنة ١٨٦٠م ظهرت بالحفنة ثورة بوختناش^١.

٧. ثورة محمد بوختناش الباركتي:

هو من أولاد رحاب داعياً الناس للثورة فتجمع الناس حوله وساعد الثائر في تجميع الناس أحمد باي المنصوري والعربي قايد أولاد سحنون وانضم إليهم أولاد زميرة وأولاد منصور وامتدت الثورة لتشمل المنطقة الجبلية الممتدة من سطيف والحفنة. تمكن القادة من جمع ٨٠٠ مقاتل وتمركزوا بهم في واد ذراع البيضاء وقام الخائن ببيي من أولاد عمر بإبلاغ الفرنسيين في باتنة بمواقع قوات بوختناش ورفاقه.

تحركت عدة جيوش فرنسية فتوجه الكولونيل بان إلى بريكة وتوجه الجنرال نيس دوماريسست من سطيف على رأس قوات أخرى عسكر بها في شجرة أوادا والتحم الفريقان في معركة كبيرة صباح يوم ٢٥ / ٣ / ١٨٦٠م في خنق أم الحمام، وسقط من

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٣.

الطرفين العديد من القتلى والجرحى لكن الفرنسيين تمكنوا من تخريب معسكر بوختناش وتقتيل أهالي سكان أولاد عمر وأنصارهم وأرغموهم على تسليم بوختناش في نفس اليوم ومساعدته أحمد باي المنصوري إلى الجنرال نيم دوماريست، أما العربي فاستشهد في المعركة.

وتصدى الشعب الجزائري لاستغلال الفرنسيين لغابات الفلين فنارت في سنة ١٨٥٨م قبائل ميلة وأضرمت النار في عشرات الآلاف من هكتارات فلين حتى تحرم شركة فرنسية قررت استغلالها، ثارت قبائل زواغة بالوادي الكبير وامتدت ثورتها إلى شرقي جيجل، وأرسل جيش فرنسي كبير دخل في معارك مع الثوار الذين لم يصمدوا أمام قوته وذلك سنة ١٨٦٠م.

٨. ثورة أولاد سيدي الشيخ:

إنتشرت ثورة أولاد سيدي الشيخ وامتدت لتشمل سائر الصحراء وتتوغل أحياناً إلى مناطق في الشمال والشرق والغرب لقد كانت فعلاً ملحمة ثورية امتدت من ١٨٦٤م وحتى ١٨٨٤م ولدى اندلاعها صرح المارشال ماكماهون: ليكن في عملهم أنه بمجرد إشارة من الإمبراطور ستجند فرنسا ٨٠٠,٠٠٠ جندي وقد قاد هذه الثورة سلسلة من القادة: سي لاله، وابن أخيه سليمان بن حمزة بن سيدي الشيخ، وأخوة أحمد ومحمد، وابن أخيهما الأعلى، وبوعمامة. ويتصل نسب أولاد سيدي الشيخ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كان لهم شأن دائماً.

وتعتبر قرية الأبيض سيدي الشيخ مركزهم الرئيسي ومقر زاوية زعيمهم الأول عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ والمتوفى في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي الوقت الذي عمت فيه الثورة منطقة جنوب وهران على يد أولاد سيدي الشيخ قامت ثورة في فليقة بجبال الونشريس وحوض الشلف بقيادة الشيخ الأزرق بن الحاج

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٧٤.

المنتسب إلى الطريقة القادرية وانضم للثورة ٦٤ دوارا وفي يوم ٢٤ / ٤ / ١٨٦٤م خاض هذا الثائر معركة في خنقة العازر ضد جيش بقيادة الجنرال مارتينو، كما خاض معارك في زمورة بالشلف، ورجع لفليطة فربط الصلة مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، وصارت مدينة غيلزان تحت رحمة الثوار، واضطر الفرنسيون إلى إخلاء سائر قرى الأوربيين بين غيلزان وواد رهيو وفر الأوربيين ولجأوا إلى مستغانم وتمكن الشيخ الأزرق من تدمير معسكر الرحوية يوم ٢٠ / ٥ / ١٨٦٤م وواصل هذا البطل جهاده إلى أن استشهد في معركة ظهرة عبد الله يوم ٨ / ٦ / ١٨٦٤م قادها من الطرف الفرنسي الجنرال روز الذي كلف بملاحقته في فليطة ١.

٩. ثورة بوشوشة: محمد بن تومي بوشوشة:

كان هذا القائد العملاق من الرجال الجزائريين الذين تعاونوا مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، ومن المؤسسين لحركة التوارق بالصحراء الذين قرروا حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي وفي شهر أفريل من عام ١٨٧٠م هاجم مدينة القليعة واستولى في ٥ ماي ١٨٧٠م على مدينة متليلي بعد حصار دم عدة ايام، وابتدأ من هذا التاريخ أصبح بوشوشة هو قائد المقاومة الجزائرية في الجبهة الجنوبية بصحراء الجزائر، وفي أواخر سنة ١٨٧٠م انتقل من مركزه بعين صالح إلى واحة الرويسان قرب ورقلة ثم اتجه إلى وادي سوف وفي ٥ مارس ١٨٧١م هاجم حامية ورقلة فهزمها واستولى عليها بمساعدة أنصاره الكثيرين الموجودين داخلها، وعين ابن ناصر بن شهرة خليفة عليها لكي تكون قاعدة للثورة وفي ١٣ ماي من نفس السنة قام بمهاجمة توقرت وانتصر على القوات الفرنسية المرابطة بها، إلا أن القوات الفرنسية تمكنت يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٧١م من شن هجوم كبير على مدينة توقرت، ثم احتلت من جديد مدينة ورقلة يوم ٢ جانفي ١٨٧٢م وذلك بعد معركة عسكرية بقيادة الجنرال "ولاكروا" ضد حاكمها بوشوشة.

^١ المصدر نفسه، ص: ٥٧٧.

واستأنف هذا الأخير حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في المنية وحارب إلى أن وقع في الأسر في معارك ١٨٧٤م فاقيد إلى ورقلة عاصمته الأولى في بداية ثورته، ثم نقل إلى سجن قسنطينة حيث قدم إلى المحاكمة فصدر الحكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه بتاريخ ٢٩ جوان ١٨٧٥م بمعسكر الزيتون بقسنطينة^١.

١٠. ثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق:

عندما تدهورت الأوضاع بشرق الجزائر طلب الشيخ محمد المقراني من السلطات الفرنسية أن تقبل استقالته من منصبه بصفته باشا لأنه لا يرغب في أن يعمل مع السلطات الفرنسية، لكن السلطات الفرنسية رفضت طلب استقالته يوم ٩ مارس ١٨٧١م قام بمحاصرة مدينة بوعريج إلا أن القوات الفرنسية تمكنت من فك الحصار على المدينة يوم ٢٦ / ٣ / ١٨٧١م. وفي يوم ٨ أفريل ١٨٧١م انضم إلى المقراني الشيخ الحداد، ودارت معركة كبيرة بين القوات الفرنسية وقوات الثوار يوم ١٢ أفريل ١٨٧١م قرب جبل تفرطست وفي معركة أخرى يوم ٥ ماي ١٨٧١م واجهت قوات الشيخ المقراني قوات الكولونيل "تروملي" الذي كان يحكم سور الغزلان، وعندما خف الاقتتال اغتنم المقراني الفرصة لأداء صلاة الظهر مع رفاقه، وبينما كان يؤدي فريضة الصلاة فاجأه جنود الزواف الذين كانوا يراقبون الثوار من بعيد فأصابوه في جبهته وسقط شهيداً مع ثلاثة من رفاقه وقد تم نقل جثمانه إلى قلعة بني عباس ودفن في مسقط رأسه، أما الشيخ الحداد الذي انضم إلى الشيخ المقراني يوم ٨ أفريل ١٨٧١م والذي استقر أجداده في قرية صدوق منذ القرن الخامس عشر الميلادي، فقد استطاع أن يشكل جيشاً جزائرياً يتكون من ١٢٠,٠٠٠ مجاهد، بينما جيش المقراني لم يكن يتجاوز ٢٥,٠٠٠ مجاهد وخاض معارك طاحنة ضد الجيش الفرنسي بحيث أحدث هلعاً كبيراً من الأوساط العسكرية.

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

لكن الشيخ الحداد الذي تمكن أنصاره من التطوع للجهاد في مناطق كبيرة من البلاد لم يتمكن من جمع السلاح الضروري لخوض معارك حاسمة ضد قوات الاحتلال وبذلك فشلت خطة الحداد لإيقاف الزحف الفرنسي في جبال القبائل وتمكن الجنرال لالمان الفرنسي يوم ٢٤ جوان ١٨٧١م من تشتيت العائلات وحرق المنازل وإجهاض حركة المقاومة الجزائرية، كما تمكن نفس الجنرال من اعتقال أبناء الشيخ محمد أمزيان الحداد، ثم اعتقال الشيخ الحداد نفسه بعد عشرة أيام وأرسلته القوات الفرنسية إلى بجاية حيث وضع في قلعة "بارال" وكان لاستسلام الحداد أثره الكبير على معنويات القائد أحمد بومزراق شقيق الباشا محمد المقراني، الذي ثار على الفرنسيين بناحية سور الغزلان وقد حاول بومزراق أن يخلق الانسجام بينه وبين قادة الأخوة الدحمانيين لكنه لم يوفق. وفي يوم ٨ أكتوبر ١٨٧١م خاض بومزراق معركة فاصلة ضد قوات الجنرال الفرنسي "سوسي" بجوار قلعة بني حماد بناحية بجاية، انتهت بتغلب الفرنسيين على قواته، وبعد ذلك إتحه إلى ورقلة والتقى بالقائد بوشوشة وابن شهرة والزبير ولد سيدي الشيخ.

وعندما أدرك أنه غير قادر على مواجهة القوات الفرنسية بقواته المتواضعة حاول أن يجد مكاناً آمناً يلتجئ إليه في الصحراء تاه هناك، واكتشفته دورية فرنسية يوم ٢٠ جانفي ١٨٧١م أمام بركة ماء قرب واحة الرويسات في حالة إغماء فحملته القوات الفرنسية إلى معسكر الجنرال "دولاكروا" بالرويسات، فتم التعرف عليه وإسعافه ثم أرسل إلى السجن في كاليدونيا الجديدة حيث بقي هناك قرابة ٣٠ سنة إلى أن وافته المنية هناك ١.

وانتشر الكولون المسلحون يقتلون الأهالي العزل بلا تمييز أمام أعين جنرالات الجيش الفرنسي وكتب المؤرخ الفرنسي ألفريد رامبو "عشرين سنة فيما بعد" فقال: لقد ارتكبت فظائع من الجيش النظامي ومن غير النظاميين يوم ٢٢ أفريل أعدم تسعة من الأهالي في العلما على أساس شهادة كولون واحد، وفي الغد أوقفت قوة عسكرية القايذ لكحل

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٨.

وأهله وهم يقدمون للطابور العسكري البغال المسخرة فقام الجنود بقتلهم بالضرب بأعقاب البنادق وفي ٢٣ مايو قرب مسلوك هاجم خيالة الجيش الفرنسي أسرا من أولاد قاسم كانت تحصد الشعير فقطعوا رؤوسهم رجالا وأطفالا ونساء وعددهم ستون. ويصرح الأميرال جيدون: عندما يثور الأهالي معنى هذا أنهم أغنياء وإفقارهم هو الوسيلة الوحيدة لنشر الأمن^١.

وطبق قول الأميرال فصادر أراضي سائر القبائل الثائرة والمقدرة ٥٧٤٠٠٠ هكتار وبقدرها أوغستين برنار بمليونين وستمائة ألف هكتار ومثلكت للكلون. وصرح النقيب فيلو أمام لجنة التحقيق: إن قانون العنف سينزل ثقيلًا على رؤوسنا، فلا بد أن نطبق أحد الأمرين: إما أن نبعد العرب، أو نكون عادلين معهم. إذا قررنا تركهم يعيشون فلا ينبغي علينا أن نجردهم مما يملكون، وإذا قررنا تجريدهم من سائر أراضيهم فأنا أرى من العبث تركهم أحياء يعيشون إلى جواز أراضيهم التي انتزعناها منهم.

وفرضت غرامات كبيرة على المواطنين الذين شاركوا في الثورة، وصودرت منهم الأراضي ما يعادل نصف مليون هكتار، ومئات الآلاف من المواشي بحيث الذي صدر من هذه المواشي لفرنسا بلغ مليون ونصف مليون رأس من البقر وقام بمهمة الشراء والتقدير والمرابون اليهود وقام الكولون بقتل المئات من المواطنين ويعجب الدكتور فيتال: من أن الكثير من الأسرى القبائل الذين حكم عليهم بالإعدام استقبلوا الحكم بفرح وبهجة وانطلق المدحون في شوارع وقرى ومدن الجزائر وبخاصة في بلاد القبائل، يغنون الأحزان والآلام التي تجمععت عن سياسة القهر والقمع التي مارستها القوة الاستعمارية بعد فشل ثورة المقراني والشيخ الحداد^٢.

وبالرغم من ضعف التخطيط والإعداد لثورة المقراني إلا أنها كانت الحدث الكبير الثاني بعد ثورة الأمير عبد القادر فبسبب المشاركة الوطنية الواسعة فيها والخسائر الضخمة التي

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٥.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٦. ٥٩٧.

لحقت بالشعب في الأرواح والممتلكات تركت آثاراً عميقة في النفس الجزائرية، توارثتها الأجيال لتظهر مستقبلاً في الأحداث.
وأنتهت ثورة المقراني واستمر الشعب في ثوراته ١.

١١. ثورة واحة العمري:

جاءت هذه الثورة ضد العائلات الموالية لفرنسا في جنوب البلاد، وقد قاد الثورة ضد فرنسا والموالين لها السيد يحيى بن محمد "من أولاد بوزيد" ضد بولخراس بن قانة الذي كان متسلطاً على السكان ويعاملهم بخشونة كبيرة وفرنسا تدعمه، وفي صباح يوم ١١ أبريل ١٨٧١م نشبت معركة حامية الوطيس بين قوات يحيى بن محمد وجيشه المتكون من ٢,٠٠٠ مقاتل وبين فرقة كبيرة من القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "كارتيري" وبالرغم من وفاة الزعيم يحيى بن محمد وإصابة داعيته أحمد بن عايش بجروح في اليوم الأول من المعركة، فإن الثوار قد وصلوا الكفاح حتى النهاية وفي يوم ٢٢ أبريل ١٨٧١م وصلت نجدات فرنسية من قسنطينة ونجدات أخرى من بوسعادة يوم ٢٤ أبريل ١٨٧١م من تلك السنة والتحق الجنرال روكبرون بزميله كارتيري المتواجد في منطقة القتال بواحة العمري، وأنداك قامت القوات الفرنسية بشن هجوم على الثوار يوم ٢٧، ٢٨ أبريل ١٨٧١م وأضطر الثوار الذين بقوا على قيد الحياة أن يستسلموا للقوات الفرنسية ومباشرة بعد الانتصار على الثوار، قام الجنرال كارتيري بإعطاء أوامر بتخريب الواحة كلها على غرار ما فعله هيريون بواحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م ٢.

١٢. انتفاضة الأوراس:

وهي في الحقيقة مشابهة لانتفاضة واحة العمري حيث كان سبب الانتفاضة هو محاربة الموالين لفرنسا وقد ابتدأت الانتفاضة يوم ٣٠ ماي ١٨٧٩م وذلك حين قام أنصار محمد أمزيان عبد الرحمن "المسمى محمد بن عبد الله" باغتيال قايد بني سليمان ثم قائد

^١ المصدر نفسه، ص: ٦٠٠.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٩.

أولاد داود وذلك لأنهما كانا يقودان مجموعة من عملاء فرنسا للقضاء على الثوار المناهضين للاحتلال الفرنسي في الأوراس وتدخلت القوات الفرنسية لضرب الثائرين وإلقاء القبض على عدد كبير منهم، ونظراً لعدم تكافؤ القوة، انسحب الثوار وتوجهوا إلى الصحراء ومن هناك دخلوا جنوب تونس، لكن الباي التونسي ألقى عليهم القبض وسلمهم إلى السلطان الفرنسية التي أنشأت مجلساً عسكرياً وحكمت على ١٤ من قادة ثورة الأوراس بالإعدام و٢٦ بالأشغال الشاقة ١٦ بالبراءة. إلا أن رئيس الجمهورية الفرنسية تدخل يوم ٩ نوفمبر ١٨٨٠م وخفف الأحكام الخاصة بالإعدام إلى الأشغال الشاقة وكعادتها قامت فرنسا بمصادرة أراضي هذه القبائل المتمردة عليها بالأوراس والتي تقدر بـ ٢,٧٧٧ هكتار من أخصب الأراضي^١.

١٣. ثورة أبو عمامة:

تعتبر هذه الثورة أطول ثورة في تاريخ مقاومة الاحتلال فقد دامت ٢٣ سنة على فترات متقطعة وتعتبر هذه الثورة امتداداً لثورات أولاد سيدي الشيخ التي بدأت سنة ١٨٦٤م واستمرت متقطعة تلتهم وتخبو. وينتمي الشيخ أبو عمامة بن العربي بن التاج الذي ولد في الفقيه على الحدود المغربية إلى عائلة عريقة وذات سمعة شعبية وهي أولاد سيدي الشيخ التي حاربت فرنسا لمدة من الزمن وقد اشتهر الشيخ بو عمامة بقدراته على مواجهة الفرنسيين وفشل فرنسا في إلقاء القبض عليه، كما هو معروف^٢.

وكان بوعمامة يمتاز بسرعة تنقل قواته التي كانت مصدر قصص شعبية نسبت هذه السرعة إلى كرامات الشيخ التي كانت تجعل قوات العدو لا تراه وهذه القصص زادت من رصيده في الوعي الشعبي بحيث راح الناس ينضمون لثورته ويعتبرون ذلك تقرباً إلى الله، والسبب الحقيقي راجع إلى معرفته الجيدة بالصحراء وبالمناخ التي توصله إلى التل بعيداً

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

عن أعين العدو، وقد اعتمد على أدلاء مهرة عارفين بالمناطق جغرافياً وسكانياً، يقومون بدور مزدوج كشف الطرق وكشف مواقع طواير العدو من أجل تجنبها كما قسم جيشه إلى كتائب وجعل كل واحدة منها تسلك طريقاً مخفياً وجوده، لأن العدو كان يبحث عنه هو.

حيرت المسيرة الكبرى نحو التل الضباط الفرنسيين فقد تمكن في ثلاثة وعشرين يوماً من قطع سبعمائة وثلاثين كيلو متر، وفي الطريق كان الثوار يستولون على حبوب ومواشي العشائر المتعاونة مع العدو. كما قاموا بقطع أعمدة التلغراف بين فرنده والبيض، وهاجموا مستودعات ومراكز للشركة الفرنسية للحلفاء وقتل الكثير من موظفيها وعمالها الذين كانوا إسباناً^١.

وامتدت ثورة بوعمامة إلى ناحية وهران في شمال البلاد، لكن نجاحه الكبير كان في الصحراء حيث أسر الجزائريون في عهده بعثة عسكرية فرنسية كانت متواجدة في الهوقاز بقصد اكتشاف مجاهل الصحراء، وقتلوا قائد البعثة الكولونيل "فلاتين". وفي معركة أخرى استطاع بوعمامة أن يأسر ثلاثمائة فرنسي^٢.

وفي الأخير استطاع الفرنسيون أن يحاصروا بوعمامة في الصحراء بحيث لا تتسرب أخبار مقاومته إلى شمال البلاد. كما تغلبوا عليه بسبب تفوقهم في السلاح "وخاصة المدفعية"، وكذلك ازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وصعوبة تنقله بين البلدين، وقد توفي بوعمامة بصفة طبيعية يوم ٧ أكتوبر ١٩٠٨م في دائرة وجدة بالمغرب الأقصى الشقيق هذه.

باختصار، بعض الثورات والانتفاضات التي وقعت بالجزائر خلال القرن التاسع عشر، والتي تثبت لنا أن الجزائريين قد تصدوا لقوات الاحتلال الأجنبي وحاولوا باستمرار أن

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٥.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٥١.

يناضلوا من أجل استرداد السيادة للدولة الجزائرية وإجبار العدو على مغادرة الجزائر وتركها لأهلها الأصليين، لكن قوة العدو وتفوقه في السلاح وحيله المعروفة بانتهاج سياسة "فرق تسد" واستيلائه على ثورات الجزائريين، ساهمت في أضعاف المقاومة الجزائرية وتحقيق حدتها.

وكما سنرى لاحقاً فإن قوات الاحتلال الفرنسي والمستوطنون الأوروبيون قد قاموا بحركة قمع وتعذيب الجزائريين وحرمانهم من الحقوق السياسية إلى درجة أن الجزائريين تحولوا إلى سجناء وعبيد في وطنهم الأصلي^١.

ويبدو أن الشيخ بوعمامة اصطدم بمعارضة كثير من الزوايا المنافسة لزاويته بسبب سياسة المستعمر في إدراك خطورة الزوايا التي كانت الركيزة الأساسية لثورات الأمير عبد القادر، وسيدى السعدي، والمقراني وغيرها، فركز الفرنسيون بعد ثورة المقراني على التغلغل في الزوايا وشراء ذمم بعض قادتها، ويؤكد ذلك تلك الرسالة التي وقعها محمد بن القاسم الحمالوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية بوسط البلاد، والتي يدعو فيها الشعب والقبائل إلى عدم أتباع بوعمامة، والتي قامت السلطات الاستعمارية بنشرها وتعميمها في سائر أنحاء البلاد في نهاية ١٨٨١م. لقد استمرت سياسة المستعمر وسط الطرق الصوفية نشطة طوال القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين وهذا هو الذي يفسر اهتمام حركة عبد الحميد بن باديس الإصلاحية على مناهضة المنحرفين في الطرق والزوايا، التي كانت تقود مشعل الثورات الشعبية بين ١٨٣٠ و ١٨٨٠م والتي تمكن المستعمر من التسرب إليها بعد هذا التاريخ والتأثير على هذا المنبع وإضعافه الذي كان وقوداً وداعماً للثورات الشعبية ضد الغزاة^٢، ولم تنقطع الثورات بعد ثورة الشيخ بوعمامة واستمرت ومن هذه الثورات:

• ثورة سكان عين التركي ومليانة بزعامة الشيخ يعقوب ١٩٠١م.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥١.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٧.

- . مجازر عين بسام ١٩٠٦م.
- . ثورة سكان بني شقران في جبال معسكر ١٩١٤م.
- . ثورة سكان الأوراس والهضاب العليا الشرقية ١٩١٦ ، ١٩١٧.
- . ثورة سكان التوارق بأزجر والأهفار ١٩١٦ . ١٩٢١م.
- . مجازر مدينة قسنطينة في أوت ١٩٣٤م.
- . مجازر ٨ ماي ١٩٤٥ بسطيف وقلمة وخراطة وعموشه وغيرها ١٩٤٥م.
- . مجازر دوار السطح بتبسة ١٩٤٧م.
- . مجازر برج منابل وسيدي علي بوناب بجزيرة ١٩٤٨م.
- . تمرد جنود فرقة الرماة الجزائريين بالحراش ١٩٤١م.
- . مجازر قرى جبال الأوراس ١٩٥١م . ١٩٥٣م.
- . ثورة نوفمبر الكبرى ١٩٥٤م . ١٩٦٢م.

وكانت هذه كخاتمة لها ونهاية وقدم الشعب خلالها حوالي مليون ونصف مليون شهيد^١.

عاشراً: الحكم العسكري الفرنسي بالجزائر

في ٢٢ ديسمبر ١٨٣٣م تشكلت لجنة ثانية موسعة تتألف من ١٩ شخصية وعسكرية ومدنية برئاسة الذوق ديكازيس الذي كان عضو بمجلس الشيوخ الفرنسي وبعد عقد ٥٦ جلسة أكد أعضاء اللجنة الثانية اقتراحات اللجنة الأولى ونصحوا الحكومة الفرنسية ببسط السيادة الفرنسية على القطر الجزائري بأكمله والعمل على استغلال الأرض والسيطرة على جميع ثروات البلاد، وباختصار، فإن اللجنة لم تكن محايدة ولكنها كانت وسيلة لتنفيذ برنامج الحكومة في الجزائر، وكما قال حمدان خوخية: فقد أجمع أعضاء اللجنة على مواصلة الاحتلال وعدم التخلي على الفريسة، لأن الجزائر تقدم لفرنسا

^١ المصادر، مجلة فصلية تعني بشئون المقاومة الشعبية، ص: ٣٧.

منافع كثيرة في الميادين الاقتصادية والسياسية والحربية، فهي سوق لترويج بضائعها ومنفى للمشوشين من أبنائها ومركز استراتيجي تستعمله في حروبها وفي نشر سلطانها على البحر الأبيض المتوسط.

واشتمل التقرير الذي قدمته اللجنة الثانية للحكومة الفرنسية بتاريخ ١٠ مارس ١٨٣٤م اشتمل على اقتراحات ذات أبعاد خطيرة تتمثل في:

١ . خلق منصب الحاكم العام بإدخال عناصر جزائرية إلى المجلس البلدي.

٢ . إنشاء مجالس بلدية في كل من الجزائر وهران، وعنابة.

٣ . إنشاء ميزانية خاصة بالجزائر.

٤ . تخفيض عدد أفراد الجيش إلى ٢١,٠٠٠ جندي ونستخلص من ما تقدم أن الجزائر أصبحت تحكم بطريقه عسكرية خاضعة لوزارة الحربية الفرنسية أي أنها لا تنطبق عليها القوانين الفرنسية بصفة طبيعية لأن عندها نظام عسكري خاص بالجزائر.

كما أن السياسة الرسمية لفرنسا أصبحت على أساس وجود حاكم عام ينفذ السياسة العسكرية لوزارة الحرب الفرنسية، وحسب النصوص القانونية التي وردت في الأمر الرئاسي الصادر بتاريخ ٢٢ جويلية ١٨٣٤م، فإن الحاكم العام يعين من طرف مجلس الوزارة بناء على اقتراح من وزير الحربية الفرنسي، وفي البداية أعطيت له كل الصلاحيات بحيث يقوم بإعداد الميزانية التي تدخل في إطار ميزانية وزارة الحرب على تقدم البرلمان الفرنسي، كما أنه يشرف على قضايا جمع الضرائب وفرضها ومعاقبة من لا يدفعها، كما يختص بقضايا العدالة وإشرافه على أعمال رجال القضاء وبصفته الحاكم العام فإنه المسئول الأول عن قضايا الأمن والشرطة وكل المسائل العسكرية، وانطلاقاً من هذا التنظيم الجديد المتمثل في خضوع الجزائر لوزارة الحرب الفرنسية حتى سنة ١٨٧٠م ووجود حاكم عام يشرف على تنفيذ أوامر وزارة الحرب في باريس، فإن الحكومة الفرنسية قد تركت الجزائر لوزارة الحرب لكي توجهها حسبما تقتضي مصلحة القادة العسكريين ومصلحة المغامرين الأجانب

الذين جاؤوا من جميع أنحاء أوروبا للاستيلاء على خيرات الجزائر وتسخير أبناء هذا البلد لخدمة الغزاة بأنجس الأثمان.

وتحقيقاً لهذه الأهداف، تقرر أن يستعين الحاكم العام بستة شخصيات عسكرية ومدنية لإقامة إدارة قوية قادرة على التحكم في مجرى الأمور بالجزائر وإخضاع الجزائريين بالقوة

إلى رغبات الأوروبيين في هذا الإطار العام قام الحاكم العام بتعيين:

١. قائد للجيش لكي يساعده في الميدان العسكري.
٢. قائد للبحرية مسؤول عن القوات الفرنسية في قطاعه.
٣. مسؤول عن القضايا المالية والإدارية في الميدان العسكري وفي الحقيقة أن الحاكم العام لم يكن هو المسؤول المباشر عن هؤلاء المسؤولين من الناحية العملية، لأن وزارة الحرب الفرنسية هي التي كانت تأمرهم بما ينبغي عمله في كل خطوة، لكن الحاكم العام كان يشرف بطريقة مباشرة وتنسيق مع وزارة الحرب وعلى المساعدين الثلاثة المدنيين وهم:
 ١. المسؤول الإداري المدني: هو الشخص القوي في الجزائر بعد الحاكم العام. إن سلطاته تعادل سلطاته تعادل سلطة عامل العمالة في فرنسا، حيث كانت تسميته في هذا المنصب تأتي من طرف الملك بناء على اقتراح من وزير الحرب في فرنسا ويعتبر هو المحرك الرئيسي للإدارة الاستعمارية لأنه يشرف على توجيه كبار الموظفين الذين يخضعون لتعليماته وأحكامه.

٢. النائب العام: ويمكن وصفه هنا بالشخصية القوية التي تسيطر على القضاء والقضاة.
٣. المدير المالي: الذي كان يعتبر بمثابة وزير المالية في الإدارة الاستعمارية إذ أنه كان يشرف على إعداد الميزانية وجمع الضرائب ويتمتع بحق الأمر بالصرف في الجزائر، وأما الهيئة الثالثة التي كانت تقوم عليها الإدارة الاستعمارية بالإضافة إلى الحاكم العام وكبار الموظفين المساعدين له، فكانت تتمثل في مجلس الإدارة الذين يمكن اعتباره هو السلطة

العليا لاتخاذ القرارات الجماعية وفي إمكان الحاكم العام توسيعه وتعيين أعضاء آخرين فيه ويختص هذا المجلس بدراسة قضايا الميزانية في الجزائر، والجباية المالية في الميدان الجمركي، والأمن والعبادات، ومجلس الإدارة هو الذي كان يحدد سياسة فرنسا في الجزائر، وطبعاً فإن وزارة الحربية الفرنسية هي التي ترجع إليها الكلمة الأخيرة في كل مسألة يناقشها مجلس الإدارة ويعرضها عليها للموافقة وإبداء الرأي قبل تنفيذها.

وتقرر في الأمر الرئاسي الصادر في ١٥ أبريل ١٨٤٥م تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات هي: الجزائر، ووهران وقسنطينة، وبهذا الأسلوب تقلصت سلطات الحاكم العام وأصبحت حكومة باريس تسيطر على مجرى الأمور بحيث أن رئيس الدولة الفرنسي هو الذي يصدر المراسيم المتعلقة بالجزائر، ووزير الحرب الفرنسي هو الذي يصدر التعليمات والقرارات الخاصة بالجزائر، وتمشياً مع هذا التنظيم الجديد، تم تعيين مدير إداري ومدير للشؤون الداخلية، والأشغال العمومية ومدير للمالية والتجارة، ووكيل للجمهورية، ومدير للشؤون العربية، والجميع يعملون تحت إشراف مدير الشؤون المدنية، لكن التغيير الجذري في وضعية الجزائر حدث في عام ١٨٤٨م حيث وقعت الثورة وشارك المعمرون الفرنسيون فيها بوفد وطالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم ٤ مقاعد في البرلمان الجديد وبالفعل فقد تمكنوا من القيام بضغط على الحكومة الجديدة وتعيين ٤ نواب لكي يمثلوهم في البرلمان الفرنسي، وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ ٤ نوفمبر ١٨٤٨م والذي نصت المادة ١٠٩ منه على اعتبار الجزائر أرضاً فرنسية^١.

وفي الحقيقة أن استراتيجية الجيش الفرنسي في الجزائر كانت تقوم منذ البداية على تحطيم النظام وقوانين العمل الجزائرية في كل منطقة يتم احتلالها وذلك بقصد تكسير العلاقات العائلية وإقامة نظام جديد يحل محل النظام المألوف عند الجزائريين.

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

وتحت غطاء المحافظة على الأمن وتوسيع نفوذ الدولة الفرنسية وتوسيع الأراضي الفائضة عن احتياجات كل عرش قامت السلطات العسكرية بالاستيلاء على أراضي الأعراش لأن وجود الأراضي في حوزة جماعات جزائرية يمنع أو يحول دون توسع الاستيطان الأوروبي بالجزائر، كما أن فلسفة فرنسا في الجزائر، كانت تقوم على أساس أن التحكم في الجزائريين وإخضاعهم لنفوذها يتوقف على تحويلهم من مالكين إلى أجراء يعملون لتنمية ثروات المعمرين الأوروبيين^١.

الحادي عشر: لويس نابليون الثالث

إن انتخاب لويس نابليون بونابرت الثالث كرئيس للدولة من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية في شهر ديسمبر من عام ١٨٤٨م غير مجرى الأمور بعض الشيء لأن الجمهوريين اليساريين كانوا يظنون أنه سيخدمهم ويعمل على تحقيق مطالبهم فأيدوه، ورجال الكنيسة والمحافظون اعتقدوا أنه ليس مثل عمه نابليون بونابرت الأول الذي كان يتميز بالثورية واستعمال القوة العسكرية فوضعوا ثقتهم فيه غير أن لويس نابليون فاجأ الجميع بانتهاجه سياسة خاصة به وحسب مزاجه حيث استعان بالفلاحين ورجال الأعمال وجندهم للعمل من أجل المحافظة على الاستقرار والأمن، وتخلص من خصومه، وعمل على كسب ولاء الجيش والشرطة وكبار المسؤولين في الدولة. وفي شهر ديسمبر من عام ١٨٥٢م ألغى النظام الجمهوري وأنشأ الأمبراطورية الثانية التي تربع على عرشها لغاية انهزام جيشه في معركة سيدان واعتقاله من طرف بروسيا سنة ١٨٧٠م^٢.

حاول أن يتقرب للشعب الجزائري، فأخرج الأمير عبد القادر من السجن وقال للجنرال روندون الذي عينه وزيراً للدفاع لا بد أن تطبق عدالة تامة بين الفرنسيين والأهالي إن هذا

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٦.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

فقط هو العدل والشرف والحقيقة.. إنه لا نفع من أخذ جزء من أراضي الأهالي لزيادة حصة الاستيطان، ينبغي إقناع العرب بأننا لم نأت للجزائر لاضطهادهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، لكن لكي ننقل لهم محاسن المدنية لنترك الأهالي تربية الخيول والمواشي والفلاحة الطبيعية للأرض ولنترك لنشاط وذكاء الأوروبيين استغلال الغابات والمناجم وتخفيف المستنقعات والري، وإدخال زراعات راقية، وكل ما يتعلق بتطوير الاستعمار^١.

وأصدر الامبراطور نابليون الثالث سنة ١٨٦٥م مرسومه الشهير "سيناتوس كونسيت" الذي أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وقد زار الإمبراطور بلاد الجزائر من ٣ / ٥ إلى ٧ / ٦ / ١٨٦٥م وخطب قائلاً: هذا البلد مملكة عربية ومستعمرة أوروبية، ومعسكر فرنسي ولا بد من التعامل مع الجزائريين على هذه الأسس الثلاثة. وسخط الكولون على عبارة "مملكة عربية" ورفضها علناً، وانتقلت المعارضة إلى فرنسا حيث أصدر البرلمان قراراً يتراجع به عن هذه العبارة ويقر: بأن الأهل فرنسي مع استمراره في أن يسير بالقانون الإسلامي، ويمكن إذا رغب أن يكتسب صفة المواطنة الفرنسية كاملة^٢.

وقد استهل خطابه بقوله: إنني أعد نفسي إمبراطور العرب كما أُنِي إمبراطور الفرنسيين وكلهم في نظري متساوون^٣، ورفض الجزائريون التجنس الفرنسي بحيث لم يطلبه سوى ١٩٤ بين قانون ١٨٦٥م وقانون ١٨٧٠م^٤.

كانت سياسة نابليون ترمي إلى مدى بعيد فإن المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا إلى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة وقاموا بكل ما لهم من جهد سياسة

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٩.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

^٣ الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص: ٨٦٧.

^٤ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

نابليون، مبرهنين بذلك على ما استمروا عليه من تقديم مصلحتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها.

ومن الذين وقفوا ضد الإمبراطور في سياسته الجزائرية الكاردينال لافيغري الذي صرح قائلاً: لا بد من إنقاذ هذا الشعب، ينبغي علينا الكف عن تركه وسط قرآنه بواسطة خلق مملكة عربية مزعومة لا بد أن تعطيه فرنسا الإنجيل وذلك بدمجه في حياتنا، أو طرده في الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن^١.

وعندما تكلم الكاردينال عن البربر قال: لا بد من العمل على مناهضة البربر للعرب. وراحت الإدارة تحقق ذلك فعلاً، وشعر رؤساء العشائر القبائلية بذلك فسخطوا على المستعمر، لدرجة أن العقيد والمؤرخ هانوتو كتب يقول: وهذا التوجه: أي العمل على مناهضة البربر والعرب هو الذي ولد ثورة القبائل.

واستغل الكاردينال المجاعة التي عصفت بالشعب سنتي ١٨٦٧ و ١٨٦٨م وجمع في هذه السنة ١٧٥٣ يتيماً بين ثماني وعشر سنوات، ولم يحتج الكاردينال باسم المسيحية التي تسببت في موت مئات الآلاف من الفلاحين بالمجاعة بسبب إفراغها لمطاميرهم من الحبوب بنهبها أو تخريبها بحيث عندما جاء الجفاف بالمجاعة لم يجد الفلاحون في مخزونهم ما يواجهون به الجفاف، والفلاحون عادة يحتفظون في مطاميرهم بما يكفيهم لسنة إضافية على الأقل. راح الكاردينال يعمل على تمسيح هؤلاء اليتامى ويغرس في نفوسهم الكراهية ضد العرب والمسلمين، كان يطلق أمامهم شتائمهم ضد العرب والمسلمين فيقول: لقد جمع الإسلام كل المساويء: الطلاق، الكسل، تعدد الزوجات، السرقة، الشيوعية الزراعية، التعصب، أكل لحم البشر.

طلبت منه السلطات بضغط من الإمبراطور إعادة هؤلاء الأطفال إلى ذويهم فرفض، بل وراح على تمسيح قرى بالشلف مستغلاً المجاعة قائلاً للفلاحين: إذا أردتم أن تبقى أرضكم

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

فتمسّحوا تصيروا فرنسيين. وحسم الإمبراطور الموقف فقال للكاردينال: اكتف بالحفاظ على المسيحية بين مائتي ألف كاثوليكي يعيشون بالجزائر ودع المسلمين يعيشون وشأنهم^١.

وفي الأيام الأخيرة من حكم لويس نابليون، بدأ المعمرون الأوروبيون يفرضون أنفسهم على الساحة الجزائرية ويؤثرون في مجرى الأمور، وخاصة أن سياسة نابليون الداخلية كانت مهزوزة والباريسيون يعارضون مشاريعه الارتجالية، وقد شعر الإمبراطور بضعفه أمام المستوطنين الأوروبيين بالجزائر وحاول إرضاءهم عن طريق إصدار مرسوم يوم ٣١ ماي ١٨٧٠م، بحيث يتحرر رؤساء العمالات الثلاثة في الجزائر من القيود المفروضة عليهم من طرف السلطات العسكرية، وحسب هذا المرسوم فإن رؤساء العمالات صاروا يتمتعون بالإستقلال التام في العمل، والعسكريون لا يسيطرون على المناطق المدنية، وينحصر نفوذهم في المناطق العسكرية وفي يوم ١١ جوان ١٨٧٠م أصدر الإمبراطور مرسوماً آخر يسمح للمستوطنين الفرنسيين بإجراء الانتخابات في المناطق المدنية واختيار الأعضاء الذين يمثلوهم في المجالس العامة، وقد أثارت هذه التنازلات للمعمرين غضب الجيش والحاكم العام مكماهون الذي استقال من منصبه احتجاجاً على سياسة الخضوع للضغط المتوالية على الإمبراطور لنقل السلطة في الجزائر إلى يد المستوطنين، لكن اغتيال الإمبراطورية ووقوع الإمبراطور نفسه أسيراً في يد الألمان كان بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر^٢.

إن سياسة نابليون الثالث في الجزائر كانت مائعة ولم تحقق أية نتيجة بالنسبة للجزائريين سواء بالنسبة لحصولهم على حقوقهم السياسية والمتمثلة في حرية التعبير أو بالنسبة للمساواة مع الفرنسيين المقيمين بالجزائر، وعليه فإن سياسة إدماج الجزائر في فرنسا والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين في الحقوق والواجبات لم تتجسم في أرض الواقع وكل

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨١.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٧، ١٣٨.

ما عمله في حقيقة الأمر هو تمكين قادة الجيش من التصدي لمقاومة الجزائريين في بلاد القبائل وفي الجنوب وتدعيمهم من أجل الانتصار على رجال المقاومة الجزائرية وبذلك حقق رغبة الفئة العسكرية وبالنسبة للمعمرين، فقد ساعدتهم على تحطيم مؤسسات الدولة الجزائرية واستبدال تلك المؤسسات بهياكل إدارية جديدة فرنسية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي^١.

١ . معركة سيدان وأسر الإمبراطور:

انهارت الإمبراطورية الفرنسية بوقوع الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً في يد الألمان وكان ذلك بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر، فالعسكريون الذين انهزموا في معركة "سيدان" فقدوا مصداقيتهم الاجتماعية في الجزائر وفي فرنسا ذاتها، والمجموعة العسكرية المتواجدة بالجزائر لم تعد تتلقى التعليمات من القيادة المركزية، وبذلك تركوا المبادرة للمدنيين لكي يفعلوا ما يشاءوا بالجزائر، وبمجرد تعيين أدولف كرميو كمستول عن الداخلية في حكومة الدفاع الوطني قام هذا الأخير بإصدار جملة من القرارات في شكل مراسيم لإنهاء الحكم العسكري في الجزائر وإعطاء السلطات المطلقة للمعمرين وبناء على هذه المراسيم الصادرة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م تقرر:

أ . أن يتم إلغاء منصب الحاكم العام في الجزائر "التابع لوزارة الحرب" ويعوض بحاكم عام مدني، يوضع تحت تصرفه ٣ رؤساء عمالات أو رؤساء مقاطعات إدارية.

ب . أن تنحصر سلطات القائد العسكري في المناطق التي تخضع للجيش فقط ولا يحق له أن يتدخل في الشؤون المدنية.

ج . أن يقوم الحاكم العام الذي يتم تعيينه من طرف مجلس الوزراء "وليس وزارة الحرب" بتطبيق سياسة الحكومة في الجزائر.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٢٩.

ح . أن يقوم رؤساء العمالات بإنشاء مجالس عامة منتخبة من طرف الفرنسيين فقط، وفي كل مجلس عام يحق لوزارة الداخلية أن تقوم بتعيين ٦ مسلمين.

ثم جاء المرسوم الثاني والذي سمح لليهود أن يأخذوا الجنسية الفرنسية ويشاركوا في الحكم مع الأوروبيين الغزاة وبذلك تبقى الفئة الوحيدة المحرومة من المشاركة السياسية هي أبناء البلد الأصليين الذين حرّموا من حق التصويت في الإنتخابات وحق التعبير عن أفكارهم وآرائهم السياسية^١.

وفي يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م جاء مرسوم آخر لإلغاء المناطق العسكرية وتحويل تلك المناطق تدريجياً إلى يد السلطة المدنية وهذا معناه بسط نفوذ المعمرين على جميع المناطق التي كانت تخضع سابقاً إلى سلطة العسكريين^٢.

٢ . إلغاء المكاتب العربية:

وفي إطار هذه القرارات والمراسيم المؤيدة للمعمرين الفرنسيين قررت حكومة الجمهوريين إلغاء المكاتب العربية وحولت تلك المكاتب إلى مكاتب لشؤون الأهالي أو أبناء البلد، والمكاتب العربية تمّ تأسيسها من قبل الجيش الفرنسي للتواصل مع الأعيان والقبائل وكانت في بدايتها مسئولة عن تسهيل عملية الاتصال برؤساء العشائر والتفاوض معهم وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا مقابل التزام هذه الأخيرة باحترام أساليب عملهم والعادات والتقاليد الموجودة عندهم وتوفير الأمن والطمأنينة في مناطق نفوذهم وحماية مصالحهم، ونظراً لازدياد دور هؤلاء العملاء في مساعدة الجيش الفرنسي على احتلال بقية المناطق في البلاد، فقد قرّر الجنرال بيجو في ١٨٤٤م أن يؤسس بصفة رسمية المكاتب العربية ويضع لها الهياكل الإدارية بحيث تصبح هذه المكاتب العربية هي الوسيلة الأساسية التي سيستعملها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية، وحسب التنظيم الجديد للمكاتب العربية التابعة للجيش

^١ المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٣٩.

الفرنسي، فإن إدارة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية قد قامت بتأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاثة الموجودة بالجزائر وفي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى، ووحدات ثانوية من الدرجة الثانية، وباختصار فإن المكاتب العربية تحولت إلى إدارات محلية للتحكم في السكان الجزائريين وفي عام ١٨٦٥م بلغ عدد المكاتب العربية في عمالة قسنطينة ١٥ مكتباً، وفي عمالة الجزائر ١٤ مكتباً، و ١٢ مكتباً في عمالة وهران.

وتتشكل المكاتب العربية في كل مقاطعة أو عمالة جزائرية من:

- . مدير.
 - . ضابط مسؤول عن الصحة.
 - . ضابط مسؤول عن دفع المكافآت المالية.
 - . مترجمان.
 - . ضابط صف.
 - . خوجة "كاتب عربي".
 - . وكيل الضياف.
 - . حاجبان "الشاوش".
- وبمضي الوقت ازداد نفوذ المكاتب العربية وأصبح دور المسؤولين في هذه المكاتب هو تعيين وخلع المسؤولين المحليين وجمع الضرائب واستصدار قرارات في المسائل الشرعية أو القضائية.
- لكن في واقع الأمر تعتبر المهمة الرئيسية لرؤساء المكاتب العربية بصفتهم ينتمون إلى السلطة العسكرية هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش وتساعد على تقوية نفوذه، وتتمثل هذه المعلومات على إحصاء الأراضي والتعرف على مجاري المياه، وأخذ فكرة عن

التنظيم السياسي الموجود في أوساط العشائر وتحديد نوعية المداخل المالية حتى يتمكن الضباط من الحصول على أموال كبيرة عند جمع الضرائب^١. وبما أن المكاتب العربية كانت تابعة للجيش وتعمل لتدعيم نفوذه، فقد شن المعمرون الأوروبيون حملة شعواء ضد هذه المكاتب وأتهموها بأنها مكلفة لهم مالياً إذ أنهم يتحملون التكاليف الباهظة والأموال الكثيرة التي يقوم بتنفيذها رؤساء المكاتب العربية، وبمجرد سقوط الإمبراطورية وانحزام نابليون الثالث واعتقاله من طرف الألمان، تمّ حل المكاتب العربية بقرارين صادرين بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م وتحويل المناطق التابعة للمكاتب العربية إلى مناطق مدينة تابعة للنظام المدني الذي يوجد بين يدي المعمرين في المقاطعات أو العمالات الثلاثة^٢.

٣. الحكم المدني في العصر الجمهوري:

تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الأوروبيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء أصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على إستغلال الأراضي والإستفادة من الطاقة البشرية المتوفرة بأبخس الأثمان وقد وضع الأوروبيون خطة لجلب ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد وهذا بقصد الاستيلاء على نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم أو عزلهم أو مصادرتها، ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة. والشيء الذي جعل المعمرين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تفاقم عدد اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الزاس - لورين" التي

^١ المصدر نفسه، ص: ١٣١.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٢.

أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠م فالحكومة كانت مجبورة على إيجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد.

ونستخلص من ما تقدم: أن النظام العسكري بعيوبه ومساوئه التي لا تعد ولا تحصى، يعتبر أهون من الحكم المدني في العصر الجمهوري، فبالرغم من تعنت القادة العسكريين واستيلائهم على الأراضي الخصبة لكي يصبحوا هم أسياد البلاد في القطر الجزائري وقيموا المخططات الواسعة التي مكنت الدخلاء على البلاد من توطيد قدمهم وقهر أبناء شمال أفريقيا، فإن القادة الجمهوريين هم الذين ساعدوا الأوروبيين على فرض إرادتهم على الملاك الجزائريين وتحويلهم إلى مجرد عاملين بالإجرة أو أجبروهم على الهجرة إلى أماكن أخرى للبحث عن العيش. كما أن القادة الجمهوريين هم الذين جاءوا بالبرامج المسطرة لتوسيع نطاق "التعمير الرسمي" وتقديم المساعدات الحكومية الضخمة لإنشاء المشاريع التجارية والعمرانية الخاصة بتسهيل إقامة الجاليات الأجنبية في الجزائر. وأكثر من هذا، عمد قادة الجمهورية الثالثة إلى اتباع سياسة إخضاع تونس والمغرب ووضعها تحت الحماية الفرنسية وبفضلهم أيضاً، منحت الجالية اليهودية بالجزائر حق الحصول على الجنسية الفرنسية دون أن يتخلى هؤلاء اليهود عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية وبهذه القرارات استطاع المهاجرون الفرنسيون والأجانب أن يستولوا على مساحات كبيرة من أراضي الجزائر ويضمنون لأنفسهم مستقبلاً في شمال أفريقيا.

وبعبارة أخرى، فإن سياسة الجمهوريين في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر، كانت ترمي إلى رفع معنويات المستوطنين الأجانب بالجزائر عن طريق تقديم معونات مالية وعقارية إليهم حتى يتمكنوا من توطيد إقدامهم بالجزائر وتحقيقاً لهذا الهدف، تعهدت الدولة الفرنسية بتخصيص إعانات مالية لبناء المدن والمدارس والعمارات في

الأماكن التي يقطنها الفرنسيون وتوفير القروض لرجال الأعمال الذين يرغبون في القيام بمشاريع تجارية، كما قدمت الحكومة تسهيلات بشأن الهجرة إلى الجزائر ووضعت تحت تصرف المهاجرين الجدد الأراضي الشاسعة لاستغلالها دون مقابل وتجسدت هذه السياسة في القانون يوم ٢١ جوان ١٨٧١م والذي وافق فيه مجلس النواب الفرنسي على منح ١٠٠,٠٠٠ هكتار للاجئين الفرنسيين من ألزاس - لورين. كما اقترحت لجنة برلمانية مصادرة ٣٤٠,٠٠٠ هكتار من أراضي الجزائريين وذلك لتسكين الوافدين الجدد على الجزائر، ولم يكتف البرلمان بهذا، بل استغل ثورة الجزائريين على فرنسا سنة ١٨٧١م وأعطى موافقته على فرض "ضريبة الحرب الإجبارية" كعقاب على حمل الأسلحة ضد فرنسا.

وبعد عامين من تدفق المهاجرين الفرنسيين والأجانب على الجزائر إتجهت نية قادة الجمهورية إلى توسيع رقعة المعمرين على حساب ملاك الأراضي الجماعية حيث تقرر أن لا يسمح لأهل البلد الأصليين بأي شبر من الأراضي يفوق ما يستطيعون خدمته من الأرض، كما نص قانون ٢٦ جويلية ١٨٧٣م الذي أقره مجلس النواب الفرنسي على اعتبار كل الأملاك العقارية خاضعة للقانون الفرنسي. وهذا يعني أن أراضي الوراثة ينبغي أن تقسم وأنه لم يعد من حق المسلمين المحافظة على الأملاك الجماعية التي هي عادة مرعية في الشريعة الإسلامية، وزيادة على ذلك فإنه نتج عن هذا القانون نوع من المضاربة والتسابق إلى التخلص من الأراضي، الشيء الذي أدى إلى قيام نزاعات وحزازات محلية بين المواطنين الجزائريين، ثم أن الفرنسيين أنفسهم استغلوا هذه النقطة بالذات وحرصوا الملاك الصغار والورثة على المطالبة بحقوقهم للتغلب على خصومهم في حالة ما إذا آلت قضاياهم إلى المحاكم لتبت في الأمر، ومما لا شك فيه ولا جدال هو أن عدداً لا يستهان به من سكان البلد الأصليين قد خسروا أراضيهم في النهاية وذلك نظراً لقلّة إلمامهم

بالإجراءات القانونية الدقيقة التي ينبغي إتباعها لإثبات حقوق الملكية وريح المعركة ضد المهاجرين الأجانب^١.

٤ . سياسة المستوطنين بعد سنة ١٨٧٠م:

بمجرد الإطاحة بحكومة نابليون الثالث يوم ٢ سبتمبر ١٨٧٠م وإلقاء القبض عليه وسجنه في ألمانيا لغاية ١٨٧١م ثم نفيه إلى بريطانيا حيث مات ١٨٧٣م جاءت حكومته الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر وتحقق جميع مطالبهم ومالت الكفة لصالح المستوطنين الأوروبيين الذين استولوا على السلطة في الجزائر وأصبحوا هم يسرون البلاد ويحكمونها بأسلوبهم الخاص لغاية أول نوفمبر ١٨٥٤م.

وباختصار فإن المستوطنين الأوروبيين بالجزائر قد قاموا بإعداد برنامج سياسي مكثف لتدعيم نفوذهم في الجزائر وإقامة نظام سياسي يخدمهم للأبد^٢.
وتتمثل السياسة الجديدة في دمج الجزائر بفرنسا وذلك عن طريق إصدار ٣٦ مرسوماً تتعلق بالجزائر وانتقال السلطة من يد العسكريين إلى يد المستوطنين الأوروبيين ومن أهم هذه المراسيم نخص بالذكر:

. المرسوم الصادر يوم ٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمتعلق بمنح ٦ مقاعد في البرلمان الفرنسي بدلاً من ٤ فقط عام ١٨٤٨م، وبالتالي تقوية التمثيل السياسي للأوروبيين في فرنسا.
. المرسوم الصادر يوم ٨ أكتوبر ١٨٧٠م والذي انشئ بموجبه منصب الحاكم العام المدني الذي يحكم في ٣ ولايات بالجزائر ويتراسل مع وزراء فرنسا "وليس وزراء الحرب" كما كان الحال سابقاً.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

. المرسوم الصادر بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م الذي يسمح للمعمرين الأوروبيين أن يعينوا الولاة في المناطق التي تخضع للحكم العسكري، أي يتحكم المدنيون في المسؤولين العسكريين.

. المرسوم الصادر يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م الذي سمح للمستوطنين الأوروبيين أن يوسعوا نفوذهم إلى المناطق التي يسكنها المسلمون الجزائريون والتي تديرها شخصيات جزائرية معينة من طرف فرنسا وكذلك إلغاء المكاتب العربية في المناطق الخاضعة للحكم المدني.

. المرسوم الصادر بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمعروف بـ "مرسوم كريميو" وهو الذي سمح فيه لليهود أن يحصلوا على الجنسية الفرنسية والتمتع بجميع الامتيازات التي يخولها القانون للرعاية الفرنسيين دون أن يتخلى هؤلاء عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية.

هذه المراسيم قد جاءت لتحقيق رغبات المستوطنين الأوروبيين المتمثلة في تقوية عدد السكان الأوروبيين واليهود حتى تنجح سياسة الإدماج بسرعة وفعالية والقضاء على المكاتب العربية التي تقوم عادة بالجوسسة لحساب القيادة العسكرية بالجزائر^١.

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على استغلال الأراضي والاستفادة من الطاقات البشرية المتوفرة بأرخص الأثمان وحسب بعض الإحصائيات الواردة في المصادر الفرنسية، فإن المستوطنين الفرنسيين والأجانب كانوا يطمحون إلى جلب حوالي ٢ إلى ٦ أو ٧ ملايين، إلا أن الرقم الحقيقي الذي كانوا يعملون على تحقيقه هو ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد، وسعيًا وراء تحقيق هذا الهدف رسموا خطة محكمة تتلخص فيما يلي:

. أخذ نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم وعزلهم أو مصادرتها ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة والشيء الذي جعل المستوطنين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تزايد عدد

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٧.

اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الألزاس - لورين" التي أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا في سنة ١٨٧٠م.

فالحكومة مجبرة، في هذه الحالة، على إيجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد^١.

. منح الجنسية الفرنسية لجميع الأوروبيين وتوسيع القاعدة بحيث تعطي الجنسية الفرنسية بصفة أوتوماتيكية لجميع أبناء الأوروبيين المولودين بالجزائر.

وفي هذا الإطار أعلن "ميزفيل" أول رئيس لمحكمة الجزائر بأنه يتعين على جميع السكان أن يذوبوا في الحضارة الفرنسية وأن يدركوا أن قدوم شعب من الشمال جاء ليستقر، وأكد أن الشكل الذي يواجهه سياسة الإدماج هو وجود مجتمعات مختلفات في كل شيء: في العقيدة، في الفكر، في العادات وفي التقاليد، ولذلك لا يمكن دمجها إلا بإبتلاع شعب لشعب.

. في برنامج المستوطنين الأوروبيين بعد سنة ١٨٧٠م سياستهم هي القمع ومصادرة أراضي الجزائريين وخاصة بعد الثورات العارمة من سنتي ١٨٧٠م، ١٨٧١م ويظهر هذا الاتجاه بوضوح في تعليق لأول رئيس للجمهورية الثالثة الذي قال: بأنه: يمكن للعرب أن يقوموا بثورات لكن سيتم إحتواءهم أو إتبلاعهم.

ففي سنة ١٨٧١م قام المستوطنون الفرنسيون بالاستيلاء على ٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار حيث قامت الدولة بمصادرتها على أساس أنها أملاك عامة. كما قام الحاكم العام "قيدون" بفرض غرامات مالية على ٢٩٨ بلدية قام ساكنوها بثورات ضد فرنسا، قدرت بـ ٣٦,٢٨٢,٢٩٨ فرنك دفعها المسلمون كتعويض عن الحرب.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٩.

وللحصول على الأراضي التي يحتاجها المستوطنون الأوروبيون، قامت الولاية العامة بمصادرة أراضي ٣١٣ بلدية قدرت مساحتها بـ ٢,٦٣٩,٦٠٠ هكتار. أما الأراضي التي لا يحتاجها المستوطنون، فقد تقرر السماح ببيعها إلى المسلمين الجزائريين بسعر ٥٠ فرنك للهكتار إذا كانت الأرض مثمرة و ١٠ فرنكات إذا كانت غير مثمرة.

وكان المقصود من هذه السياسة هو تفجير الناس وتجويعهم عن طريق إجبارهم على بيع ما عندهم من بقر وغنم وأراضي لدفع الديون المفروضة عليهم^١.

بعد أن فشلت فرنسا في حربها أمام الألمان، حولت هزيمتها بدافع مراكب النقص إزاء الألمان إلى مركب العظمة أمام الشعب الجزائري المجاهد في سبيل حريته وكرامته وحقه في الحياة الكريمة.

فراحت تفرض عليه الغرامات العسكرية والمساهمة بطريقة غير مباشرة في دفع التعويضات العسكرية التي فرضتها ألمانيا على فرنسا، فكلما ازداد شعور فرنسا بالضعف في أوروبا ازداد بطشها بالجزائريين.

مع اختفاء عبارات، الشرف العسكري، والمملكة العربية التي تعود الشعب الفرنسي سماعها من نابليون الثالث.

شجعت حكومة الجمهورية الثالثة الفرنسية حركة الاستيطان ونهب الأرض من الفلاحين الجزائريين، لقد عكست فرنسا تلك المهانة التي فرضتها عليها معاهدة فرانكفوت على بطشها في الجزائر من باب التعويض في علم النفس، فاقتطعت مئات الآلاف من الهكتارات المسروقة وملكتها لسكان الألزاس واللورين ومنحتهم الأرض لقاء إيجار رمزي يبلغ فرنكاً واحداً سنوياً للهكتار، على أن تصير ملكاً لهم بعد تسع سنوات من الاستقلال^٢.

وتتلخص سياسة المستوطنين الفرنسيين في عهد الجمهورية الثالثة فيما يلي:

^١ المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

^٢ الجزائر في التاريخ، ص: ١٦٢.

- . حصول المستوطنين الأوروبيين على حقوقهم السياسية أي إقامة مؤسسات مدنية تخدم مصالح هذه الفئة الأوروبية المقيمة في أرض الجزائر.
- . التمثيل التام في البرلمان الفرنسي، وفي المجتمعات والبلديات المحلية.
- . ربط الإدارة في الجزائر بالوزارات المركزية في فرنسا.
- . نقل السلطة من يد العسكريين إلى يد المدنيين الأوروبيين في إطار الحكم المدني.
- . بيع أراضي الأعراس للمعمرين أو المستوطنين الأوروبيين والتخلص من الدواوير الجزائرية التي تعاونت مع السلطات العسكرية وكانت تحد من نفوذ سلطات الحكم المدني.
- . جعل أراضي الجزائريين ملكية فردية وجاهزة لبيع وبذلك يتمكن المستوطنون الأوروبيون من التوسع في كل مكان في الجزائر.
- . إقامة تجمعات سكنية في مناطق محدده للعرب وباختصار الإدماج والحقوق السياسية لجميع الأوروبيون، أما الجزائريون فهم لا يريدون أي شيء ولا يحتاجون أي شيء.
- . فالمستوطنون بعبارة أخرى يريدون الأدماج وضم الجزائر إلى فرنسا لكن بشروط تتمثل فيما يلي:
- . الامتناع عن دفع الضرائب.
- . عدم أداء الخدمة العسكرية في الجيش.
- . عدم دفع أية تكاليف مالية.
- . إعتبار ٣٥,٠٠٠ مواطن أوروبي عدد كافي للحصول على نائب يمثلهم في البرلمان الفرنسي.
- . ولكي تكتمل سياسة الإدماج في فرنسا، فقد دعا لافيجري إلى انتهاج سياسة قوية للتبشير بحيث تجعل من الجزائريين مجموعة الكاثوليكيين المتحضرين، مثلما كانوا أجدادهم من قبل على حد قوله.

وبناء على ما تقدم فقد قرر تقديم مساعدات مالية سخية لكل مشروع يهدف إلى دمج السكان المسلمين في فرنسا^١.

لقد عمل المستوطنون الأوروبيون منذ سنة ١٨٧١م على الإنفراد بالسلطة في الجزائر وحرمان المسلمين من أي تمثيل سياسي أو الحصول على الجنسية الفرنسية وتركزت خطتهم على:

. التخلص من رؤساء القبائل أو الشخصيات الجزائرية التي تعاونت مع المكاتب العربية.

. إنهاء العمل بالشرعة الإسلامية وتطبيق القوانين الفرنسية.

. إلغاء المكاتب العربية في جميع أنحاء الجزائر.

. تحويل المناطق العسكرية إلى الحكم المدني^٢.

٥ . قانون الأنديجينا:

وابتداء من عام ١٨٨١م جاء الأوروبيون بقانون جديد يسمى "قانون الأنديجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسح الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للأوروبيين، وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م، ومن خلال هذا القانون حدد المستوطنون إجراءات معاقبة المسلمين وإجبارهم على دفع الضرائب بدون نقاش، ومنعهم من حمل السلاح، وعدم الذهاب إلى الحج بدون رخصة مسبقة، وإظهار الطاعة التامة لسلطة الأوروبيين.

وقد بدأ يستفعل خطر القضاء على الشخصية الوطنية للمسلم الجزائري يوم قرر المستوطنون الأوروبيون تعيين مسؤولين إداريين لتنفيذ العقوبات الواردة في قانون الأنديجينا وذلك بأساليبهم الخاصة.

وقد نجح هذا القانون في قمع الجزائريين وكان القائمون على تنفيذ هذا القانون من المستوطنين وحسب النصوص القانونية فإنهم لا يخضعون لسلطة الوالي أو رئيس أية بلدية

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٦٩.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٦٩.

أو القضاة. وهم في الحقيقة عباد عن ضباط بدون مراقبة ينفذون الأحكام ويفرضون الغرامات على المسلمين، وفي بعض الأحيان يتحولون إلى قضاة ورجال أمن ينفذون أحكامهم وقراراتهم بأنفسهم على السكان المسلمين وبصريح العبارة، فإنهم أداة لقمع المسلمين لأنه لا توجد سلطة أخرى تلغي قرارات هؤلاء الإداريين الذين تحولوا إلى وكلاء للمحاكم القمعية ابتداء من سنة ١٩٠٢م، وعندهم سلطات مطلقة لتأديب وفرض العقوبات، فالمسلم الذي ينتقل بدون رخصة يدفع غرامة، وإذا لم يستطع دفعها يذهب إلى السجن. وهؤلاء الإداريون مثل رؤساء البلديات يعملون ليلاً ونهاراً لإستغلال المسلمين، والحصول على أموال منهم ونهب ثرواتهم بأية صفة كانت^١.

٦. استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر:

في عهد الجمهورية الثالثة أدخل الكولون زراعة الكروم التي بنيت عليها صناعة النبيذ في بلد مسلم لا يتعاطى الكحول، لتحل محل زراعة الحبوب والبقول، وكان الكولون يصرون على أن يكون لمستعمرة الجزائر وضع خاص له نوع من التميز عن فرنسا، حتى تطلق أيديهم يعيشون فيها مثل ما يريدون وفي سنة ١٩٥٥م تحقق لهم ذلك، فقد عين جونار في منصب الحاكم العام الذي كان يطالب بتحقيق هذه الفكرة منذ ١٨٩٢م، استطاع أن يصدر ميزانية خاصة للمستعمرة وأن يبرز كياناً خاصاً لها جعله يمتص الأزمة التي اندلعت بين الكولون الزراعيين واليهود التجار وصدر قانون ١٩ / ١٢ / ١٩٥٥م الذي يعترف بنوع من التميز لشخصية الجزائر، كمستعمرة طبعاً وليست ككيان مستقل وقد تركت النفقات العسكرية خارج إطار ميزانية الجزائر.

في أوائل القرن العشرين زاد استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر الاقتصادية والبشرية، فزادت مساحة المزارع، الكولونيالية وزاد استغلال المعادن والغابات والصيد البحري ووصل في سنة ١٩١١م عدد من المستوطنين إلى ٧٥١,٠٠٠. وفي سنة ١٩٠٨م كانت فرنسا

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٧٣.

قد بدأت تعد مشروعاً للتجنيد الإجباري يطبق على الجزائريين، واضطر العديد من الأسر الجزائرية إلى الهجرة لأقطار المشرق العربي وبخاصة سوريا وفلسطين هروباً بأبنائهم حتى لا يجندوا بالجيش الفرنسي الذي رأوا فيه خطراً على دينهم، وصدرت مراسيم الخدمة الإجبارية العسكرية على الجزائريين في ٣١ / ١ و ٣ / ٢ / ١٩١٢ م ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى وجند الجزائريون في الجيش الفرنسي وكانت مرحلة جديدة ظهرت بعدها مباشرة تنظيمات الحركة الوطنية الجزائرية^١، يأتي الحديث عنها في الجزء الثاني من حديثنا عن كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٧. الأقلية الأوروبية في الجزائر:

إن الأقلية الأوروبية في الجزائر مارست ضغوطاً على جميع الحكومات الفرنسية منذ ١٨٣٠ م إلى ١٩٥٥ م بحيث نجحت الخطة المرسومة والتي اشتملت على ثلاث مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: تتمثل في إدماج الجزائر في فرنسا من الناحية القانونية، أي اتخاذ الإجراءات القانونية التي تسمح بإبتلاع الجزائر وجعلها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وفي هذا المجال، نشير إلى بعض القوانين التي تم سنّها بقصد ضم الجزائر إلى فرنسا وهي:

- مرسوم ٢٢ جوان ١٨٣٤ م الذي نص على إعتبار الجزائر جزء من الممتلكات الفرنسية.
- مرسوم ٤ مارس ١٨٤٨ م الذي نص على أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.
- قانون ٤ جويلية ١٨٦٥ م الذي نص على إعتبار المسلمين الجزائريين رعايا فرنسيين.
- مرسوم ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠ م الذي أصبحت الجزائر بموجبها تشكل ٣ مقاطعات فرنسية والقوانين الفرنسية تطبق على الجزائريين المسلمين.
- مرسوم ٢٩ مارس ١٨٧١ م الذي نص على تعيين حاكم عام مدني في الجزائر خاضع لسلطة وزير الداخلية الفرنسي.

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٦٢٠.

. قانون ٢٣ مارس ١٨٨٢م الخاص بإنشاء دفاتر الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين.

. قانون ١٩ ديسمبر ١٩٥٥م الذي يسمح للجالية الأوروبية في الجزائر أن تنشئ المجلس المالي، ثم المجلس الجزائري فيما بعد، وذلك لكي تحكم قبضتها على الجزائر وتمنع السكان المسلمين من الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية وحقوقهم في الحصول على تمثيل نيابي عادل سواء في المجالس البلدية أو المجلس الجزائري.

وأما المرحلة الثانية: أو الخطوة المكتملة للإندماج من الناحية القانونية فتتمثل في الاستيلاء على الأراضي الخصبة وإعطاء الجنسية لجميع المهاجرين والمقيمين الأجانب في الجزائر والحصول على دعم مالي من الدولة لبناء المدن الصغيرة في جميع أنحاء الجزائر.

لم يكن للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر أموال، عندما قدموا إليها لأنهم جاءوا أساساً إلى الجزائر بحثاً عن العمل والعيش فيها، ونظراً لفقرهم وعدم توفر أموال لديهم، قامت الدولة الفرنسية بتخصيص أموال طائلة لاستثمارها في بناء المدارس والطرق وشراء الأجهزة والمعدات الزراعية وإعطائهم أراضي بدون مقابل لاستغلالها والتمتع بخيراتها على حساب المواطن الجزائري الذي لا يجد من يمد له يد المساعدة. وبهذا الأسلوب الخبيث، ساهمت الدولة الفرنسية في تخطيط عنصر بشري "جزائري" وإثراء عنصر أوروبي دخيل على البلاد، وذلك عندما قامت بتسخير مواردها وموارد السكان المحليين لدعم الأوروبيين وتمكينهم من إخضاع أبناء البلد لنفوذهم السياسي وقوتهم المالية^١.

وعندما اكتملت المرحلة الأولى "مرحلة الإدماج" والمرحلة الثانية "مرحلة جلب المهاجرين" وذلك في بداية القرن العشرين، جاءت المرحلة الثالثة، كتتويج للمرحلتين السابقتين وهي إعطاء الجالية الأوروبية حكم ذاتي يسمح لها باستعمال الغش والمناورات والدسائس لفرض نفوذها على الجزائريين والتحكم فيهم إلى الأبد لقد كانوا يظنون أن قوانين الإدماج وتحالف الأوروبيين واليهود ووجود هيآت تشريعية ومجالس بلدية شكلية يتحكمون فيها

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

عن طريق الغش في الإنتخابات وانتقاء العملاء لملء المقاعد المخصصة للجزائريين المسلمين سوف تمكنهم من سد جميع الأبواب الحديدية في وجوه الجزائريين المقيمين في أرض آبائهم، وأجدادهم^١، لكن الله أراد شيئاً آخر متمثلاً في إعداد جيل جديد ليقوم فيما بعد بتوفيق الله ومنه بإحراز نصر عظيم على الغزاة الغاصبين.

الثاني عشر: التبشير بالنصرانية في الجزائر

عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين. وتأسيس كنيسة جزائرية. كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنة ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاه اسم كنيسة سان فيليب، وعندما مات سنة ١٨٦٤م دفن بها وهو الذي أعاد بقايا القديس أوغستين إلى عنابة سنة ١٨٤٢م في احتفالات كبيرة حضرها أساقفة فرنسا وهو الذي حول عدة مساجد إلى كنائس مثل جامع علي بتشين بالعاصمة، وجامع سوق الغزل بقسنطينة وجامع بني عامر بوهران، وهو الذي بنى كنائس في كل المدن التي دخلها الجيش الفرنسي وهو الذي عمل على منح مساجد وزوايا لجمعيات مسيحية كالجزويت، وأقام هو في قصر الأميرة عزيزة بقسنطينة وهو من قصور باي قسنطينة. واستدان دوبوش أموالاً كثيرة أنفقها على مشاريع التنصيرية، وعجز عن سداد الديون فتابعه الدائنون فهرب إلى إيطاليا وتولى أسقفية.

. الجزائر بعده لوي بافيه سنة ١٨٤٨م واستمر حتى ١٨٦٦م وهو الذي اعترف بعدم نجاح عملية تنصير الجزائريين بالمدن، كما اعترف بفشل الجزويت في تنصير القبائل وهو الذي بنى كنيسة السيدة الأفريقية بمكان عال يشرف على البحر بالعاصمة والتي بدئ في

^١ التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

بنائها سنة ١٨٥٨م ودفن عند وفاته سنة ١٨٦٦م في كنيسة السيدة الأفريقية وروي أنه مات حزينا لأنه لم يحقق طموحه في تنصير الجزائريين^١.

١. لافيغري ذروة التبشير في الجزائر:

خلف لوي بافيه على رأس الأسقفية لافيغري الذي سيطر على عملية التبشير من ١٨٦٧م وحتى سنة ١٨٩٢م ضمن خطة شاملة استهدفت إدماج الجزائريين في الشخصية الفرنسية عن طريق التنصير والفرنسة وقد سبق للافيغري أن عمل في سوريا وتعلم العربية وحضر أحداث ١٨٦٠م بدمشق التي تدخل الأمير عبد القادر بها وأنقذ مسيحيي دمشق من الإبادة، وصل لافيغري الجزائر سنة المجاعة وبعد مرسوم ١٨٦٣م الذي جرد الجزائريين من أراضيهم وأفقر الناس بمن فيهم الوجهاء^٢.

أ. الظروف العامة لمجاعة عامي "١٨٦٧م. ١٨٦٨م":

اشتد البلاء على الجزائريين وزادت النكبات من سنة ١٨٦٦م حتى ١٨٦٨م بنكبات عديدة اختباراً وامتحاناً من الله عز وجل للشعب وكانت أقسى ما تكون على السكان الجزائريين ولاسيما الفلاحين وعامة الناس منهم، وتمثلت هذه الابتلات والاختبارات الربانية في الزلازل التي ضربت مدينة البليدة وضواحيها والذي تسبب في ضحايا كثيرين وفي هجوم الجراد والجفاف ووباء الكوليرا والتيفوس، وقد تضافرت هذه النكبات كلها فأدت إلى ظهور أزمة اقتصادية وسياسية، نتجت عنها مجاعة عامة بالجزائر سنة ١٨٦٧م واستمرت إلى اواخر ١٨٦٨م. هجم الجراد على الجزائر في افريل ١٨٦٦م، فعم السهل المتيجي وكل المناطق المجاورة له وامتد إلى مدينة المدية وأتلف كل المحاصيل الزراعية، بحيث أصبحت حقول القمح والشعير . وهي أمل السكان ومصدر رزقهم وغذائهم الأساسي، خالية تماماً من الغلة، ولم تكد تنتهي كارثة الجراد حتى شمل الجزائر جفاف عام، وقد كان الأوروبيون أقل الذين تعرضوا لنتائج هذا القحط لأنهم كانوا يملكون أحسن الأراضي

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٧.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٦٣٧.

وأكثرها ماء بخلاف الفلاحين الجزائريين الذين كانت السلطة الاستعمارية قد استولت على أراضيهم ووزعتها على المعمرين حينما اتبعت في العهد الإمبراطوري سياسة التهجير والاستيطان للعنصر الأوروبي.

وتبعت هذا الجفاف أمطاراً غزيرة جداً وثلوج قوية أتلقت المحاصيل الزراعية الضعيفة وقتلت المواشي والأغنام فأضاعت بذلك بعض القبائل أغنامها، وثلث ثيرانها بسبب الجفاف، فتشرد المنكوبون، وانتهجوا طرق التسول وخاصة بمنطقة الجنوب والهضاب العليا وتوزعوا في البلاد لطلب العمل أو العشب لما تبقى لهم من الأغنام^١.

وقد اضطرتهم هذه الظروف القاسية على بيع خيولهم بأبخس الأثمان وحلي النساء للحصول على الحبوب والبدور بعد أن استهلكوا كل مخزون مطاميرهم واستنفذوا ما عندهم من المواد الغذائية، فالأرض لم تعد قادرة على الإنبات وارتفعت أسعار الحبوب.

لقد تضافرت هذه العوامل الطبيعية، فكانت أحد الأسباب الهامة في ظهور بلية كبرى كمنت في المجاعة العامة التي هلك بسببها الكثيرون ثم حدث وباء الكوليرا والتيفوس الذي زاد الطين بلة، فانتشر الجوع في البلاد وكثر، وأصبحوا يقتاتون بالجذور والأعشاب والكلاب، بل أن البعض منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى، وذكر البعض بأنهم أكلوا حتى الأحياء من البشر، وبلغ الأمر ببعضهم أن أصبحوا يتنازعون على المزابل والفضلات بالمدن. ويذكر الأب برزي الذي كان قسيساً على مدينة الشبلي بمتيجة^١ إن الجوع كانوا يفدون إلى المراكز الأوروبية بالمدن منهوكي القوى عراة، وقد غابت عنهم الصورة البشرية، إذ أصبحوا هياكل عظمية.

وامتلأت الشوارع بالمتسولين، وتضاعفت الاعتداءات لا من أجل الحصول على القوت، وإنما من أجل أن يقبض على المعتدي ويزج به في السجن ليضمن قوته بصفة مستمرة ومنظمة. وبطبيعة الحال كان المعمرين يحرسون ضيعاتهم، يدعون انهم كانوا مهملين

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية خديجة بقطاش، ص: ١٠٢.

مستعملين في ذلك بنادقهم الخاصة، ومما زاد الأمر خطورة انتشار وباء الكوليرا بشكل واسع وسط الجزائريين، أما الأوروبيون فقد نجوا منه لتوفر الوقاية الصحية لديهم^١.

ب. عدد الضحايا:

ويضيف الأب برزي قائلاً: إنه ليصعب علينا التعرف على العدد الحقيقي للضحايا وهو يقدره بحوالي ٢٥٠ ألف ضحية، وحسب تقدير الجنرال آلا ر في التقرير الذي قدمه إلى أعضاء المجلس التشريعي في مارس ١٨٦٨م فإن عدد الضحايا بلغ سنة ١٨٦٧م ٨٩,٥٧٧ ضحية، ٨٦,٧٩١ من الجزائريين، ويبدو من هذا محاولة إخفاء للحقيقة المرة بالجزائر، أما جريدة المرشد الجزائري فتذكر بأن العدد بلغ ١٢٨,٨١٢ ضحية في الأشهر الأربعة الأولى عام ١٨٦٨م.

ج. موقف فرنسا من المجاعة:

أمام هذه المصيبة أشعر إسماعيل عربان نابليون الثالث بخطورة الوضع فرأى الإمبراطور أن يكتب الجنرال ماكهمون الحاكم العام آنذاك بالجزائر ويبدو أن هذا المسؤول العسكري لم يطع الإمبراطور على حقيقة المجاعة، ومما قاله نابليون الثالث: لا ترغب فرنسا في أن يقال عنها يوماً ما أنها تركت الخاضعين لحكمها يموتون جوعاً.

يبدو أن مكماهون عمل على فتح ورشات عمل في الجهات الخاضعة للنظام المدني وملاجئ كانت عبارة عن محتشدات عسكرية جمع فيها هؤلاء المنكوبين لا من أجل إسعافهم وإنما لتوفير الأمن للأوروبيين، كما أنه وزع صدقات على الجائعين، غير أن التقارير الشهرية لعام ١٨٦٨م تذكر حقائق مفعجة بسبب المجاعة وتصفها بالمصيبة الكبرى.

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٠٣.

خصصت الحكومة مبلغاً قدره ٤٠٠ ألف فرنك في جانفي ١٨٦٨م مبلغاً قيمته مليونين من الفرنكات في مارس من نفس السنة، لكن هذه المبالغ لم تكن لتكفي لإيصال الحبوب في وقتها المناسب كما كانت هذه المساعدة ارتجالية وغير منظمة^١.

شكلت هذه المأساة أزمة سياسية حادة في الجزائر، عاشها المستوطنون بمختلف فئاتهم، حيث فتحت باباً لأعداء النظام العسكري، وكانت هذه الأزمة ونتائجها محور مقالاتهم بمختلف الجرائد وآتتهم المعارضون لهذا النظام العسكري وردّوا سبب هذه المصيبة إليه، وإذا كان دعاة النظام المدني قد أرجعوا سبب الكارثة إلى النظام العسكري، والبعض الآخر، إلى الكوارث الطبيعية كهجوم الجراد والجفاف فإن الأعيان الجزائريين ردوها إلى سوء تصرف السلطة الفرنسية مع أبناء الوطن الذين أخذت أراضيهم غصباً.

وأما الكردينال لافيغري، فقد ردّ السبب إلى الاقطاع "الأهلي" ويبدو أن هذا غير صحيح لأن الديون التي ترتبت على الملاك الكبار من الجزائريين إثر انقراضهم للجياح كانت كبيرة بحيث أفرغوا مطاميرهم وخسروا ثرواتهم، ومن بين هؤلاء الباشاني المقراني الذي لعب دوراً عملياً في إغاثة المنكوبين، فبدعوة من الجنرال مكماهون الحاكم العام، تسلف المقراني من السيد مسرين اليهودي وكان يملك سهماً في بنك الجزائر . مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف فرنك في شكل وصولات إلى حساب البنك الجزائري، ولم يلبث المبلغ أن ارتفع مع الأرباح إلى نصف مليون فرنك واقترض من السيد عبّادي اليهودي أبو قاية بسطيف، فارتفعت ديونه إلى مليون فرنك خصصها لإنقاذ الجياح من الموت وإعانة الفلاحين على حرث أراضيهم واضطر في الأخير إلى أن يبيع بعض أملاكه لتسديد بعض الديون فيما بعد^٢.

٢ . فلسفة التبشير لدى لافيغري:

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٤ .

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٠٥ .

يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير، وطبعها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقية ويعود ذلك إلى ما يلي:

- . النشاط الفعال الذي أبداه في نشر المسيحية.
- . روح التعصب الديني عنده وإرادة التعريض بالإسلام ورجاله.
- . مواقفه التبشيرية التنصيرية التي استهدفت خدمة المصالح الفرنسية بالجزائر وأفريقية بوجه عام ومكانته المرموقة لدى سلطات الفاتيكان.
- . التأييد الذي حصل عليه من بعض المسؤولين الكبار في الجزائر ومن حكومة باريس.
- . ولم يخف لافيجري نواياه التبشيرية من الوهلة الأولى من التعيين، ويظهر ذلك في مكاتبه لوزير الشؤون الدينية بعد قرار التعيين إذ يقول: ... إني الوحيد الذي أبديت اهتماماً بنشر المسيحية وسط العرب، وقد كانت ولا زالت لي علاقة طيبة مع مسيحي المشرق العربي وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر.
- . وقبول لافيجري لمنصب أسقفية الجزائر كان أولاً وقبل كل شيء يرمي إلى أبعاد دينية وسياسية في نفس الوقت:
- . من أجل خدمة الكنيسة المسيحية الناشئة في الجزائر.
- . من أجل تعزيز المكاسب الفرنسية الاستعمارية بالجزائر، واعتبر بلاد الجزائر بوابة تنطلق منها عملية الاستعمار في أفريقية والتبشير فيها، وقد عبرت عن ذلك رسالته الموجهة إلى رهبان الجزائريون ٥ ماي ١٨٦٧م وقال: سأتيكم إخواني في ساعة مشهودة في تاريخ أفريقية المسيحية، أن الكنيسة وفرنسا متحدتان على أحياء الماضي^١.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٧.

والتبشير الذي يريده لافييجري هو ذلك الذي يعمل على تحقيق الادمج عن طريق التنصير وليس الادمج الذي يتم عن طريق القوانين أو القوة، لأن هذه القوة في نظره، لن تؤدّي إلى نجاح فرنسا في الجزائر حتى ولو بقيت فيها عشرة قرون. وأحسّ بالخجل أمام الأمة الفرنسية التي عاشت مدة أربعين سنة أمام شعب مسلم خاضع لها، دون أن تعمل على تنصيره. وتعجب من موقف السلطة من التبشير فهي عوض أن تعمل على إدماج الأهالي . أي الجزائريين . في المجتمع الأوروبي والحضارة المسيحية تركبهم يتخبطون في بربريتهم وقرآنهم. وقد كان القرآن والإسلام في نظره أشدّ عدو للمسيحية وإن واجبه يفرض عليه محاربتهم، فالقرآن بالنسبة له شريعة الكذب واللا أخلاق، كبرت كلمة تخرج من فيه. وعمل على محاربة الإسلام بنشر التنصير بين المسلمين وذلك بوسيلتين: . الأعمال الخيرية التبشيرية.

. إنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان وهذه هي الإدارة الضرورية لتحقيق الادمج. لقد كانت كارثة ١٨٦٧ م . ١٨٦٨ م فرصة مناسبة اغتنمها الكاردينال لافييجري ليفتح باب التبشير على مصراعيه، وقاعدة المبشرين أنهم ينتهزون هذه الفرصة، فاستغل وضع الكثير من المرضى والجوع، أنقذهم من الهلاك باسم الصليب، وفرنسا فجمع حوله ما يقرب من ألف وثمانمائة طفل بين مشرد ومريض تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ووزعهم على مختلف المراكز والملاجئ التي أنشأها في بوزريعة وبولوغين "سان أوجين سابقاً" وبين عكنون والأبيار والقبة، وسلم بعضهم أيضاً إلى سيوعي بوفاريك والأخوات والراهبات بمصطفى، قصد معالجتهم وتنصيرهم^١.

ولما كانت هذه العملية التنصيرية تحتاج إلى أموال وتأيد سافر الكاردينال لافييجري إلى باريس ليطلب الصدقات لهؤلاء الأطفال وليلفت نظر أصدقائه بجامعة السربون، ونظر

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

وزارة الشؤون الدينية إلى نكبة الجزائر وقبل العودة إلى الجزائر . في أول جانفي ١٨٦٨ م . وجه نداء إلى كل الصحف الكاثوليكية يصف فيه المجاعة ويطلب مساعدة المسيحيين الطيبين لفائدة الملاحي،، فلبى هؤلاء النداء وتكونت لجان بالمدن الفرنسية الكبرى لجمع التبرعات، استمرت مساعي لافيغري الخيرية ليدفعه حماسه الديني، وفي ٢٠ فيفري من نفس السنة بعث رسالة إلى كل رجال الدين بفرنسا يطلب منهم قراءة ما جاء في النداء المذكور في مختلف المراكز الدينية والكنائس، لتعريف الفرنسيين بالمأساة رغبة في الحصول على المساعدات وقد تم ذلك بحصول لافيغري على تبرعات مالية مبلغها ثمانمائة ألف فرنك لصالح الملاحي،، وفي ١٥ مارس من نفس السنة أسقافة بلجيكا وإسبانيا وإنجلترا يطلب منهم المعونة، وكان البابا بيوس التاسع من الذين لبّوا النداء بإرسال مساعدة مالية قدرها ٥ آلاف فرنك وتلقى لافيغري مبلغ ستين ألف فرنك من كاردينال مدينة ريوان بفرنسا لفائدة المستعمرة، ومن الامبراطور نابليون وزوجته اعانة شخصية مبلغها ثلاثة عشر ألف فرنك ودعمت هذه التبرعات الكاثوليكية إعانات بروتستانتية بالرغم من اختلافهما في المذهب إلا أنهما يتفقان في الهدف وهو التنصير، وقال رئيس المذهب البروتستانتي بالجزائر: يمكن للكنيسة المسيحية أن تترك أثراً طيباً في نفوس الأهالي بفضل خدماتها الخيرية^١.

ووجد نداء لافيغري في الجزائر صدى من بعض العسكريين الذين ناصروا التبشير فقد بعث له الجنرال ومبفن بثلاثين خيمة وجنوداً لتنصبها بالملاحي، وشكره على الأعمال التي يقوم بها لصالح الأيتام والمعمرين، واعتبرها أجمل وأجل مشاريع هذا القرن، ورأى بأن هذا العمل الخيري يجب أن يجد تأييداً ليس من الشعب . الفرنسي طبعاً . فحسب وإنما من الدولة أيضاً.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٠٩ .

وكسب لافيرجي ودّ المعمرين الذين ساندتهم في مصالحهم الاستعمارية وحصل على تبرعات مالية منهم، وقد استدعت هذه التبرعات التي تأتي من كل حذب وصوب التنظيم، ولهذا الغرض تكونت لجنة خاصة تشرف على إدارة التبرعات وكانت التبرعات تنشر أسبوعياً في مجلة "صدى سيدتنا الأفريقية" وهي مجلة أسسها لافيرجي وأشرف على تحريرها وهي ذات أغراض دينية تبشيرية هدفها اطلاع الرأي العام في الجزائر، وكانت هذه المجلة من الوسائل الإعلامية التي استطاع لافيرجي أن يفرض وجوده وأن يجلب إليه أنصار عديدين^١.

جند لافيرجي فرقاً دينية من الرهبان والراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بوباء الكوليرا والتيفوس والجذري، وقد بلغ التفاني من أجل هذه المهمة، أن هلك الكثير من رجال الدين بسبب انتشار العدوى وبالرغم من الجهود التي بذلوها لإنقاذ حياة الأطفال من الموت، فإن الكثير منهم قد هلك وعددهم حوالي ٦٠٠ طفل، واغتنم لافيرجي هذه الحالة فعمّد الكثير منهم ساعة الاحتضار.

وقد أثار هذا العمل خوف الكثير من أسر الأطفال، فطالبت باسترجاع أبنائها إليها وفّر من تمكن من المراهقين عندما أدركوا هذه الحقيقة، ولم يبق بالملاجئ سوى ٣٧٨ طفلاً ٣٤٢ بنتاً أراد لافيرجي أن يحتفظ بهم بدعوى أنه المنقذ لحياتهم من الهلاك ليجعل منهم رجالاً مسيحيين أن أمكن ذلك وليكونوا نواة التبشير الجماعي والعائلة العربية المسيحية بالجزائر والكتابات العديدة التي ظهرت أثناء هذه المجاعة ما بعدها وتصميم هذا الرجل على إبقاء هؤلاء الأطفال لديه يعكس الروح الصليبية والهدف الديني والاستعمار الذي كان يسعى إليه وفي يوم ٦ أبريل ١٨٦٨م أعلن عن تبنيّه للأطفال الأيتام وتمّ الإعلان عن طريق نشر رسالة مطولة بمختلف جرائد الجزائر، لخص فيها ظروف المأساة وأفصح عن رغبته في تطوير هذه العملية الكبرى . عملية التبشير . للوصول إلى إدماج الجزائريين

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٠.

السريع في المجتمع الفرنسي، وقرر إبقاء الشبان الذكور بين عكنون لتكوينهم في ميدان الفلاحة، وتسليم البنات للراهبات لتكوينهم في الأعمال المنزلية والحقل، وكانت نية لافيرجي في هذا القرار إيجاد نواة خصبة من العرب المسيحيين الذين سيعملون من أجل الاستعمار الفرنسي، وجسد هذه النية حينما قال: سيكون في ظرف سنوات قليلة مشتلة خصبة من العمال النافعين الذين يساندون علمنا، ولنقلها صراحة من العرب المسيحيين^١.

واصطدم لافيرجي بصمود الجزائريين وتمسكهم بالإسلام وعقيدتهم المعبرة عن وجودهم وكيانهم، ورأي لافيرجي في تمسك الجزائريين بالإسلام تعصباً أعمى فأخذ يسيء إليهم بقوله: إن الانعدام الكلي لمعنى الأخلاق هو السبب في شقاء هذا العرق.

وقال: يجب إنقاذ هذا الشعب وينبغي الأعراض عن هفوات الماضي ولا يمكن أن يبقى محصوراً في قرآنه، ويتعين على فرنسا أما أن تقدم له . بل إني أخطأت التعبير . يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لتقدم له الإنجيل وإما عليها أن تطرد هذا الشعب إلى الصحاري بعيداً عن العالم المتمدن. ويبدو من هذا القول لافيرجي أنه أراد تطبيق سياسة أمريكا في القضاء على الهنود الحمر، وأبعادهم من مراكز التمدن، لأنهم رفضوا الاستجابة لدعوة التنصير والتمسك بالقرآن المجيد، والإسلام العظيم.

وكان هذا المنشور محل نقد المعارضين للتبشير ومرد ذلك:

. ليس احتراماً للإسلام والمسلمين، بل تخوفهم من عودة رجال الدين إلى المجال السياسي، وهو الذي عانوا منه مدة طويلة في فرنسا.

. خشيتهم من نتائج التبشير، وعواقبه على المستعمرة، وكان لافيرجي محل انتقاد وتولد ردة فعل من الشعب الجزائري، وحاول ماكهمون التخفيف من ردة الفعل وأثار الجنرال ماكهمون في رسالة موجهة إلى وزير الحربية بتاريخ ٢ جوان ١٨٦٨م إلى آخر حديث

^١ المصدر نفسه، ص: ١١١.

جرى بين السيد ابن علي الشريف مع نائبه الحاكم العام "ديريو" قال فيه: لقد قرأت رسالة لافييجري المؤرخة يوم ٦ أفريل والتي أعلن فيها عن عزمه على استبدال القرآن بالإنجيل لاعادة الحياة إلى هذا الشعب، لقد أثرت هذه الرسالة في المسلمين، وإني كرجل ديني وكل مسلمي جيلي الذين يفكرون مثلي، إننا نفضل موت جميع أولادنا من أن نراهم منصرين، فليس هناك مساومة في هذا الأمر، لقد وعدتمونا بعدم المساس بديننا، فإذا أخلفتم هذا الوعد وخالفتم قسمكم فإننا بالمقابل غير ملزمين بوعدنا تجاهكم^١.

٣ . الخلاف بين لافييجري وبين الجنرال ماكهمون:

أدرك ماكهمون العواقب التي يترتب عليه قرار لافييجري بتبنيه الأطفال الأيتام، وطالب الجنرال بإرجاع هؤلاء اليتامى إلى ذويهم، وهدد بغلق الملاجئ في حالة رفضه تطبيق أوامره، لكن لافييجري صمم على إبقاء الأطفال بالملاجئ، مدعياً بأنه أصبح أباً لهم، وأنه يملكهم لأنه أحياهم بعد أن أوشكوا على الموت، وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور مشادة كلامية بينه وبين الجنرال ماكهمون، وقد تدخلت الحكومة بباريس لحل هذا النزاع، وظل الصراع بين الرجلين محور مقالات متعددة بمختلف الجرائد بالجزائر وباريس وتجاوز الإطار الجزائري ليتحول إلى مشكل إسلامي، إذ أن صحيفة "الجوائب" التي يشترك فيها عدد من الأعيان، ومن أهل قسنطينة بوجه خاص، نشرت العديد من المقالات حول الموضوع، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على روح التضامن بين المسلمين في المشرق والمغرب رغم الضعف السياسي الذي كان يعيشه الحكام.

واشتد الخلاف بين الجنرال ماكهمون والكاردينال لافييجري، واحتج الجنرال على الكاردينال باسم الحكومة أمام حملته الشديدة ضد النظام العسكري، فكتب إليه يذكر له أنه إذا كانت أعماله الخيرية قد تركت في نفوس الفرنسيين المتعاطفين معه انطباعات حسنة، فإنها من ناحية أخرى قد وجدت نفوراً بين الأهالي الذين لم يريدوها على

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٣.

حساب ديانتهم ولأنها استغلال لظروفهم القاسية خدمة للتبشير وذكره أيضا بالعواقب التي تنجم عن طرد المسلمين إلى الصحارى، في وقت تريد فرنسا أن تجلبهم إليها وتعمل على تطبيق ما جاءت به أفكار نابليون الثالث عام ١٨٦٥م، غير أن الكاردينال لافيغري وضع خطته الجديدة في الإدماج وبين للجنرال بأن للتبشير فائدتين هما:

أ. أن تنصيره للأطفال ولكل المسلمين سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي في الجزائر، لأن التبشير يخلق قوة سياسية جديدة تتمثل في الأهالي الأوربيين الذين سيعملون على إخماد الثورات.

ب. أن المسلمين الذين أخذوا عن الأوربيين عيوباً كبيرة سيتعلمون المبادئ الحسنة من المسيحية عن طريق التنصير، ففي نظره أن لا أخلاق ولا مبادئ للمسلمين.

وطالما أن لافيغري رأى في الجزائريين صورة همجية فإنه وعلى خلفية النظرية الاستعمارية التي تذرع بها سابقوه فالاحتلال جاء لتمدين الجزائريين وإخراجهم من التخلف.

ووقف المستوطنون في جبهة لافيغري في موقفه من الأطفال ومن التبشير مكونين واياهم قوة متحدة ووقفوا معارضين لتدريس القرآن في الزوايا، واتهم الصحفي كليمان ديفرنوا الذي دافع عن حق المسلمين في تعلم القرآن بالتعصب والتحريض على الثورة.

ولم يكتف المعمرون بهذا فلاموا الإمبراطور نابليون الثالث: حينما أراد نشر اللغة العربية وأبدى اهتماماً بالأعياد الدينية، وشجعوا الكاردينال لافيغري على الاحتفاظ بالأطفال اليتامى، مؤكدين على أن الاندماج الذي لا يصلح مع كبار السن المتعصبين سوف ينجح مع الأطفال الصغار.

أحس لافيغري بالقوة بفضل التفاف المعمرين حوله فزاد موقفه تصلباً وأمام هذا قرر الجنرال ماكهمون مكاتبة وزير الحربية الماريشال نيبيل يوم ٢٣ أبريل ١٨٦٨م ليضع حداً للصراع ووصف له تخوف السكان المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي.

ولكن وزير الحربية كان مسانداً ومؤيداً للتبشير ولذلك لم يستجب لمقترحات ماكهمون.

ويبدو أن الكاردينال استخف قول ماكمهون من تخوف السكان وثورتهم ضد التبشير، فكتب إلى الإمبراطور يقول: لم يعد للعرب قوة ولا إمكانيات للقيام بالثورة. وادعى بأن الادارة العسكرية تنهرب من مسؤولية المجاعة والأمراض، ولذلك استندت إلى تخوف السكان منه^١.

وإذا رجعنا إلى موقف الإمبراطور نابليون الثالث من التبشير وجدنا بأنه أبدى تمسكه بمبدأ حرية العقيدة الدينية، وتحت تأثير ماكمهون بعث نابليون خطاباً شديد اللهجة إلى الكاردينال لافيغري يذكره فيه، بأن المسؤولية الملقاة عليه، هي تهذيب أخلاق المائتي ألف معمر الموجودين في الجزائر، ويأمره بترك شأن العرب للحاكم العام الذي يتولى تأديبهم وتنظيمهم.

وإذا كان موقف الإمبراطور موقفاً غير مشجع للتبشير فإن هناك من شجعه من كبار مسؤولي الدولة، ففي الجزائر أعلن الجنرال ومفين عن تأييده للكاردينال للمرة الثانية حينما شجعه قائلاً: يجب عليكم أن تبدلوا كل مجهوداتكم للحفاظ على الملاجئ وتحسينها، وتركها مفتوحة لكل اليتامى وهذه وسيلة عملية تمكن العرب من اعتناق ديننا، وفي باريس تلقى لافيغري مساندة وزير الشؤون الدينية باروش الذي وقف إلى جانبه، وكذلك وزير الدولة السيد روي الذي ناصر التنصير في الجزائر، وهذا يدل على أن الكاردينال لم يكن وحده في هذه المهمة، بل كان إلى جانبه جمهور من المعمرين بالجزائر ومن مسؤولين كبار بباريس^٢.

٤ . لقاء لافيغري مع الإمبراطور:

لكي يدافع الكاردينال لافيغري عن أعماله التبشيرية أمام الإمبراطور سافر يوم ٩ ماي ١٨٦٨م إلى باريس وأثناء وجوده بهذه المدينة. قامت معظم صحف الجزائر الموالية للاستعمار والمعمرين بنشر مقالات تأييداً له، واستطاعت هذه الحملة الصحفية أن تعجز

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٦.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١١٧، ١١٨.

الجنرال ماكهمون وتسكت الصحافة الرسمية بباريس وشجعتة كذلك رسائل المعمرين من الجزائر وقد جاء في إحداها: لقد قمتم بالدفاع عن الاستعمار في الجزائر ضد المكاتب العربية.. إن القضية التي تدافعون عنها هي الحق والعدل والتقدم. وفي رسالة أخرى: إننا نعتمد عليكم في الدفاع عن أمانينا أمام الإمبراطور.

ويبدو أن هذا الدعم الإعلامي جعله يشعر بالفخر والعجب والإصرار على المعنى في مشروعه الظلامي، تمكن الكاردينال من مقابلة الإمبراطور الذي استقبله ببرودة ورد على كل الاتهامات التي وجهت إليه من ماكهمون، وقال أنه لا يعمل إلا بتوجيه الخطاب الإمبراطوري بالجزائر عام ١٨٦٠م وتطبيق ما جاء فيه: نشر التعليم وسط العرب، مع احترام ديانتهم وتحسين مستوى معيشتهم.

ولكي يضع الإمبراطور حداً للصراع القائم بين ماكهمون ولافيجري اقترح على هذا الأخير تعيينه على أسقفية مدينة ليون بفرنسا، لكن الكاردينال رفض ذلك قائلاً: إن قبولي لهذا المنصب الجديد يعني الهروب من معركة بدأت القيام بها وهذا يعتبر مساً لشرفي. ثم صمّم العودة إلى منصبه في الجزائر مهما كانت الظروف واعدأ الإمبراطور الكاردينال بالسماح له بممارسة الأعمال الخيرية وسط مسلمي الجزائر.

وحتى يطمئن بال الكاردينال، نشر الماريشال نيبيل وزير الحربية تصريحاً مطولاً بالجريدة الرسمية يوم ٢٨ ماي ١٨٦٨م ومما جاء فيه هذه العبارات المؤيدة للتبشير في الجزائر: تيقنوا سيدي الكاردينال، بأن الحكومة لم تفكر أبداً في حصر حقوقكم كأسقف، بل هي تترك لكم الحرية لتوسيع وتحسين ملائكم حيث تريدون تقديم الإعانات المسيحية للأرامل والعجزة والأطفال المشردين^١.

وتدعيماً للتبشير وصفت جريدة لورور "الفجر" هذا الفوز بأنه فجر جديد على الجزائر. أما جريدة "الديب" المعروفة بمقالاتها التبشيرية فقالت: استطاعت أن تكفكف دموعها

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٩ ، ١٢٠.

الغذيرة بعد أن أسالتها مدة طويلة من أجل لافيغري، عاد الكاردينال لافيغري إلى الجزائر يوم ٧ سبتمبر ١٨٦٨م بعد أن حصل على حرية التبشير من الإمبراطور نابليون الثالث وضمن الحفاظ على الملاجيء، وبمقتضى ذلك تصرف في اليتامى كما يشاء^١. إن الحرية التي حصل عليها لافيغري بعد قرار وزير الحربية والتسامح الذي أظهره الإمبراطور نابليون تجاه أعماله الخيرية جعلته يتحرر من القيود التي فرضت عليه وعلى من سبقوه في هذا الميدان، وسمحت له تنفيذه مخططاته التبشيرية، غير أنه بالسلطة العسكرية في الجزائر فبدأها بتعميد ستة شبان . نجوا من كارثة المجاعة . في كنيسة السيدة الأفريقية على مرأى ومسمع الجميع، وبعد مدة وبإيعاز من الفاتيكان تم تعميد طفلين يتيمين جزائريين آخرين في مدينة روما، ويظهر من وراء هذه العملية أمران هما:

أ . التعاون الوثيق بين الفاتيكان والكاردينال لافيغري والمعروف أن البابوية بروما وعلى رأسها البابا بيوس التاسع برك العمل الخيري التبشيري في الجزائر وساند لافيغري مساندة قوية ورأي فيها أحياء للحروب الصليبية التي كانت هجمة قوية على الإسلام والمسلمين.

ب . تنوير الرأي العام العالمي المسيحي في أوروبا وغيرها بأن التبشير في الجزائر يخدم الكاثوليكية والمصالح الأوروبية عموماً، وعليه يجب تدعيمه مادياً ومعنوياً، وهكذا يكون النشاط التبشيري قد توسع واتخذ ابعاداً أخرى، ولكي يستمر لافيغري، ويتمكن من كسب نجاح أوسع وأكبر لابد له من مبشرين كثيرين يحققون هذا الهدف، لذلك أنشأ فيفري من عام ١٨٦٩م فرقة دينية جديدة هي فرقة الآباء البيض^٢.

دون أن يجد معارضة رسمية لذلك، وهذه الفرقة الجديدة هي التي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر أولاً ثم تونس والمغرب ثانياً وفي أفريقيا أخيراً.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٢١.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٢٣.

ويبدو أن فكرة تنصير أفريقيا تعود إلى الأيام الأولى من مجئ لافيجري إلى الجزائر، ألم يعلن عنها حينما خاطب رجال الدين قائلاً:

يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية، مهداً للأمة الفرنسية المسيحية، وينبغي أن ننشر حولنا الاضواء الحقيقية للحضارة المستوحاة من الانجيل، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الأفريقي الذي يعيش حياة بربرية، ونعمل على ربط وسط أفريقية بشمالها.

ويريد لافيجري بهذا التصريح بسط النفوذ الكاثوليكي الفرنسي في أفريقية قبل أن تشرع في ذلك عسكرياً وسياسياً. مثلما فعلت كذلك بالهند الصينية سابقاً. ولن يتم لها ذلك إلا بواسطة تحبيب فرنسا باسم السيد المسيح، فالمبشر كان يسبق الجيش في كل مكان ليمهد الأرض اللازمة للنفوذ السياسي والعسكري، ولم يقتصر هذا على فرنسا بل استعملها للدول الأوربية حيث تبارت في استخدام المبشرين لتأييد النفوذ الأجنبي، وكانت النتيجة أن التبشير الممزوج بالسياسة، بل السياسة المغلفة بالتبشير وهو الاستعمار وما نجحت فرنسا في الدخول إلى أجزاء من أفريقية إلا بفضل الآباء البيض الذين مهدوا لها طرق الاحتلال^١.

٥. تأسيس فرقة الآباء البيض والأخوات البيض:

تأسست هذه الفرقة الدينية في الجزائر بعد نكبة المجاعة، وكان ذلك على يد الكاردينال لافيجري سنة ١٨٦٩م وأطلق عليها هذا الاسم إلى اللباس الأبيض الذي يلبسه مبشروها ومبشراتهما ليشابه اللباس العربي الجزائري.

ولم ينس لافيجري مقام المرأة في الأسرة فوجه اهتمامه إلى التأثير عليها، فالمرأة في نظره مدار الحياة الاجتماعية، والوصول إليها وصول إلى الأسرة كلها، واستخدام المرأة هو لتحقيق الأهداف النبيلة ولهذا أنشأ في نفس السنة أي في سبتمبر ١٨٦٩م فرقة الأخوات البيض وحملها مسئولية التبشير في الوسط النسائي.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

فالمرأة المسلمة الجزائرية التي كانت تمثل حصناً منيعاً ضد كل ما هو دخيل بحكم الدين والتربية والعادات والتقاليد سمح لأخوات البيض التغلغل في صفوفها. أي المرأة. إليهن في المستوصف، والمستشفى، والزيارات المنزلية التوجيهية والتعليم وهو ما لا يمكن للمبشر الرجل القيام به.

إن فرقة الآباء والأخوات البيض تأسست بالجزائر تحت ظروف المجاعة خصيصاً لتنصير مسلمي الجزائر، وقد اختلفت عن الفرق الدينية في أشياء كثيرة لاسيما في وسائل التبشير وطرقه إلا أن القاسم المشترك بينها هو نشر رسالة الإنجيل خارج العالم المسيحي.

أدرك لافيغري أن اللباس الديني المسيحي سيخلق هوة بين المبشرين والجزائريين، لذلك أشار على أعضاء الفرقة الجديدة أن يتقربوا من "الأهالي" باتخاذ عاداتهم وطرق معيشتهم ولباسهم ولغتهم، فاختار لهم اللون الأبيض ويتكون من طويلة مصنوعة من الصوف أو القطن ويوضع فوقها بنوس أبيض اللون، ومن شاشية حمراء توضع فوق الرأس انسجماً مع الزي التقليدي الجزائري وتحاط الرقبة بسبحة وردية اللون يتدلى من طرفها صليب أبيض أو أسود، وكثيراً ما كان الأب يترك لحيته طويلة، وهذه الطريقة في اللباس جعلت هذه الفرقة تحتك بالسكان إحتكاكاً شديداً وتتعرف على طرق حياتهم، وقد وضع لإفيغري برنامجاً صارماً لتكوين مبشريه يخضع أثناءها المبشر إلى تنظيم محكم يسمح له بأداء مهمته التنفيذية ويدوم تكوينه خمس سنوات تمر بمراحل هي:

. المرحلة الأولى ويقضيها المبشر في المدرسة الابتدائية الدينية بالحراش

. المرحلة الثانية في كلية اللاهوت في تيباز بتونس وقرطاج

وأثناءها يأخذ علم اللاهوت واللغات . العربية والأمازيغية - ودروساً في الطب التطبيقي يستفيد منه في الأعمال الخيرية، فإذا كانت الجزائر حقلاً للتجارب التبشيرية التنصيرية فقد جعل لافيغري من تونس معهداً للتكوين الثقافي والديني للآباء.

وقد صور لافيجري عظم المسؤولية التبشيرية الملقة على عاتق هؤلاء قائلًا: إن رجال الدين هم الذين قاموا بإصلاح الأراضي في فرنسا وتعميرها، وتحضير وتمدين سكانها بعد أن إكتسحت هجومات البربر الأراضي الأوروبية، وهذا مايجب عمله في أفريقية بعد زحف الإسلام عليها^١.

وتتم هذه التوصية عن روح التعصب الديني لهذا الرجل فما أبعد حضارة المسلمين المزدهرة في هذا الجزء من أفريقية عن جهل وتأخر أوروبا المعروفين عنها في العصور الوسطى. وقد وضع لافيجري قواعد ومنهجية عمل لهذه الفرقة، أصبحت تعتمد عليها فيما بعد: الإيمان بالعمل التبشيري والتفاني والتضحية من أجله.

. التحلي بالصبر لأن العمل شاق وطويل.

. العمل بحذر لأنه ضروري لبلوغ الهدف.

. إستخدام الخدمات الخيرية لأنها الوسيلة الأساسية لنجاح التبشير.

. أن يكون شعار الفرقة هو المحبة والتكامل لأن في ذلك قوة تعمل على الوصول إلى الأهداف التبشيرية فهذه القواعد إنطلقت فرقة الآباء والأخوات البيض في العمل التبشيري، ويمكن أن نعتبر تأسيسها انطلاقة كبيرة في الميدان التبشيري وذروة كبرى بلغها في الجزائر، بل وفي أفريقية، وبفضل هذه الفرقة تمكن لافيجري رغم الظروف والصعوبات أن يركز نفوذه وذلك بتأسيس عدة مراكز تبشيرية في كل أنحاء البلاد وخارجها، كان أهمها تلك المراكز التي أسسها في منطقة القبائل الكبرى والصحراء^٢.

٦ . التنصير في منطقة القبائل:

عملت فرنسا على تزوير تاريخ الجزائر وقامت بدعم الدراسات التي تخدم مخططات المستعمرين ومنها ما تناول تاريخ أفريقيا وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على البربر الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف وقطعت صلة

^١ المصدر نفسه، ص: ١٢٦.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٢٧.

البلاد مع الحضارة الغربية والكنيسة، وقد حاولت هذه الدراسات ربط ماضي شمال أفريقيا المسيحي بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي بالجزائر، وكان القصد منها إظهار إمتداد المدينة اللاتينية بالمغرب العربي الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي، ومن هذا المنطق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم ويؤكد شرعية احتلال البلاد وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي بإعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال وساهم فيها العسكريون ورجال الدين، والرحالة، وبعض الكتاب وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم . أفريقية اللاتينية والجزائر الفرنسية المسيحية، كما كثرت الحفريات للبحث عن الآثار المسيحية إنطلاقاً من الخرافة أو كتب الرحالة إحياء للكنيسة الرومانية القديمة، ومثلها اهتم الفرنسيون بالتاريخ والآثار إحياء للمدينة والكنيسة، فإنهم فعلوا كذلك حينما تناولوا سكان الجزائر إنتوغرافيا، فما أن إستقر المحتل في البلاد حتى بدأت الإدارة الفرنسية وما حولها من كتاب تحاول وبجميع الوسائل أن تتعرف على فئات الأهالي وأن تعلم ما هي المقاييس والحاجيات والخصوصيات لدى كل واحدة منها أولاً، وتطبيق سياسة فرق تسد ثانياً، وهكذا شهدت الجزائر عشرات من ضباط الشؤون الأهلية، والرحالة والمبشرين الذين إختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة عند السكان ونظمهم الإجتماعية والاقتصادية ولغاتهم ولهجاتهم بمختلف مناطقهم وكأنهم سيفساء من الشعوب والقبائل.

وسعى هؤلاء أيضاً إلى تقسيم عام للسكان إلى بربر أو سكان القدامى وعرب وهم الذين وصفتهم كتابات أولئك الباحثين بأنهم بخلاء غزاة هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة أربعة عشر قرناً، وعلى ضوء ذلك ظهرت دراسات جغرافية إجتماعية وسياسية، الهدف منها بث الروح الإقليمية وزرع الشقاق بين السكان وإستثمار كل هذه الجهودات من أجل تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري للوصول إلى السيطرة الكاملة على البلاد، وكان

العسكريون أبرز من كتب عن بلاد القبائل، وهم على التوالي: الجنرال دوماس، أوكبتان، كاريت، فابار، دوفو، الطبيب العسكري لوكير، وهذه المرحلة فقد كتب هؤلاء بالتفصيل عن هذه المنطقة من حيث العادات والتقاليد، والتاريخ، وغيرها، وأغلب هؤلاء كانوا أعضاء في لجنة الإكتشاف العلمي للجزائر التي تأسست عام ١٨٣٧م وكتاباتهم تخلو من الروح العلمية والموضوعية، نذكر على سبيل المثال بعض ما كتب هؤلاء حول بلاد القبائل.

منهم الأب دوقا من رجال الدين اليسوعيين الذين عكفوا على دراسة منطقة القبائل من الجزائر، وقد روج في دراسته هذه بأن الديانة المسيحية ستعمل على فرنسة القبائل وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد الديني المسيحي إلا أنه حذر المبشرين قائلاً: بأن العمل المباشر مع هؤلاء السكان هو بمثابة نداء في الصحاري، ولذا فإن لغة العمل الخيري هي الأحسن، ويوصي كذلك بأنه يجب إخفاء الحقيقة وراء هذا العمل، وعند الوصول إلى الهدف يمكن التبشير بالعقيدة المسيحية^١.

إلا أن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططاتهم وجعلها غشاء لا أثر لها في حياة الناس، وإن الإنسان يرى العجب العجيب من محبة الأمازيغ وأهالي القبائل للإسلام والحضارة الإسلامية، وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الضهاجي الأمازيغي:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله

أو قد مات فقد كذب

أورام إدماجاً له

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٣٩، ١٤٥.

رام المحال من الطلب

يا نشئ أنت رجاؤنا

وبك الصباح قد إقترب

خذ الحياة سلاحها

وخض الخطوب ولا تهب

فإذا هلكت فصيحتي

تحيا الجزائر والعرب^١.

حاول دعاة التنصير أن يعملوا على تنصير أبناء القبائل ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، ومن أشهر هؤلاء الأب اليسوعي جان بتيست كروزا الذي دخل بلاد القبائل كمرشد ديني ومبشر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٦٣م، وأبدى كروزا من الحماس الديني ما جعله يطوف بالقرى الواحدة بعد الأخرى، فزار حوالي سبعين قرية للتعرف على المجتمع القبائلي وسكانه عليه يكسب رضاهم، وأخذ يجلبهم إليه بتوزيع الملابس والسكر والقهوة ويقدم لهم الإرشادات الدينية. وأضاف إلى هذه الأعمال الخيرية فتح مدرسة كانت بمثابة ملجأ للأيتام جمع فيه حوالي عشرين طفلاً.

وبعد أن مهد كروزا لمخططة التبشيري بالأعمال الخيرية أخذ يحدث السكان عن الديانة المسيحية ومزاياها ويبدو أن هؤلاء أرادوا استغلال إندفاعه، فراحوا يستمعون إليه بكل اهتمام، ولذا ركز جهوده على قرية بني فراح لإعتقاده أنه نجح في جلب سكانها، فجاء إليها ذات يوم ليلقي دروسه الدينية وأراد سكانها أن يجعلوا حداً لذلك فوضعوا أوساخاً على المقعد الحجري الذي كان يجلس عليه دائماً وغطوا ذلك بأوراق الأشجار، فجلس الأب ولما نهض وجد ثيابه ملطخة بالأوساخ.

^١ ابن باديس فارس الإصلاح، د. محمد يحي الدين، ص: ٣٤.

الأمر الذي آثار ضحك وسخرية الحاضرين، ويفهم من غضب الكولونيل مارتان لهذه الحادثة العطف الذي كان يكنه للأب كروزا بحيث قرر معاقبة (المجرمين) لكن الأب عارضه ظاناً بأن هذا العمل كان من بعض المغامرين، ويظهر أن هذه الحادثة لم تفشل الأب كروزا، لذا آل على نفسه مواصلة مهامه الخيرية التبشيرية، لكن أمين قرية بني فراح لونيس نايت علي عمر تحداه ورد على إدعاءاته، فجمع سكان القرية بمحضر الكولونيل مارتان وكل الأعيان وخاطب هذا العسكري وكل الحاضرين قائلاً: هل ترغبون في إعتناق الديانة المسيحية؟ وهل تسمحون لهذا الأب البقاء بينكم؟ فسكت الحاضرون وبكت عيونهم كثيراً حتى أن أحداً منهم لم يستطع الإجابة وبعدئذ أجابوا الكولونيل بكلمة واحدة قاطعة: أننا لن نترك أو نتخلى عن ديننا وأن أجبرتنا السلطة على ذلك فإننا نطلب منها أن ترشدنا إلى طريق يسمح لنا بمغادرة البلاد، وإذا لم نجد لذلك سبيلاً فإننا نفضل الموت بدلاً من إعتناق المسيحية، أما بشأن أن يقيم بيننا راهب فالله يحفظنا من قبول ذلك. اللهم إلا إذا أجبرتنا الحكومة عليه، وفي هذه الحالة لن نقيم معه أبداً.

وأيام هذا الموقف إضطر الأب كروزا إلى الانسحاب إلى قرية بني بني البعيدة ليستأنف العمل بها، إلا أن سكان هذه القرية أعلنوا رفضهم لأعمال كروزا، وقد حذر شيخ هذه القرية الضابط العسكري من العواقب وقال: إن البلاد لن تعرف هدوءاً إذا جاءها رجال الدين^٢.

كان أهالي الجزائر يرفضون دعوة المنصرين لهم وتصدوا بكل حزم وعزم للإنتهاكات المتعددة التي وقعت على الإسلام من قبل الكاردينال وأعوانه.

ومهما يكن من أمر فإن التبشير في بلاد القبائل لم يجد الأرض التي كان المبشرون يعملون بها، وإذا كان هناك من أقدم على إعتناق المسيحية من بعض العناصر والأفراد، فإن ذلك يعود بسبب عامل الفقر والحرمان والجهل والمغامرة والطمع في المادة وهي الأوضاع التي

^١المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

^٢المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

إستغلها المبشرون في تحقيق مسعاهم ويعود هذا الفشل إلى أسباب الآتية:
- موقف السكان المعارض لكل محاولة عامة لتمسكهم بالدين الإسلامي.
- الصراع الذي حدث بين لافيغري وماكمهون وكان له إنعكاسه على النشاط التبشيري ببلاد القبائل لإنشغال لافيغري به.
- تركيز جهود المبشرين على إنقاذ أطفال المجاعة واهتمامهم بإنشاء القرى العربية - المسيحية - بسهل العطاف^١.
- تعلق الجزائريين باشيوخ والعلماء وزعماء الطرق.
- إنتشار الثقافة الإسلامية وبعدها الحضاري، وعقيدة الإسلام في كل المدن والقرى وبين القبائل رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً، بحيث شكل سياجاً متيناً مع صفاء الفطرة، ورجاحة العقول وطهارة النفس، وقبل كل شيء توفيق رباني من الله عز وجل لهذا الشعب العزيز الحبيب. قال تعالى: " يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ " (إبراهيم ، آية : ٢٧).

٧ . التنصير من أسباب ثورة المقراني:

لقد رأى الجزائريون تساهل وسكوت بعض العسكريين والسلطة بباريس على تصرفات المبشرين في التنصير استفزازاً لمشاعرهم فكانت هذه الاستفزازات من الأسباب الرئيسية لثورة المقراني في بلاد القبائل والجزائر عامة.

إن ثورة المقراني انطلقت سنة ١٨٧١م من منطقته هي أبعد ما تكون عن الكوارث الطبيعية لعام ١٨٦٨م لدليل على رد فعل سكانها لم يكن بسبب اقتصادي وإنما بسبب الغزو والظلم والجور والاعتداء على المقدسات، ففي رسالة الباشاغا إلى الشيخ ابن كابة وكبراء قرية بوجليل ببني عباس قال بعد التحية: وبعد أن تتوكلوا على الله ورسوله، تقدموا

^١المصدر السابق.

إلى الجهاد لنصرة دينهم عزماً. فلا غرابة أن تكون سياسة التنصير عاملاً في دفع الجزائريين إلى الثورة.

وبالنسبة للكردينال لافيغري رأى أن أسباب الثورة تعود إلى السياسة الفرنسية بالجزائر، التي وضعت القرآن الكريم في مرتبة أعلى من الإنجيل، وإلى مواقف الذين أسسوا مدارس إسلامية بأموال فرنسية ومنعوا رجال الدين من نشر الإنجيل، فزادوا بذلك من تعصب السكان إلى أن انفجر فأحرق القرى وقتل السكان.

وتشير تصريحات لافيغري أثناء هذه الثورة وما بعدها إلى مساندته المطلقة للعسكريين الذين أحمدها هذه الثورة، وإلى دور المبشرين الذين لعبوا دوراً في هزيمة المقاومين ومن أبرز هؤلاء قسيس مدينة باليسترو "الأخضرية حالياً" الذي مات شهيداً من أجل فرنسا، وقد أقام لافيغري قداساً عظيماً في كاتدرائية مدينة الجزائر "كتشاوة حالياً".^١

وما يفند إدعاء . ما يعرف بالقبائل المسيحية . ودهشة هذا الرجل هو تعجبه قائلاً: إن الذين ثاروا ضدنا، ليسوا عرباً وإنما هم سكان قبائل جرجرة وغيرها ذوي الجذور المسيحية، ثم يناشد السلطة بوضع حد لتعصبهم الديني والقضاء على الإخوان والمرابطين الذين استقروا بهذه المنطقة.

لقد عملت ثورة المقراني وغيرها على التأثير على أعمال لافيغري الهشة وإفلاسها، الأمر الذي دعاه إلى طلب الصدقات من المسيحيين المحسنين في كل من أمريكا وبلجيكا وفرنسا، وبتبرعات هؤلاء استطاع لافيغري أن يستعيد قوته لاستئناف الأعمال التبشيرية.

٨ . الأميرال دوفيدون داعم للتبشير:

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٤.

ولقد وقف الأميرال دوفيدون منذ تعيينه على رأس الإدارة المدنية بالجزائر يدافع عن المسيحية وعن الكاردينال لافيغري ولذا تطورت الحركة التبشيرية في عهده لأنه ساندتها مساندة مطلقة وحينما حل بالجزائر (مارس ١٨٧١م) كانت المجالس البلدية التي تزعمت الحركة اللادينية العدو المشترك له ولمناصرة لافيغري فشن عليها الأميرال حملة ضدها، ووصف قرارها ورأى في إغلاق المدارس الدينية عملاً خطيراً إجرامياً ضد الدين، فكاتبها باسم وزير التربية يحثها على إعادة فتح الأبواب باعتبارها قوة يسند إليها المعمرون لضرب الديانة المحمدية لقد عمل دوفيدون منذ توليه على الربط بين دور الكنيسة ودور الاستعمار، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال، ولهذا أطلق عليه لقب: الأميرال كاردينال . ويكفي أنه قال: قضيت حياتي وأنا أساند الحركات التبشيرية في كل جهات العالم، فكيف تسمح لي نفسي في أن أقف ضدها في أرض فرنسية هي الجزائر، وقد آمن واقتنع كما اقتنع لافيغري أن استمالة المسلمين والتأثير فيهم يجب أن يتم بالأعمال الخيرية وليس عن طريق الخطب، ورأى أيضاً أن الوقت قد حان لجلب شتات هذا الشعب المغلوب إلى الحضارة المسيحية^١.

وأعلن أيضاً وقوفه إلى جانب المبشرين حين خاطبهم قائلاً: هناك من يعرقلكم، أما أنا فأساندكم لتقريب الأهالي نحوكم عن طريق التعليم والأعمال الخيرية، أنكم تقومون بما تقوم به فرنسا، إنه ليس لدى فرنسا من الرجال ما يكفي لتعمير الجزائر، لذلك يجب الاستعاضة عنهم بفرنسة السليونين من البربر، تقدموا بحذر وستجدون العون عندي استمر اهتمام لافيغري بشكل واسع بسكان بلاد القبائل في عهد النظام المدني بالرغم من فشل المساعي التنصيرية بها، واستطاع أن يؤثر في الأميرال دوفيدون ويقنعه بأن أصل هؤلاء السكان مسيحي وأن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفس دم الفرنسيين، ولا يرون أفضل من الرجوع إلى ديانتهم القديمة.

^١ المصدر نفسه، ص: ١٥٦.

ولكي يمكن لفرنسا أن تستعمر الجزائر استعماراً حقيقياً وناجياً ناشده بفرنسة المليونين من البربر.

ويظهر أن الأميرال الذي كان مقتنعاً بسياسة الاندماج آمن بأفكار ونظرية لافيغري ورآها ملائمة للظروف التي كانت تمر بها الحركة الاستعمارية آنذاك في الجزائر، ويتضح ذلك من قوله: إن الهدف الذي يرمي إليه المبشرون هو نفس الهدف الذي أريد أن أصل إليه، إنه إدماج سكان بلاد القبائل في المجتمع الفرنسي^١.

٩. دوافع اهتمام لافيغري بمنطقة القبائل:

ومما زاد في اهتمام لافيغري بمنطقة القبائل هي الدوافع الآتية:

. تشجيع الجنرال دوغيدون المطلق للتبشير في كل أنحاء الجزائر وتعاطف الجنرال شاتري "الذي أتى من بعده" مع المبشرين.

. تأسيس فرقة الآباء البيض للتبشير في الجزائر وأفريقية.

. وقوف باب روما إلى جانبه "أي لافيغري" ولاسيما عند إعلان ولاء الكنيسة الفرنسية للجمهورية بعد سقوط الملكية في فرنسا.

. تردي الأوضاع الاقتصادية في هذه المنطقة بعد ثورة عام ١٨٧١م الذي أودى إلى تفجير السكان وهو ما استغله لافيغري باسم الأعمال الخيرية.

ويعتقد لافيغري أن الوصول إلى هذا الهدف التنصيري يجب أن يتم في إطار (لبنان أفريقي) وهو لبنان الذي تخلت عنه أوروبا فاندثرت معالم المسيحية بسوريا ولبنان الذين اعتكفوا بالجبال فارين من الفتح الإسلامي ورأى أنه بواسطة الآباء البيض سيعيد "ماروني" بلاد القبائل إلى ديانتهم الأصلية.

أن الحركة التبشيرية التي عرفت عراقيل في عهد النظام السابق ستعرف في النظام المدني . انطلاقاً كبرى في بلاد القبائل، والمدن الصحراوية كميزاب، والأغواط ورقلة وبسكرة

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٦.

والبيض وغيرها، وقد اختارها المبشرون مستنديين في ذلك إلى عامل الأصل واللغة "أي الأصل البربري الأمازيغي واللهجات"، وستكون هذه المدن بمثابة بوابة للتبشير في أفريقية الاستوائية، وحتى لا تجدد هذه الجهود التبشيرية نفوراً من السكان خصص لافيغري إمكانيات ووسائل، وذلك يوضع برنامج يسير عليه المبشرون في عملهم ويمكن حصره فيما يلي:

أ. ينصب اهتمام البرنامج الخاص، لا إلى تنصير الفرد لأن ذلك لا ينجح وإنما التنصير الجماعي، ولذلك ركزوا على بلاد القبائل ذات الكثافة السكانية المرتفعة مما يسمح لهم بتنصير القرية بأكملها وللوصول إلى ذلك لابد من القضاء على روح التعصب الديني^١.

ب. إن المسيحي في نظر السكان، إنسان كافر ولذا أوصى لافيغري مبشريه بأن يتظاهروا بمظهر التدين حتى يكتسوا الاحترام.

ج. التمسك بالصبر والتسامح، وتقبل الشتم والسب.

ح. استمالة السكان بواسطة الأعمال الخيرية: التطبيب، التعليم والتنقل إلى القرى البعيدة لمعالجة المرضى، وتوزيع بعض الحاجيات على الفقراء والمحتاجين.

س. التواضع والتغلغل وسط السكان، واستعمال لغتهم ولباسهم وأنماط معيشتهم.

ش. عدم التعرض إلى الدين المسيحي، لأن ذلك ينفر السكان فيفشل المساعي التبشيرية وهكذا جهز لافيغري لهذه الأعمال وسخر لها الوسائل البشرية والمادية، وما إلى ذلك من طرق تبشيرية هادفة.

وقد لخص أحدهم طريقة التعامل مع السكان بقوله: إذا أردنا أن يخضع الناس للإنجيل، فيجب أن نخضع لهم ونظهر إزاءهم بصفة المغلوب وفي نهاية المطاف نتمكن من أن نخضعهم إلينا^٢.

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٨.

^٢ المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

انطلق لافييجري في حملته التبشيرية وهو يعتمد أساساً على التشكيك في إسلام هذه المنطقة وضربها في العمق، وفي نظري أن هذا أخطر سلاح استعمله المبشرون للوصول إلى الهدف ولا يمكن النجاح إلا بمحو الإسلام بهذه المنطقة بل وفي كل المناطق الأخرى. وبعد سنة من هذه الزيارة أي في ١٨٧٣م أسس لافييجري مراكز تعليمية تبشيرية بهذه المنطقة مدعومه بسخاء وروح صليبية.

ويبدو أن الخطر الذي هدد الديانة الإسلامية في التجربة الأولى جعل السكان يشكون في أمر المبشرين، ولا أدل على ذلك ما أظهرته جماعة أو تجمعات قرية توريرت عبد الله من خوف على مصير أبنائها وما أبدته قرية آيت برحال من استمرار الأعمال الخيرية، ولم يرض سكان مدينة ميشلي بوجود الدين بينهم إلا بعد تدخل قائد القطاع العسكري الذي وعدهم بعدم مس الشؤون الدينية، ويمكن القول بأن أعمال المبشرين في البداية، إقتصرت على الأعمال الخيرية، كالتطبيب والتعليم بإسم الديانة المسيحية، ونظراً للدور الذي تلعبه المدرسة في مجال التبشير، فإن لافييجري أوصى مبشرية (الآباء البيض) بتركيز الجهود عليها بإعتبارها تملك الطفل وتتحكم في مستقبله، وإنطلاقاً من هذه الوصية أسس المبشرون مدارس بكل مراكزهم ولما كانت الأعمال الطبية أهم ما يفتقده السكان، حاول هؤلاء استعمال هذه الوسيلة لتحقيق المطامع التبشيرية.

ويظهر أيضاً أن العمليات التنصيرية الأولى بالمنطقة نفذها المبشرون مع اليتامى والمعوقين والمرضى والأطفال غير الشرعيين وبعض المغامرين بحثاً عن المادة، ولعل أسوأ ما إستغله هؤلاء هم العجزة من الشيوخ الذين لا سند لهم، أو الذين تخلت عنهم أسرهم، وهم يعانون الفقر، الحرمان والوحدة القاتلة.

وإلا كيف نفسر تعميد شيخ أعمى في آخر حياته إذ يبلغ ٩٠ سنة وعجوز ذات ٨٠ سنة والأخرى ذات ٧٥ سنة.

أو ليس هذا إستغلال مباشر للوضع المأساوي وعمل خيري مقنع بإسم الدين^١؟

لم يستطع الكاردينال لافيغري أن يكسب منطق القبائل دينياً وبشكل جماعي وبالصورة التي كان يتوقعها من قبل، وبالرغم من الصبر والتفاني في العمل، فإن المحاولات التبشيرية لم تكن لها نتائج أكثر من التي تحصلوا عليها في المناطق الأخرى، وما تمكن منه هؤلاء هو جلب عدد من المغامرين، الذين أقبلوا على التنصير ففقدوا مكانتهم بين عائلاتهم والمجتمع وهددوا بالموت، أو بعض الذين أرادوا تحقيق بعض الأغراض المعيشية، فتعرضوا فيما بعد إلى النبذ والإحتقار، وإضطر عدد منهم إلى الهجرة خارج القرية بل وإلى خارج الجزائر.

ويذكر شارفوريات الذي زار بلاد القبائل بعد ستة عشر عاماً من وجود الآباء البيض بها ما يلي: يستحيل التنصير الفردي وما يمكن الإعتماد عليه هو التنصير الجماعي، والسبب في ذلك هو الروابط التي تشد الفرد بمتجمعه وقريته والتي تجعله مبعداً عنها أن هو إرتد عن دينه، ويعترف الأب شاتلان بصعوبة التنصير في هذه المنطقة حيث قال: إذا كان سكان بلاد القبائل قد أبدوا إقبالاً على كل الحضارات، فإنهم ومن ناحية أخرى لم يكونوا ليغيروا عقيدتهم إلا بمشقة كبيرة.

وكتب الأب شارميتان مسئول الآباء البيض في هذه المنطقة عام ١٨٩٢م ليقول: إن القبائل بعيدون كل البعد عن مملكة السماء أي المسيحية، وهم ليسوا مستعدين للتنصير ولا يمكن التأثير فيهم ... أن القبائلي مسلم مثل العربي لا يتقبل الإنجيل بسهولة مثلما يتقبله الوثني، ويفهم من ذلك تمسك هذا الأمازيغي القبائلي بالإسلام، وكتب بعضهم قائلاً: أنه وبعد خمسين سنة من إستقرار الآباء البيض بهذه المنطقة أي حوالي ١٩٢٠م تقريباً فإن النتيجة جاءت مخيبة للآمال وليس كما كان متوقعاً ثم يكشف وضعاً آخر

^١ المصدر نفسه، ص: ١٦١.

قائلا: إن الذين أقبلوا على التنصير كانوا يبحثون في ذلك عن الإمتيازات والمصالح المادية التي أصبحت عبئاً ثقيلاً عن الإرسالية التبشيرية^١.

ونستنتج من كل ذلك، فإن تمسك السكان الكبير بالإسلام وحضارته والمعارضة التي أظهروها ضد كل محاولة تبشيرية بالمنطقة كما أسلفنا أفشلت مساعيها ورغم الجهود التي بذلت وبشتى الوسائل والاهتمام الخاص الذي أفرد لسكان هذه المنطقة، فإن كل ذلك باء بالفشل بما في ذلك الجهود التبشيرية التي كان لها نفس المصير في مناطق أخرى من الجزائر.

وهو الأمر الذي جعل المبشرين يركزون جهودهم على تعلم اللغة الفرنسية وحضارتها متخذين من ذلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تحقق الإدماج في هذه الناحية والنواحي الأخرى^٢.

لقد قاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات المسيحية بالصحراء وإغتالوا الكثير من رؤسائها الذين أرسلهم لافيجري مثل: (بولميه، ومينوري، وبوشار) الذين قتلوا في حاسي عين إيفل كما قتل القسيسان: ريشارد وكيرمابون في الصحراء الشرقية.

وعمل القس شارل دي فوكو بالصحراء وأدى دوراً كبيراً من أجل تثبيت الإستعمار الفرنسي، ونسق مع المرشال ليوتي الذي إحتل المغرب وقام بدراسة القبائل الصحراوية، وركز على الطوارق، فدرس لهجتهم البربرية، وكتب قاموساً لها، وذهب إلى المغرب في مهمة كيهودي سنة ١٨٨٣م، وتنقل بين الأغواط وغرداية، وميزاب ورقله والمنيعه وتقرت، وقام برحلة في المشرق في مهمة وعاد للجزائر وساعد الجيش الفرنسي على إختراق الصحراء والتوجه نحو أفريقيا السوداء وإستقر في منطقة الطوارق بعد أن أتقن لهجتهم،

^١المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

^٢المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

وفي سنة ١٩١٦م ثم إغتياله من طرف رجال الطرق الصوفية الغيورين على دينهم ووطنهم وإتهمت فرنسا السنوسية بقتله^١.

وبرغم الجهود التي قامت بها المنظمات التبشيرية في الجزائر، فقد فشل التنصير وخاب أمل الفرنسيين وبرهن الجزائريون على تمسكهم بدينهم بالرغم من المغريات، وأدركوا أن مهمة الآباء البيض لم تكن دينية صرفة وإنما كانت في خدمة الإستعمار ونشر التفرنس الذي يخدم الإدماج، ولقد نبه الجزائريون المتعاونون مع الفرنسيين إلى خطورة عملية التنصير، فقال لهم الباشاغا ابن علي الشريف سنة ١٨٦٨م.

إن سكان زواوة يفضلون الموت لأطفالهم على أن يروهم يتخلون عن دينهم ويصيروا نصارى.

وكان نشاط عملية التنصير بمنطقة القبائل هي التي سهلت مهمة ثورة المقراني والشيخ حداد، لقد هرب الكثير من الأيتام الذين مسحهم لافيحري بعد أن كبروا وعرفوا حقيقة قصتهم هربوا إلى ذيوهم، لقد عملت الكنيسة على العودة بالبربر (القبائل) إلى المسيحية وتمزيق الشعب، فقد ألف سنة ١٨٩٤م أحد عناصرها كتاباً عنوانه (الأجناس والأديان في الجزائر) وأهداه إلى الأسقف لافوما، دعا فيه إلى الحكم بالعرف الزواوي القبائلي البدائي على حساب الشريعة الإسلامية، وهو ما حاوله المستعمر بالمغرب فيما بعد سنة ١٩٣٠م بالظهير البربري، كما دعا ماثيو إلى نشر القبائلية على حساب اللغة العربية وتدريس القبائل تاريخ جنسهم الذي ربطته الإدارة الإستعمارية بالمسيحية قبل الإسلام، وربطهم بفرنسا والعمل على نشر الفرقة بين البربر وبين الفاتحين المسلمين.

لكن الكثير من الأعيان من أبناء القبائل الشاخرة بدينها وحضارتها رفضوا هذه التفرقة فواجهوا تحكيم العرف القبائلي، فقد طالب أحمد بن سليمان: بإستعمال القضاة

^١الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٩.

المسلمين في منطقة القبائل أسوة بكل أنحاء الجزائر لأن الإسلام واحد في البلاد الجزائرية كلها^١.

لقد بينت الدراسة التاريخية العلاقة المتينة بين الإستعمار وحركة التبشير، وإليك أهم النتائج.

. أن للتبشير علاقة بالإستعمار، فأغلب المبشرين يربطون الاستعمار بالتبشير، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين (بفتح الميم) .
. أن المبشرين لعبوا دوراً هاماً في الحركة الإستيطانية بإستحواذهم على أراضي فلاحية معتبرة سخروها للفلاحة وزراعة الكروم لإستخراج النبيذ الذي بقي آفة زراعية بعد الإستقلال.

. أن التبشير لعب دوراً هاماً أيضاً في توطيد النفوذ الفرنسي بالجزائر والهيمنة الثقافية .
. أن موقف السلطة الفرنسية من التبشير كان متضارباً بحيث كانت تعارض التبشير علانية خشية ثورة الجزائريين وتشجعه سرياً لتدعيم نفوذها في الجزائر، ويتضح ذلك من خلال مواقف ممثليها بالجزائر.

. أن المبشرين بالجزائر كانوا يهدفون إلى خلق النعرة القبلية بين المواطنين، وإتباع سياسة فرق تسد لتدعيم النفوذ الفرنسي، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة.
. أن الحرية التبشيرية التي كانت تفتقر إلى حرية واسعة في عهد النظام العسكري، عرفت انطلاقة واسعة وتحررت من بعض القيود المفروضة عليها، وذلك في عهد النظام المدني ولاسيما بعد تأسيس فرقة الآباء البيض .

. أن الحركة التبشيرية عامة قد فشلت أمام صمود الجزائريين لتمسكهم الشديد بالديانة والحضارية الإسلامية.

^١ المصدر نفسه، ص: ٦٤٩.

. أن النشاط التبشيري بالجزائر، فتح الباب على مصراعيه في كل القارة الأفريقية وهو الذي مهد للاحتلال الفرنسي لعدد من الدول والمناطق بها.
. أن من إعتنق المسيحية من أفراد وهم أقلية عاشوا معزولين منبوذين ومجتمعاتهم، وحتى من المعمرين الفرنسيين^١.

١٠. المستشرقون والإستعمار:

ومن العناصر التي إستعان بها الإستعمار الفرنسي المستشرقون، من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، وديفوكس، ودي سلان، بين ١٨٣٠ و ١٨٧٠، وبعد هذا التاريخ ظهرت مجموعة من المستشرقين ضمتهم كمدرسين بمدرسة الآداب بالجزائر العاصمة مثل: إميل ماسكري، ورونيه باسيه، وإيدمون فانيان، وهوداس، وبرز جزائريون، كمعاونين لهم ثقافياً من أمثال: ابن سديره، وابن الوئيس، وابن شنب وبوليفة، ومحمد تهليل، وابن علي فخار، وقد سيطر هؤلاء المستشرقون على المدارس الإسلامية وصارت تحت سيطرتهم وأفكارهم وثقافتهم منذ ١٨٨٠م واستخدمت للنفوذ الفرنسي في الجزائر والمغرب العربي وأفريقية، وكان من أكثر الشخصيات المؤثرة في الإستشراق بالجزائر وفرنسا رونييه باسيه، الذي وصل الجزائر سنة ١٨٨٠ كأستاذ للآداب في مدرسة الآداب بالجزائر، واستطاع تكوين حلقات دراسة جادة في البربرية والأدب العربي، وبل وبعض اللهجات الأفريقية كالهوسة، وتمكن من الدخول في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب العربي، وتسجيل مخطوطاتها في فهارس وساعدته الإدارة الفرنسية على ذلك فذلت أمامه كل الصعاب والمشاق والمتاعب، وختم عمله العلمي الكبير هذا بعقد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر سنة ١٩٠٥م، وساعدت على نجاح هذا المؤتمر شخصية رونييه باسيه وعلمه وتلاميذه، ويعتبر رونييه باسيه من أكثر المستشرقين تعمقاً في الدراسات البربرية والسامية بصورة عامة، تخرج على يديه عدة تلاميذ من أمثال: ألفريد بيل وديستان

^١ الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٦٣.

الذي جلس على كرسي البربرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩١٣ وإنديره باسيه وهنري باسيه مؤلف كتاب (اللغة البربرية) سنة ١٩٢٩م وهما من عائلته.

ومن الجزائريين من تتلمذوا عليه: محمد بن أبي شنب، وسعيد بولفيه وقد إستعمل رونه باسيه ابن شنب في تحرير دراسات عن الأوضاع الإجتماعية والثقافية للمسلمين وفي ترجمة الكثير من الشعر الملحون وبرامج التعليم عند المسلمين، كما قام بتحقيق التراث الجزائري والإسلامي مع ترجمته أو ترجمة خلاصة منه الفرنسية، كما قام بدراسات عن اللغة العربية ودارجيتها الجزائرية، وكانت كل هذه المواضيع تصب في تمكين الإدارة الإستعمارية من فهم المجتمعات التي تحكمها، لا في الجزائر فقط وإنما في أقطار المغرب العربي وأفريقية السوداء، وهذا لا يقلل من جهود ابن شنب في خدمة الثقافة العربية بالجزائر بطرق منهجية حديثة مكنه منها أستاذه رونه باسيه، ووجه باسيه بوليفة لدراسة التراث البربري وعلى الخصوص التراث الزواوي (القبائلي).

ومن غير شك فإن رونه باسيه إستفاد من هذين العالمين الجزائريين فيما كتبه عن السامية والبربرية وتتللمذوا عليه في إكتسابهم للمنهج العلمي الحديث، كما إستفاد رونه باسيه من علماء جزائريين آخرين.

لقد إستفادت الإدارة الإستعمارية الفرنسية من جهود المستشرقين ووظفتها في خدمة الإستعمار وتفریق صفوف الجزائريين على أسس من الدراسات والبحوث.

ومن المستشرقين الذين عملوا بفعالية في الصحراء غوستاف مونتيلانسكي الذي ولد في معسكر سنة ١٨٥٤م، وصار من المترجمين العسكريين وتنقل في سائر أنحاء الجزائر وتونس وإختلط برجال القوافل التجارية العابرة للصحراء والواصلة لأفريقية السوداء، وإنتهى به المطاف إلى أن يعين مديراً لمدرسة قسنطينة الإسلامية الفرنسية الكتانية، وكان لهذا المستشرق اتصالات واسعة بعلماء الصحراء وبشيوخ الطريقة، وقام برحلة من غدامس تعقباً لنشاط السنوسية، وسجل كل ذلك في تقارير كان يزود بها حكومته ونشر

مقالات ومخطوطات في المذهب الأباضي، وكما يقول أبو القاسم سعد الله، فإن جهود هؤلاء المستشرقين لم تكن عميقة محضة، فقد كانوا جنوداً في الميدان وليسوا علماء باحثين عن الحقيقة المجردة، كان مثلهم في دعم الإستعمار مثل لافيغري وجنوده من الآباء البيض، ومثل المارشال ليوتي وجنوده من المحاربين، لقد كان يكمل بعضهم بعضاً ويعملون لنفس الغاية وهي مساعدة الإدارة على بسط نفوذها على منطقة العربي وما يتصل به من أفريقية والعالم الإسلامي.

ووسط هذه الحركة الإستعمارية الثقافية وأمام إضطرار فرنسا لتوثيق كل ما يتعلق بالجزائر وتاريخها أسس ضباط المكاتب العربية بالجيش مكتبة هائلة عن الجزائر وتاريخها في مختلف مراحلها، وتأسست جمعيات ثقافية أولاها لجنة إكتشاف الجزائر سنة ١٨٣٩م، وأسس الحاكم العام كامبون لجنة ترجمة الكتب العربية سنة ١٨٩٤م، وأُسست جمعية آثار قسنطينة سنة ١٨٥٢م، والجمعية التاريخية في العاصمة سنة ١٨٥٦م، وهذه الجمعية هي التي أنشأت (المجلة الأفريقية) الدائنة الصيت، و(جمعية جغرافية وهران) سنة ١٨٧٨م و(جمعية هيون) بعنابة، وجمعيات أخرى صغيرة في تبسة وتلمسان وسطيف وتأسست في سنة ١٨٩٦م (الجمعية الجغرافية) بالعاصمة، التي قامت ببعثات استكشاف بالمغرب العربي كله والصحراء وجنوب الصحراء، وأشرف عليها ضباط ومدنيون علماء يساعدهم جزائريون. وقد ركزت هذه الجمعيات في عملها على المرحلة الرومانية لأن الفرنسيين يعتبرون أنفسهم ورثة العهد الروماني ويعملون على إعادة الجزائر إليه. وبخاصة إلى المسيحية فيه، وكانت كل هذه الجمعيات والمجلات تعمل تحت العقل المركزي المسير لها وهي المدارس العليا التي صارت سنة ١٩٥٩م جامعة الجزائر.

وقبل هذا التاريخ كان الطالب بهذه المدارس يجري امتحانات الأجازة "الليسانس" في باريس.

واهتمت هذه الحركة الثقافية بالمكتبات فأسس مكتبة عامة هامة بالعاصمة في آخر القرن التاسع عشر ضمت الآلاف من الكتب والمخطوطات التي جمعت من الزوايا والمساجد ووضع لها فانيان فهرساً لمخطوطاتها سنة ١٨٩٣م. كما تأسست مكتبات تابعة للمكتبة العامة بالولايات وبعض البلديات ومكتبات عسكرية ومكتبات بعض المدارس، وأسس "المتحف الوطني" الذي صار له بنياته المستقلة سنة ١٨٩٧م بعد أن كان موجوداً في مبنى واحد مع المكتبة العامة^١.

الثالث عشر: السيطرة على القضاء والإمامة

١. القضاء:

عمل الفرنسيون على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول، وكان الداي والباي يعين قضاة المدن، وتعين القبائل قضاة الريف، وكان مجلس أعلى للقضاء يستعرض القضايا الصعبة في صورة استئناف. وأحكامه نافذة، والحكم يكون بالتغريم أو الضرب، أو القتل ولا يكون بالسجن إلا في الحالات القليلة، وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة. لقد عين الأمير قاضياً لكل خوجة يعاونه أربعة علماء متفقيين في الدين، وكان لا يصدر الحكم بالموت إلا بحضور الخليفة شخصياً "أي نائب الأمير في الولاية"، وهذا عناية بالروح البشرية.

في ١٨٤١م بدأت المحاولات لدمج القضاء الفرنسي كقاضي الصلح والمحاكم الابتدائية والمحاكم الاستثنائية والمحاكم العسكرية، ونزعت الجنايات من القضاء الإسلامي، وصارت من صلاحيات المحاكم الفرنسية، بل وصارت المحاكم الفرنسية الاستثنائية تملك حق النظر في الأحكام المدنية المتعلقة بالأحوال الشخصية.

^١ الجزائر في التاريخ ص ٦٥٥.

وحتى القانون الفرنسي لا يطبق بكامله على الجزائريين الذين تحكمهم قوانين استثنائية. فالجنرال بوجو يقول لوزير الحربية: إن حرب الجزائر تستلزم نوعاً من القضاء يختلف عن المعمول به في أوروبا.

ويعترف لوي ماسينيون فيقول: إن الواقع الذي يطبق في الجزائر هو أولاً اعتداء على الشريعة الإسلامية. وثانياً إجراءات تعسفية غير خاضعة حتى للقانون الفرنسي^١. وقال الحاكم العام "دوفيدون" يوم ٢٢ مارس ١٨٧٤م: إن العدالة تدخل في إطار السيادة وعلى القاضي المسلم الانخاء أمام القاضي الفرنسي وعلى كل واحد أن يفهم أننا الغالبون^٢.

واستمر الفرنسيون في تفريع القضاء الإسلامي من صلاحياته، وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق، وهوت قيمة القاضي الإسلامي^٣.

وفي عام ١٩٠٦م منع القضاة والموثقين من كتابة العقود باللغة العربية وأجبرتهم على كتابتها باللغة الفرنسية، لكن رجال القبائل الكبرى، رفضوا كتابة أي قضية باللغة الفرنسية وأصروا على الكتابة باللغة العربية، وهذا ما دفع بأحد الأوربيين المختصين في القانون إلى القول في عام ١٩١٣م بأن الجزائر، ككل يغلب عليها الطابع الإسلامي والبربر ولا تربطهم أية صلة بفرنسا، وهم مثل العرب في هذا الشأن^٤.

لقد استخدم الفرنسيون سلاح العدالة لقمع الجزائريين المسلمين وذلك عن طريق تطبيق القوانين الفرنسية عليهم وتشكيل مجالس القضاء من الفرنسيين فقط، وإعطاء الشرعية القانونية للقضايا المسجلة عند الأوربيين الذين يتحكمون في ملفات العدالة وكسب

^١ الجزائر في التاريخ ص٦٢٩.

^٢ التاريخ السياسي للجزائر ص١٧٥.

^٣ الجزائر في التاريخ ص٦٣١.

^٤ الجزائر في التاريخ ص٦٢٩.

أموال كبيرة من الجزائريين وإلغاء العمل بالقانون الجزائري والشريعة الإسلامية معناه حرمان آلاف الجزائريين من كسب العيش^١، والحياة بأمان في ظل شريعة الإسلام العادلة. وأدرك الجزائريون أن ضرب قضائهم الهدف منه ضرب الهوية الإسلامية الوطنية الجزائرية، فراحوا يناضلون من أجل مقاومة سائر الإجراءات التي تمس هويتهم، كالتجنس بالجنسية الفرنسية، وقانون الأذنجينا، والتفرس، والمطالبة بتعليم العربية والمساواة، وكان من القضية الذين نشطوا في هذا الميدان حميدو بن باديس، ومحمد بن رحال^٢.

٢ . الإمامة:

وفي خط مواز للسيطرة على الخطاب الديني وتدمير الهوية الإسلامية أوجدت السلطات الإستعمارية طبقة من رجال الدين الرسميين الموظفين تدفع لهم مرتباتهم بعد أن كانوا يتقاضونها من الأوقاف التي صادرت أملاكها السلطات، وقد خضع هؤلاء خضوعاً مطلقاً للإدارة ففرضت عليهم منذ بداية الاحتلال أن يدعوا على منابر المساجد دعوات عامة مع التوقف عن الدعاء لخليفة المسلمين، بل فرضت عليهم بعد الانتهاء من الصلاة وقراءة الفاتحة، أن يشمل دعاء الإمام في الأعياد ما يلي:

بالتأييد والتمكين لحكومة فرنسا، ومن لم يفعل يعتبر معادياً لفرنسا. يقول حمدان خوجة في كتابه المرأة: واختفت منذ ١٨٣٣م جرأة العلماء، لأنهم إن قالوا أو سكتوا عن خوف حكم عليهم بالنفي أو الحبس. واختفت من المساجد الرسمية حلقات الدروس لتكوين العلماء، بل اختفت دروس الوعظ الفاعلة التي تردد آيات وأحاديث فيها الجهاد ومحاربة الكفر، واستبدلت بدروس استبعد منها ما يفسر على أنه تعريض بالاستعمار، بل حتى هذه الدروس المراقبة كانت تحتاج إلى رخصة، يعين أئمة المساجد بالمدن مدير الشؤون الأهلية بالإدارة الاستعمارية، وبالريف تعينهم المكاتب العربية بالجيش، كان عدد المساجد

^١ التاريخ السياسي للجزائر ص ١٧٥.

^٢ الجزائر في التاريخ ص ٦٣١.

سنة ١٨٣٠م (١٤٩٤) مسجداً، ويبدو الإجحاف واضحاً ضد المسلمين في توزيع ميزانية الأديان على الديانات الثلاث، كانت المخصصات لسنة ١٨٨٧م كما يلي:

.الإسلام : ٢١٦٣٤٠ فرنك.

.المسيحية : ٩٨٦٤٠٠ فرنك.

.اليهودية : ٢٦٦٠٠ فرنك.

علماً بأن عدد المسلمين ثلاثة ملايين نسمة، وعدد المسيحيين ٣٥٠٠٠٠ نسمة، وعدد اليهود ٣٦٠٠٠ نسمة، كانت مداخيل أملاك الأوقاف تغطي نفقات المساجد والمدارس والتعليم بصورة عامة، صادرها المستعمر وصار ينفق من هذه المداخيل على الأديان الثلاثة، ووفق ما أورده ديبوت سنة ١٨٩٧م فقد قدر المدخول السنوي لأوقاف إقليم مدينة الجزائر وحده ما يقارب خمسة ملايين فرنك، ألغى الفرنسيون منصب شيخ الإسلام، وأبقوا على مناصب المفتون، بل ذهبوا بعيداً فحولوا الكثير من الأئمة والمفتون إلى مخبرين في أجهزة المخابرات، فأوغستين بيرك يقول: تحول بعض المفتين إلى جواسيس للإدارة الفرنسية. ويقول لوي ماسينيون: لقد استعمرت الحكومة الفرنسية العقيدة الإسلامية بالجزائر منذ ١٨٣٠م. كانوا يختارون المفتين والأئمة في معظم الحالات من أشباه الأميين.

وهذا الوضع للمساجد جعل الناس ينفرون من أئمتها الموظفين ويلجأون إلى المرابطين ومقاديهم، ولم يعدم بعض الأئمة النزهاء الشجعان، فالمفتي مصطفى الكبابي وقف سنة ١٨٤٣م في وجه الجنرال بوجو، ووقف القاضي عبد العزيز سنة ١٨٣٤م في وجه فوارول. لكن كانوا أقلية^١.

٣. محاربة التعليم الإسلامي:

^١ الجزائر في التاريخ ص ٦٢٨.

ومن العناصر التي حاربها الفرنسيون التعليم العربي، فقد وجدوا تعليماً منتشراً عبر مدارس في المدن والأرياف، بحيث كانت نسبة الأمية متدنية جداً، وكان هذا التعليم يمول من الأوقاف، ويشهد الفرنسيون بأنه كان يملك ميزانية وافرة ومدارس كثيرة، ومعلمين أصحاب قدرة متميزة، وبرامج تعليمية، ونظاماً للشهادات. وبالرغم أنه لم يكن متقدماً، لكن الجزائريين يرون أنه يغطي حاجة مجتمعهم مع استعدادهم لتطويره. وكان بعض المفكرين الفرنسيين يؤيدون ذلك، فالبارون بيشون يرى: أن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة، وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية، وطالبت عدة تقارير فرنسية كتقرير بيدو سنة ١٨٤٧ وتقرير بارو سنة ١٨٤٩ وتقرير سنة ١٨٥١م الذي طالب: بضرورة الشروع في تكوين جيل جديد من الجزائريين في مدارس فرنسية لم يحضروا الغزو والمقاومة وإنما نشأ في عهد الاحتلال وفتح عينيه على الجزائر الفرنسية.

وبدأوا في فتح مدارس ابتدائية ومتوسطة تستوعب أبناء الجزائريين الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية وسموها بالمدارس الأهلية.

وأما الأطفال الفرنسيون فلهم مدارسهم الخاصة المنتظمة التي فتحت منذ السنة الثالثة للاحتلال، وتأسست أول ثانوية وهي ليسيه بوجو سنة ١٨٦٢م الذي صار يحمل اسم ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة بعد الاستقلال، ثم تتابع فتح ثانويات أخرى، وفي سنة ١٨٧٩م تأسست أربع مدارس عليا هي: الآداب، والحقوق، والعلوم والطب.

هذه الأخيرة سبق وأن نشأت متعثرة في ثكنة سنة ١٨٥٧م، وكانت هذه المدارس نواة للجامعة الجزائرية التي أسست في خدمة الاستعمار سنة ١٩٠٩م، فالآداب تحولت إلى وكر للاستشراق، والحقوق بؤرة لسيطرة القانون الفرنسي على الشريعة الإسلامية.

وكان التلميذ الفرنسي بهذه المدارس يجري امتحاناته النهائية في فرنسا.

كانت مدرسة الآداب تدرس الفصحى والدارجة، ويتولى التدريس بها المستشرقون الذين تولوا إدارة المدارس الثلاثة العربية - الفرنسية، كانت تركز على الدارجة حتى تعلم للإداريين الفرنسيين العاملين بالجزائر.

أما التعليم الابتدائي المخصص للجزائريين فقد بدأ بنوعين: عربي وفرنسي، العربي كان عبارة عن كتابات لتحفيظ القرآن الكريم، وكان الفرنسيون يمنعون تعليم أية مادة أخرى غير حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وفي سن الثالث عشر يغادر الكتاب دون مهنة أو مؤهل، وفي بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر قررت إجبارية التعليم بفرنسا، ولم تشمل هذه الإجبارية إلا منطقة زاوية تحت إشراف الآباء البيض ولواء عملية التنصير، وفي العقد التاسع قرر الفرنسيون إنشاء بعض المدارس الأهلية التي تختلف عن المدارس المخصصة للفرنسيين، ويعلم الجزائريون فيها ليعملوا في مزارع وورشات الكولون، ولم يحظ الجزائريون بتعليم معقول مع الفرنسيين إلا في القرن العشرين بين الحريين العلميتين.

وأما التعليم المتوسط فقد خصصت له ثلاث مدارس بالعاصمة وقسنطينة وتلمسان مهمتهما إعداد موظفين في القضاء الإسلامي، وكان يديرها جزائريون متمكنون من العربية، وقد تدعمت في عهد نابليون الثالث الذي نشط القضاء الإسلامي ولكنها انكمشت بعد ١٨٧١م عندما أعلن الكولون الحرب على كل ما هو عربي إسلامي، وسيطر عليها المستشرقون، ومنذ ١٨٧٧م خرجت من إطارها كمدارس عربية أهلية وأدجت في التعليم الفرنسي تحت اسم "المدارس الفرنكو الإسلامية".

وفي سنة ١٨٩٢م زادوا من فرنستها، وشدد المستشرقون سيطرتهم على إدارتها^١. وبالإضافة إلى هذين النوعين من التعليم وجد نوع ثالث وهو التعليم المزدوج فأُنشئ المعهد الكوليج العربي الفرنسي سنة ١٨٥٧م بالعاصمة بإدارة نيقولا بيرون وهو مستشرق سان سيمون، عمل في مصر في تدريس الطب، وكتب في تاريخ العرب والإسلام وأتقن

^١ الجزائر في التاريخ ص ٦٣٤.

العربية، كانت مهمة المعهد تكوين نخبة جزائرية مثقفة باللغتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي وتلاميذ المعهد من العائلات المتعاونة مع الفرنسيين.

وفي عام ١٨٦٧م فتح معهد على غرار بقسنطينة، وبعد ذهاب نابليون الثالث وفي عام ١٨٧١م ألغى المعهدان وتقلص حتى عدد المدارس الابتدائية المخصصة للأهالي، واستمر وضع التجهيل للأهالي حتى سنة ١٨٩٢م حيث أعدت لجنة جول فيري البرلمانية تقريرها المشهور، فأعيدت الحياة للتعليم الابتدائي الأهلي الذي انطلق مع مطلع القرن العشرين انطلاقاً متواضعة في حدود ضيقة جغرافياً وبشرياً طبعاً^١.

كان المستوطنون الفرنسيون يريدون أن لا يتعلم الشباب الجزائري خوفاً من أن يطالب بحقوقه السياسية والمساواة مع الفرنسيين، ولهذا نجح المستوطنون في إقامة مدارس لأبنائهم وأكاديميات لمواصلة التعليم العالي لكنهم أغلقوا الباب في وجوه أبناء الجزائر.

ومع تمكن المستوطنين من الجزائر بدأ عدد التلاميذ الجزائريين في الانخفاض منذ عام ١٨٧٢م، حيث صار العدد ٨٥ تلميذاً فقط في مدرسة الجزائر بالعاصمة، وذلك بسبب محاربة المستوطنين لهذه المدارس العربية الفرنسية، وفي عام ١٨٨٢م لم يكن عدد التلاميذ الجزائريين في جميع مراحل التعليم أكثر من ٣١٧٢ تلميذ مسلم، وفي عام ١٩٠٢م كانت النسبة لا تتجاوز ٤,٢٦% من أبناء الجزائريين المسلمين الذين أتيحت لهم فرص التعليم، ويلاحظ هنا منذ أن استولى المستوطنون على السلطة في نهاية ١٨٧٠م تراجع عدد الأساتذة الذين تم توظيفهم لتعليم أبناء الجزائريين، فقد انخفض العدد من ٢١٦ معلم في سنة ١٨٧٧م إلى ١٩٨ سنة ١٨٨٢م.

وفي عام ١٨٨٦م إنخفض عدد المدرسين إلى ١١٥ ثم تقلص إلى ٨١ معلماً في سنة ١٨٨٩م ووصل إلى ٦٩ معلماً فقط سنة ١٨٩٣م.

٤ . التعليم الحافظ للشخصية الوطنية:

^١الجزائر في التاريخ ص ٦٣٤.

فقد بقي محصوراً في الزوايا الصوفية التي تخرج منها العديد من قادة الثورات، وكان يقوم على تعليم العلوم الدينية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق والتصوف، وتسببت الثورات في هدم الفرنسيين للعديد من الزوايا وتهجير معلميها وطلابها، ومع توقف الثورات عادت الحياة للزوايا وبخاصة بعد عملية التدجين الفرنسية، واستأنفت رسالتها التعليمية، وكان خريجو الزوايا هم الذين يتولون القضاء حتى سنة ١٨٨٠م، وبعد هذا التاريخ صار مقتصرًا على خريجي المدارس الثلاث التي أنشأها الفرنسيون. وصدر قرار بعدم قيام الزوايا بالتدريس إلا برخصة لا تعطى لها إلا بصعوبة وشروط، ومع كل هذه الصعوبات استمرت الزوايا تؤدي رسالتها التعليمية معتمدة على أوقافها الخاصة أو مواردها من زيارات الأخوان والأنصار والزكاة، وكانت زوايا الريف تعمل مثل زوايا: طولقة والهامل، وقصر البخاري، وأولاد الأكراد.

في آخر القرن التاسع عشر رخصت الإدارة لبعض المدرسين بإعطاء الدروس في الفقه، والتوحيد والنحو بمساجد معينة، مع منع المدارس من الاستشهاد بالآيات والأحاديث التي تشير للجهد ولمقاتلة الكفار، وتحول الكثير من المساجد إلى مدارس ابتدائية تعد التلاميذ للدخول للمدارس الثلاث التي لا تملك مدارس ابتدائية تزودها بالتلاميذ واستطاع بعض المعلمين بطرق إيجائية بث أفكار وطنية بعيد عن أعين وآذان السلطات وكان من بين هؤلاء الشيخ حمدان الونيسي قبل هجرته إلى المشرق^١.

٥- محاربة فرنسا للسنوسية:

بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قياداتها الفاعلة خارج الجزائر، كانت لها علاقة بثورات مثل ثورة شريف ورقلة وثورة بوعمامة وعمل الشيخ السنوسي على إيجاد فروع للطريقة في بسكرة وبوسعادة والأغواط، واضطهد الفرنسيون اتباعها مثل محمد شبيرة فنّفوه من بوسعادة إلى تونس وصادروا أملاكه. كما أسست الطريقة فرعاً لها بمستغانم التي ولد بها الشيخ السنوسي وأمام متابعة الفرنسيين

^١ المصدر نفسه، ص: ٦٢٦.

هاجر الشيخ السنوسي إلى ليبيا فاستقر بها سنة ١٨٤٣م فلهق به العديد من الجزائريين وكونوا لهم مركزاً قوياً في الجنوب بليبيا وتمكنت أسرة تكوك من الحفاظ على السنوسية بالجزائر منذ ١٨٥٩م وشاركت في عدة ثورات كثورة فليقة وثورة أولاد سيدي الشيخ ومؤسس زاوية طكوك هو الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن طكوك المعاصر للشيخ السنوسي، سجنه الفرنسيون عدة سنوات ثم أطلقوا سراحه، وفي أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ اعتقل بمستغانم مرة أخرى سنة ١٨٧٦م، وتوفي الشيخ الشارف سنة ١٨٩٠م واستمر الفرنسيون يلاحقون سنوسية تكوك ويضطهدون مقدميها بسبب توجيهها من الزاوية الأم بجغوب التي ساهمت في تأسيس الجامعة الإسلامية، ووجهت زاويتها بالجزائر على مناهضة الاستعمار، وساهمت في إنماء وعي وطني بين الجزائريين في العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر ١.

إن الإمام محمد بن علي السنوسي لم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده وإشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام بمكة وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمستهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيدود عن حرمات الإسلام ويرفع رايات الجهاد. فكان هذا سبباً من الأسباب في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه ٢، وقد بينا جهاد الأمير عبد القادر في الصفحات السابقة. لقد اعتبر الفرنسيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دو فريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان فيقول: إن

^١ الجزائر في التاريخ، ص: ٨٢٦.

^٢ الحركة السنوسية للصلاحي، ص: ٣٨.

السنوسية خطر عام على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر^١.

وأما السياسي الفرنسي المعروف هانوتو فيقول: لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست ببعيدة عن الأضواء التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له اتباع وأنصار معدودون ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في أفريقيا الجنوبية ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الأفريقية فإنه يوجد بالأستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها^٢.

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد^٣. واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها ولم تكتف فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته^٤.

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في أفريقيا وإستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية^٥.

^١ المصدر نفسه، ص: ١١٨.

^٢ الحركة السنوسية للصلاحي، ص: ١١٨.

^٣ المصدر نفسه، ص: ١١٨.

^٤ المصدر نفسه، ص: ١١٨.

^٥ المصدر نفسه، ص: ١١٨.

لقد شعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيح الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود مع تونس خوفاً من دخول ابن السنوسي إليها من ليبيا، وندب ابن السنوسي محمد بن صادق وحمله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري وعاد إلى طرابلس وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء والشيخ أبو خريص الكزة.

وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دو فرييه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨ م - ١٨٦١ م، وعصيان محمد بن تكوك في الظهراء عام ١٨٨١ م. وقد بين المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل ثمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمارها وهو في ميدان الجهاد^١.

وقد ذكر المؤرخ أحمد الدجاني خطاباً أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس التركي "غدامس في ليبيا" وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عدداً من اتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة ١٢٦٨ هـ وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ ومن بين ما جاء فيه: " .. وأما أنا عبد الله حيث قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من

^١ الحركة السنوسية، ص: ٤١.

حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رحمه الله ونفعنا وإياكم به آمين.

وصار عربان وارقلة وقصورها وقبائل الثعامة وقصور تغورن وعربانها والأرباع والخزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة.. وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل.. تلافينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأحبية والحمد لله على ذلك.

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعه من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض اتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م.

لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آبائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١ / ١١ / ١٩٥٤م، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٦- يقظة أبناء الجزائر:

كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين

^١ الحركة السنوسية للصلاحي، ص: ٤١ ، ٤٢.

رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم، وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وفي الحقيقة أن الجنرال شانزي الذي تم تعيينه حاكماً على الجزائر سنة ١٨٧٣م قد حذر السكان الأوروبيين من غضب وثورة أبناء البلد الأصليين إذ طلب منهم أن لا يتوسعوا في احتلال أراضي الجزائريين وقرر أن يعمل على إحتفاظ كل فرد بحقه في الملكية حتى لا يتدمر الناس ويثوروا ويخلقوا الفوضى، لكن الفرنسيين والأوروبيين المقيمين في الجزائر تمكنوا سنة ١٨٨٧م من الحصول على قانون يسمح لهم بتقسيم أراضي الأعراش وبيعها لهم بعد لتحقيق جزئي تقوم به السلطات المحلية.

وفي بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني ويرجع الفضل في هذا إلى التنظيم السياسي إلى رجال النخبة الذين تعلموا في المدارس الفرنسية وأصبحوا يحسون ويشعرون بإنعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين وعدم وجود أي تمثيل سياسي لأبناء البلد الأصليين في المجالس المحلية المنتخبة، ولهذا فإن المناضلين بدأوا في مطلع القرن العشرين ينتهجون سياسة جديدة تركز ليس على مقاومة الغزاة الأجانب بالسلاح فقط ولكن تركز أيضاً على الإتصال والقيام بضغوطات متوالية على حكومة باريس لإنصاف الجزائريين وتمكينهم من الحصول على مقاعد في البرلمان الفرنسي والسماح لهم بالمشاركة في الإنتخابات المحلية والإعتراف بالشخصية الوطنية.

ومنذ ١٨٩٢م بدأت حركة الشباب الجزائري تقوم بالإتصالات مع المسؤولين الفرنسيين وتنقل إليهم هموم المواطن الجزائري وإشغالاته وتقترح عليهم ما ينبغي عمله لانصافه.

وفي واقع الأمر كان يمكن أن يقال بأن قادة حركة الشبان الجزائريين كانوا يقومون بنشاط هائل في الميدان الثقافي وفي المدن الكبرى بالذات لأنهم كانوا يجيدون اللغة الفرنسية

ويحتلّون بالمفكرين الفرنسيين ويدافعون عن مبادئ تتمثل في التقدم والرقى وحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية والاقتصادية.

وفي عام ١٩٠٤م أنشأوا جريدة المشعل وحاولوا من خلالها نشر أفكارهم وإظهار التعلق بالشخصية الجزائرية وذلك مثل حرصهم على التمسك بالقيم الإسلامية والتقاليد الجزائرية ولكن مواقفهم السياسية ومعارضتهم العلنية للسياسة الفرنسية ظهرت بوضوح في عام ١٩٠٨م حين صدر مرسوم بتاريخ ١٧ جويلية ١٩٠٨م ينص على إحصاء الشبان الجزائريين الذين بلغوا سن الثامنة عشر وذلك بقصد تجنيدهم في الجيش الفرنسي وقد أثار هذا القرار غيظ وتذمر الجزائريين المسلمين الذين دأبت السلطات الفرنسية على إحتقارهم وتجريدتهم من حقوقهم السياسية بدعوى أنهم مسلمون ولا يتخلون عن دينهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ثم تأتي نفس السلطات وتفرض عليهم في نفس الوقت أن ينخرطوا في جيش هذه الدولة التي تضطهدهم في بلدهم ويدافعوا عن علمها.

وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٠٨م قدمت حركة الشبان الجزائريين إحتجاجاً على الحكومة الفرنسية على قرارها المتعلق بتجنيد الشباب الجزائري ودعت إلى إلغائه وعدم قبوله إلا إذا حصل الجزائريون على حقوق أساسية تتمثل في تعديل قانون الإنديجينا وإلغاء بعض بنوده وتخفيض العقوبات الواردة فيه ورفع نسبة التمثيل في الانتخابات المحلية والمساواة بين المسلمين والأوروبيين.

ورفض الشعب الجزائري التجنيد الإجباري وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد وأفتى العلماء بعدم جواز الدخول في جيش المحتل والدفاع عن علمهم لأن ذلك يعني تسخير الإسلام لخدمة الدولة المسيحية.

وبعثت حركة الشبان الجزائريين بوفد إلى باريس يوم ١٨ جوان ١٩١٢م وذلك لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية على اتخاذ إجراءات سياسية لصالح السكان المسلمين وطالب وفد الشبان الجزائريين بمنح الجزائريين حقوقاً أساسية مثل:

. إلغاء قانون الإنديجينا.

. المساواة في دفع الضرائب.

. المساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

وحاولت حركة الشبان الجزائريين الإنفتاح على عامة الشعب وطبقاتهم الفقيرة من الفلاحين وغير المتعلمين فحرصت القيادية في حركة الشبان الجزائريين على مطالبة فرنسا بتعليم اللغة العربية في المدارس بالإضافة إلى الفرنسية، وإحترام الأعياد والشعائر الإسلامية، كما أعلنوا عن تأييدهم للعثمانيين "بصفتهم مسلمين" في حربهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا وضد الأوروبيين الذين تأمروا على تركيا في البلقان وهزموها وقد نتج عن تأييدهم لتركيا الإسلامية ودفاعهم عن القيم الإسلامية في الجزائر تأييد شعبي لهذا الموقف سواء في داخل الجزائر أو خارجها حيث هب المسلمون في انحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الإسلام والمسلمين وطالبوا بأن يتصدى المسلمون للغربيين الذين يتعاونون فيما بينهم للقضاء على الإسلام من خلال قضائهم على تركيا.

واستغل أعضاء حركة الشبان الجزائريين التأييد الشعبي لتدعيم مكانتهم في داخل الجزائر وخارجها، فقاموا بحملة قوية في جريدة "الحق" ضد الإدارة الفرنسية في الجزائر وطالبوا في مقالاتهم بإنشاء بنك إسلامي وإعطاء قروض للفلاحين والتجار، وإعطاء ضمانات للفلاحين بأن لا يغادروا أراضيهم وإنشاء مراكز لتدريب وتكوين الجزائريين في المهن الصناعية والاهتمام بالتعليم الذي ينبغي توفيره لأبناء المسلمين.

ولم يتوقفوا عن المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا وإعطاء حق التصويت في الانتخابات لجميع الجزائريين ومنح المسلمين مقاعد في البرلمان الفرنسي لتمثيلهم والدفاع عن مصالحهم فيه^١.

وبالرغم من تعاطف الناس مع حركة الشبان الجزائريين، فإنها لم تعمل على تحريك الشارع الجزائري ولم تكن حركة جماهيرية قادرة على محاربة قوات الاحتلال وإنما كانت عبارة عن حركة تقوم بحملة سياسية تستهدف الضغط على الإدارة الفرنسية لكي تقبل بمبدأ السماح للجزائريين أن يأخذوا مناصب سياسية عليا ويشاركوا في تسيير البلاد، كما يبدو أن خطتهم كانت ترمي إلى خلق تأييد لهم على مستوى النخبة وكسب إحترام المثقفين الفرنسيين.

وفي عام ١٩١٣م تمكن قادة حركة الشبان الجزائريين من التفاهم والتحالف مع شخصية جزائرية مرموقة على الساحة السياسية الفرنسية والمتمثلة في شخصية الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الذي كان بذوره يلقي محاضرات في باريس ويطالب بإدخال إصلاحات سياسية على نظام الحكم في الجزائر.

وسار الأمير خالد على نفس المنهج الذي كانت تتبعه حركة الشبان الجزائريين، فطالب بالتعليم للمسلمين وتمثيلهم في المجالس المحلية وفي البرلمان الفرنسي وإلغاء القوانين الاستثنائية التي كانت تطبق على المسلمين فقط، وطالب كذلك بحماية العمال الجزائريين في فرنسا، إلا أن إنضمام الأمير خالد إلى حركة الشبان قد أثار ضحية كبيرة في أوساط رجال الإدارة الفرنسية بالجزائر حيث كانوا يعتبرونه العدو رقم واحد بالنسبة إليهم لأن الشعارات السياسية التي كان يستعملها الأمير خالد تعتبر بالنسبة إليهم بمثابة تحريض للسكان الجزائريين على الثورة ضد الأوروبيين في الجزائر وتم محاربة جهود حركة الشبان الجزائريين من قبل المستوطنين وقال رئيس بلدية الجزائر ينبغي منع الجزائريين من الحصول

^١ التاريخ السياسي، ص: ٢٠٦.

على أي تمثيل سياسي لأن قبولهم في أية هيئة إنتخابية يعني خلق وتدعيم حركة وطنية من الشبان ضد الاحتلال الفرنسي^١.

٧- الهجرة إلى الخارج بسبب الإضطهاد:

ضيق الفرنسيون في الجزائر على المواطنين المسلمين الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الإختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة مغلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

وتوالت على الجزائريين المحن والمصائب بالمجاعة والضرائب وسلب الحقوق ودوس المقدسات وواجهوا ضغوطاً جهنمية من طرف الحكام الفرنسيين المحليين ونوابهم الذين يخضعون لسلطانهم مباشرة حيث كانوا يتفنون في تعذيب المسلمين عن طريق قانون الإندنجينا أو قانون الأهالي، مثلما يسميه بعض الكتاب على المسلمين وازداد نفوذ الحكام المحليون بعد سنة ١٩٠٢م حيث صاروا هم وكلاء المحاكم القمعية، ولا يحكم فيهم نواب الوالي وبالتالي لا يوجد من يراقبهم أو يتحكم فيهم، فقد كانت عندهم الصلاحيات المطلقة لإذلال الجزائريين وخاصة بعد أن أصبحوا هم القضاة وضباط ينفذون القرارات ورجال أمن يفرضون الضرائب، لقد اضطهدوا السكان المسلمين وطبقوا الإجراءات التعسفية على السكان حتى يخضعوا ويرضخوا لإدارة الاحتلال وابتر الحكام المحليون عامة الشعب وجمعوا أموالاً طائلة من الغرامات على الجزائريين وأصبحوا أثرياء على حساب الضعفاء المقهورين^٢.

ونتيجة لهذا الظلم وهذه التجاوزات الخطيرة، تأزم الوضع في سنة ١٩١٢م وخاصة بعد أن قررت فرنسا في مرسوم صدر يوم ٣١ جانفي ١٩١٢م وفي مرسوم ثاني صدر يوم ٣ فيفري أن تجند الشبان الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٩، ٢٠ سنة وذلك للدفاع

^١ المصدر نفسه، ص: ٢٠٧.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

عن فرنسا بدون أن تمنحهم هذه الأخيرة الحقوق السياسية التي تصحب عادة أداء الواجب العسكري فصدرت إحتجاجات من حركة الشبان الجزائريين الذين اندهشوا من إقدام فرنسا على فرض الخدمة العسكرية بدون إعطاء الحقوق السياسية، كما إجتاحت الجزائر كلها موجة من الاستياء والغضب إلى درجة أن الآف الناس بدأوا يحاولون الهروب إلى خارج الجزائر ويهاجرون إلى أي بلد إسلامي يوفر لهم الحماية من ظلم الفرنسيين المتسلطين عليهم وحسب بعض المؤرخين الفرنسيين فإن أسباب الهجرة إلى الخارج والهروب من جحيم الإستعمار في الجزائر ترجع إلى ما يلي:

- . فرض الخدمة العسكرية على الشبان الجزائريين بدون الحصول على حقوق سياسية.
- . إستيلاء فرنسا بصفة نهائية على الأموال والأراضي التابعة للحبس.
- . خلق عقبات في وجه الجمعيات الثقافية التي أنشئت للمحافظة على الثقافة الإسلامية العربية بالجزائر خاصة وأنه لم يعد للمدارس الحرة مصدر مالي لتسييرها.
- . إحلال قضاة السلام الفرنسيين محل القضاة المسلمين الذين يتبعون الشريعة الإسلامية.
- . إحياء أبناء البلد الأصليين على تسجيل أ راضيهم وإلقاء القبض على الأفراد الذين أحتجوا على هذا الإجراء.
- . مضايقة الأشخاص الذين يطلبون التصريح لهم من طرف المسؤولين الفرنسيين بالتنقل من مكان إلى آخر.
- . إقامة محاكم استثنائية لفرض عقوبات صارمة.
- . تصاعد نسبة الضرائب.
- . بروز أزمات اقتصادية وتدهور حالة الأسواق.
- . إنخفاض مستوى الصناعات اليدوية بسبب مزاحمة الأوروبيين.
- . تعيين اليهود في أماكن حساسة ليقوموا بدور الشرطي السري.
- . القضاء على نشاط المنظمات الثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري.

وعند استفساره من طرف النواب الفرنسيين في الجمعية الوطنية الفرنسية عن أسباب هجرة أبناء البلد الأصليين إلى الخارج أجاب الحاكم العام للجزائر ليتو، أن هذه الهجرة الجماعية جاءت نتيجة لتحريضات من الخارج والتعصب الإسلامي والأزمة الاقتصادية التي تواجهها الجزائر.

وجاءت شهادة الحاكم العام بمثابة أدلة قاطعة على تحيزه إلى جانب الجالية الأوروبية بالجزائر وعدم استعداده لكي يقوم بدور الوسيط بين السكان المسلمين والسكان الفرنسيين مثلما كان ينادي ويصرح وزير المستعمرات الفرنسية آنذاك السيد أدولف ميسيمي وخاصة في سنة ١٩١٥م ومن هنا بدأ رواد الحركة الوطنية الجزائرية يبحثون عن مخرج آخر للأزمة الجزائرية وتنظيم أنفسهم لإبلاغ مطالبهم إلى المسؤولين في باريس لأن مطاردة المستوطنين الفرنسيين للجزائريين في بلادهم وغلق الباب في وجوههم لتوضيح قضيتهم إلى قادة الشعب الفرنسي سيقود في النهاية إلى فرض الأمر الواقع وتقوية النفوذ الاستعماري في البلاد، وبالفعل فقد أخذ قادة حركة الشبان الجزائريين زمام المبادرة يوم ٢٠ جوال ١٩١٢م وتقابلوا مع رئيس الحكومة الفرنسية حيث عرضوا عليه مشروعاً يقضي بقبولهم مبدأ الخدمة العسكرية وفي مقابل ذلك تعترف فرنسا بحقوق الجزائريين وتمثيلهم في البرلمان الفرنسي وكان هذا الاتصال المباشر بين الشبان الجزائريين ورئيس وزراء فرنسا بمثابة تحدي للجالية الأوروبية التي جندت جميع النواب جميع النواب الفرنسيين المناصرين لها لإحباط هذه المساعي الجزائرية وفي اللحظات الحرجة لمناقشة الإصلاحات السياسية بالجزائر عام ١٩١٤م أثبت الأوروبيون سيطرتهم التامة على أعضاء البرلمان الفرنسي حيث حضر ٨ نواب فقط وقاطع جلسة مناقشة الإصلاحات في الجزائر الباقي من جملة ٥٩٧ نائب في البرلمان الفرنسي آنذاك وبهذا الانتصار أثبت قادة الجالية الفرنسية في الجزائر أنهم في مأمن من إمكانية حصول أية مساومة بين الجزائريين وفرنسا

مادامت أصواتهم في البرلمان الفرنسي ضرورة لكل حكومة وأجهزة أعلامهم نشيطة وفي مقدورها حجب الحقيقة عن الرأي العام الفرنسي^١.

ولقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت ٨٢,٧٥١ جزائري في إطار الخدمة العسكرية وإنخراط ٨٧,٥١٩ جزائري آخر من الجيش بصفة دائمة، كما جلبت ٧٨,٠٠٠ عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية وذلك لتعويض العمال الفرنسيين الذين إلتحقوا بالجيش وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن ٢٥,٧١١ قتيل "من المسلمين" و ٧٢,٠٣٥ جريح أي ١٤,٥% من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية والتي هي ١٦,٥%^٢. ومع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحية بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم المخيم على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي شعبي، ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي:

كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

^١ المصدر نفسه، ص: ٢١٢.

^٢ المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخلاصة

١. تدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي، ليبيا وتونس والجزائر وضمها لمصر وإسقاط الداوي عدو فرنسا، مقابل دعم فرنسا له على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية بالجزائر وقد عبر عن استعداداته للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قوامه ٦٢ ألف جندي ولكن بريطانيا عارضت تدخله وتوسعه غرباً وهددت فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي.
٢. كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة ولكنها ادعت أمام الرأي العام أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ ١٧٩٢م، أي سنة إبعاد إسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، وأما أهم الأسباب في الاحتلال فهي: سياسية، وعسكرية، واقتصادية، ودينية.
٣. تأكد نزول الجيش الفرنسي بسيدى فرج يوم ١٤ جوان ١٨٣٠م وعندما أحس الداوي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين وأرسل أمناء سره لمفاوضتهم.
٤. وقع الداوي حسين حاكم الجزائر في اخطاء من أبرزها: إعدامه لقائد جيشه، ثقته في وزير المالية وكانت في غير محلها، عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن، عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين.. الخ
٥. تأكدت جشاعة الفرنسيين وثافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى دوائر قصر الداوي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا واختلس ضباط الحملة الفرنسية لأنفسهم ما قيمة ٥٠ مليون فرنك فرنسي وأكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية.

٦. قرر قادة الجيش الفرنسي إنتهاج سياسة احتلال الجزائر وتجريد الجزائريين من أراضيهم والسيطرة على ثروات البلاد وممتلكات المواطنين وأموالهم وتسخير الجزائريين كخدم وعبيد للمحتلين، وكانت الفوضى غامرة والدمار شامل وممارسة العنف على أشده.

٧. صادر المحتلون الفرنسيون الأوقاف العامة بمدينة الجزائر وعدد غير قليل من المدن الأخرى التي تم السيطرة عليها، لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري حرصوا على كسب ثروات طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية، وتم تحويل بعض المساجد إلى كنائس وقد رسمت السلطات الفرنسية خطة ممنهجة للقضاء على الديانة الإسلامية.

٨. كان الكثير من الدول لا ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة ١٩٣٢م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك فبينت فرنسا بأنها غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر وأنها تفعل ما تريد.

٤٣. إنطلقت المقاومة الجزائرية واتبعت فرنسا وكان من أشهر الثورات، ثورة سيدي السعدي وابن أبي مرزاق وابن زعموم.

٩. وأما الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال، ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية والمصروفات الاستثنائية للاحتلال وطالبوا من الحكومة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر.

١٠. استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر، فحول هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

١١. بدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محي الدين، وكان يتمتع بمكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه.

١٢. تولى الإمارة وقيادة الجهاد بعد المبايعة الأمير عبد القادر بن محي الدين الحسني الهاشمي صباح الإثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م.

١٣. جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة على العصر الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ عندما رشحه والده للولاية عام ١٨٣٢م، كان أمامه نماذج من حكام المسلمين، سلطان المغرب، وسلطان آل عثمان، وشاه إيران، وملك أفغانستان، ثم ولاية من أمثال باي تونس وباشا مصر، وإمام اليمن وكان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداوي حسين المخلوع، ولكن الأمير رفض أن يكون نموذجاً أحد هؤلاء جميعاً وإنما اختار نموذجاً جديداً يؤصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

١٤. ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأُم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأنني قد تحملت ما يشغلني عنك وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية.

١٥. بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسؤولية الحكم وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة وتشكيل الكوادر الحكومية فعين الأكفاء من الرجال واعتمد الفقه الإسلامي أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

١٦. بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فأتجه إلى إنشاء جيش حديث واهتم بتدريبه الفنون العسكرية وزوده بالأسلحة المتقدمة.

١٧. عمل الأمير على بناء مؤسسات الدولة، من حكومة مركزية وتقسيم البلاد إلى ثمان ولايات، ووضع معايير لتعيين موظفي الدولة ومناصبهم واهتم بالسلطة القضائية، وأقام مجلس شورى، وأنشأ نظاماً اقتصادياً ومالياً عاماً، ودعم حركة التجارة، ونشط الدبلوماسية، وأسس جهاز مخابرات واهتم بنشر الثقافة والحضارة الإسلامية، واستطاع الاستفادة من خام الحديد والنحاس وعمل على تشجيع الصناعة، وأنشأ المشافي.

١٨. كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة.

١٩. وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب وكانت قبيلة فليطة تشتمل على بطون وعشائر وكان من عاداتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روعت من قبائل مجاورة لها وبسطت أموالها وعندما بويغ الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيمة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليطة وما جاورها من القبائل.

٢٠. توالى الضربات المتتالية الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حذب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي واضطر الفرنسيون للمعاهدة مع الأمير عبد القادر.

٢١. نقضت فرنسا عهدها وأعلن الأمير الحرب من جديد، وتوالت المعارك وانهمز الفرنسيون في الكثير منها.

٢٢. استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرباً من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر.

٢٣. جعل ليون روش من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كلف بها من قبل المخابرات الفرنسية وأوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة.

٢٤. استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران وحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة بني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتمح الجيش جنودهما واستولى على مواشيها وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر، فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته.

٢٥. تفاوض الأمير عبد القادر مع الجنرال بوحو وأرسل مبعوثاً من طرفه هو السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠ / ٥ / ١٨٣٧م.

٢٦. قام الأمير عبد القادر بمحاربة من شقوا عصا الطاعة مثل محمد عبد الله البغدادي، وتصدى للتمرد الذي قاده محمد التيجاني.

٢٧. كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء

المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة في نوازل متعددة منها التعامل مع حركات التمرد.

٢٨. اهتم الأمير ببناء مصانع عديدة أنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد أخذه بالعمل وهي تنتج قناطر من البارود يوميا.

٢٩. أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي وأنه في طريقه لإنشاء إمبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر.

٣٠. خرق الجنرال بيجو الهدنة واندلعت الحرب من جديد مع تعزيزات وامدادات ضخمة من فرنسا لصالح المحتلين.

٣١. بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات، وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له ويطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله.

٣٢. في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماع دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادة العسكرية بالزحف إلى معسكر العدو وحصونه.

٣٣. طبق بوجو خطة تدمير الريف وحرقه، وكل ما فيه من حقول وحبوب في مواسم النضج، وقام بقطع الأشجار والثمار ومعاقبة كل قبيلة مقاومة وذلك بتجريدها من

أرضها وتمليكها للكولون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان.

٣٤. كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع في حزة شمس أفريقيا المحرقة في مكان ندرة المياه وإنها في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

٣٥. أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وبدأ ميزان القوى لصالح فرنسا على حساب الأمير.

٣٦. ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا من محو للقرى وإبادة جماعية وهتك للأعراض.. الخ

٣٧. كان موقف الدولة العربية مما يجري في الجزائر سيئاً بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة.

٣٨. أقام الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة ليجنب المدن الرئيسية من تدميرها بواسطة القنابل والمدفعية الفرنسية، وتعرضت هذه المدينة للاعتداء بيد القوات الفرنسية ورد الأمير مسرعاً على من هاجم المدينة المتنقلة وأعاد بناءها من جديد.

٣٩. دخل سلطان المغرب في معاهدة مع فرنسا وأصبح يحرض القبائل على التمرد ويتدخل في شؤون دولة الأمير ويطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين، لقد رضخ سلطان المغرب لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

٤٠. على الرغم من عناده ووسائله البربرية، فإن ييجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، وكان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد

بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد اشعال نار الحرب التي لم يكن يريدتها وإنما فرضت عليه فرضاً.

٤١. نقل الأمير المدينة المتنقلة إلى المغرب الأقصى، وقرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر.

٤٢. انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها، أو تعود له طوعاً.

٤٣. لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني بزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم ولقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب.

٤٤. استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر والاستفادة من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر في نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة التهيب والترغيب.

٤٥. بدأ واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشد ضراوة وقوة، بعد أن تم له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل، ودُمرت الزمالة ولم يبق من أقسامها إلا الدائرة وأحرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين.

٤٦. كان السلطان عبد الرحمن حاكم المغرب مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائع عن الهدى، وقد جاء في إحدى الرسائل: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى.

٤٧. بالغ السلطان عبد الرحمن في عدائه للأمير إلى الحد الذي جعله يحرض عليه زعيم الأحرار في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سنان وغيرهم ولم يكتف بذلك، بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وأمره بالاستيلاء على مقر الأمير.
٤٨. وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين بل شُيّد بينه وبينهم سد من صدور المسلمين، شَيّده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مرأى مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الأخوة.
٤٩. رأى الأمير حان وقت وقف الحرب، كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة لأنها بيد الشعب، وليست بيده، ولن تقف إلا بزوال الاحتلال.
٥٠. كان رأي الأمير طلب الأمان ليسمح له الهجرة إلى ديار المسلمين الدولة العثمانية في استنبول أو بلاد الشام وليس الاستسلام والطريق إلى ذلك المفاوضات.
٥١. بدأت المفاوضات ووافقت فرنسا على شروط الأمير في طلب الأمان والسماح له بالهجرة، وعدم الغدر بجنود الأمير.
٥٢. انتشر خبر رحيل الأمير في أرجاء الوطن كالنار في الهشيم، ووقع هذا الحدث المفاجيء كالصاعقة على رؤوس السكان فأخذت النساء البكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة، والنفوس كالنار تحت الرماد.
٥٣. نقضت فرنسا عهداً واعتقلت الأمير وأودعته السجون وعرضت عليه القصور والأراضي الشاسعة فرفض وقال: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه، ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقعه إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية.
٥٤. كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري، فرييس الحكومة فيزو الذي عين الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير فقد كتب في مذكراته: أنه لا يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر.

٥٥. بعد ما تولى الأمبراطور الثالث الحكم في فرنسا عمل على إخراج الأمير من سجنه وكان ذلك عام ١٨٥٢م وزارة في المعتقل قبل إطلاق سراحه.

٥٦. غادر الأمير عبد القادر فرنسا متوجهاً إلى الاستانة ووصل إسطنبول ورست الباخرة هناك أول عام ١٨٥٣م وكان أول عمل قام به الأمير زيارة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبعد ذلك زار جامع أيا صوفيا وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت له ولمن معه قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين وعرض عليه عدة مدن ليختار أحداها، فأختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها، وجمال الطبيعة فيها وعدوبة مياهها ومناخها اللطيف.

٥٧. كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكن اللائق به.

٥٨. كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي وكان دؤوباً على عمل الخير والصالح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

٥٩. بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه.

٦٠. من أشهر كتبه المقرض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد، وكتاب ذكرى العاقل وتنبيه الفاضل.

٦١. نسب إليه كتاب المواقف بعد وفاته بثمانية وعشرين سنة ولكنه باطل من حيث الحقيقة وأمام الدليل العقلي والحجة التوثيقية العلمية ووضعت فيه أفكار وعقائد هو منها براء، كما أنه نسب إليه كتاب مذكرات في السجن عام ١٨٥١م وهو كذلك باطل من حيث الإثبات والحجة في النسبة إليه.

٦٢. تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير مما تأثر الشباب بسيرته الجهادية والعلمية وبأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر عبد الرزاق البيطار، الطاهر الجزائري، عبد الغني بن طالب.

٦٣. شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد البيطار وآخرون كثر بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام.

٦٤. أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير ونسبوا إليه ما لم يعتقد من غلاة الصوفية وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير.

٦٥. كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطلق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

٦٦. كان للأمير موقفاً عظيماً للدفاع عن نصارى أهل الشام لما تعرضوا للأعتداء، فدافع عنهم بشهامة ورجولة ومنع المعتدين بالقوة وساهم في دفع أي مبرر لدخول جيوش الدول الأوروبية لحماية النصارى.

٦٧. اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وقد روج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة الأمير" ولم ينقل بأمانة الكثير

مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع.

٦٨. لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير أكاذيب لا أصل لها ومن نسج خيالهم.

٦٩. كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل و ينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م أصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعدة الناس ومع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خف نشاطه وجهده وعمت الإشاعات عن حالته الصحية وانتقل إلى رحمة الله يوم ٢٦ ماي ١٨٨٣م.

٧٠. وبعد تحرر الجزائر لم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها وزعمائها رفات الأمير عبد القادر، فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاتة من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الثورة السورية وتم الاتفاق.

٧١. في احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء، بعد أن أصبحت دار سلام ليُواري في التراب الذي رَوّته دماء جروحه وتضحيات اخوانه وجنوده وأبناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

٧٢. إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها، لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل، لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء الغربي، كان له صدى كبير حتى في أمريكا، فقد أسست مدينة صغيرة

بولاية ايوا من طرف ثلاثة رواد أمريكيين في عام ١٨٤٦م أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير.

٧٣. لم تتوقف الثورات بعد مغادرة الأمير للبلاد وكان من أشهر هذه الثورات ثورة الزعاطشة وبوغلة والشريف محمد بن عبد الله بوزقلة، وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة والصادق بلحاج، ومحمد بوختناش الباركتي، وأولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة، محمد بن تومي بوشوشة وثورات المقراني والشيخ الحداد وبومرزاق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة أبوعمامة.

٧٤. سيطر الحكم العسكري على الجزائر فترة طويلة من الزمن وبعد وقوع الإمبراطور نابليون الثالث في الأسر لدى الألمان مالت الكفة لصالح المستوطنين الفرنسيين على حساب العسكر وبدأت المراسيم التي تعزز سلطة المعمرين في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م.

٧٥. تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الفرنسيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء وأصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

٧٦. ابتداء من عام ١٨٨١م جاء المستوطنون الفرنسيون بقانون جديد يسمى "قانون الأندوجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسح الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للفرنسيين وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م.

٧٧. عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين وتأسيس كنيسة جزائرية، كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنة ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كاتدرائية الجزائر وأعطاه اسم كنيسة سان فيليب.

٧٨. يعتبر الكاردينال لافيغري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير وطبعها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقيا.

٧٩. إن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططات الكاردينال لافيغري وجعلها غطاء لا أثر لها في حياة الناس وإن الإنسان ليرى عمق محبة الأمازيغ والجزائريين للإسلام من خلال صمودهم وثباتهم العظيم وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الضهاجي الأمازيغي عندما قال:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عني أصله

أوقال مات فقد كذب

أو رام إدماجاً له

رام المحال من الطلب

٨٠. ومن العناصر التي استعان بها الاستعمار الفرنسي المستشرقون من أمثال: شيربون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، ودبنوكس، ودي سلان.

٨١. عمل الاحتلال الفرنسي على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة واستمر الفرنسيون في تفريغ القضاء الإسلامي من صلاحياته وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق وهوت قيمة القاضي الإسلامي.

٨٢. حارب الاحتلال الفرنسي التعليم الإسلامي الذي كان منتشرًا في المدن والأرياف والمساجد والذي كان يمول من الأوقاف التي تم مصادرتها.

٨٣. بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قيادتها الفاعلة خارج الجزائر، وكانت داعمة للثورات بالجزائر.

٨٤. إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعتة من ذلك وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م.

٨٥. لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آباءه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١ / ١١ / ١٩٥٤م وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٨٦. كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا ذريعاً لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

٨٧. في بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني وطالبوا بإلغاء قانون الإندوجينا والمساواة في دفع الضرائب، والمساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

٨٨. ضيق الاحتلال الفرنسي في الجزائر الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة معلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

٨٩. مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات السياسية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحية بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم الواقع على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي جماهيري ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال وتوجت تلك الجهود والأعمال بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي الفرنسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سوف نعرض تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي "كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي".

٩٠. إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات بطولية مشرقة من تاريخ الشعب الجزائري الحبيب العزيز لتكون نموذجاً للنضال والكفاح والجهاد تستمد منه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر. وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذه الدراسة وأن يبارك فيها وأن يجعلها من الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن ينفع بها شعوباً وأممًا تتعرض لحقوقها للإنتهاكات وتسعى لنيل حريتها وكرامتها وإنسانيتها من وحوش البشر إن ربي على كل شيء قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

3	المقدمة.
16	المبحث الأول: الاحتلال الفرنسي
19	. مشروع محمد علي باشا ملك مصر.
20	. وصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لمحمد علي.
21	أولاً: الأسباب الحقيقية للاحتلال الفرنسي للجزائر.
29	ثانياً: كيف تم احتلال الجزائر.
30	ثالثاً: الأساطيل الفرنسية.
58	رابعاً: موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي.
64	المبحث الثاني: ظهور المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي.
66	أولاً: بداية المقاومة الشعبية.
٦٧	١ . ثورة فرنسا.
٦٩	٢ . هزيمة كلوزيل في البليدة والمدية.
٧٠	٣ . تجنيد الجزائريين.
٧١	٤ . توطنين أوروبيين.
٧٣	٥ . لجنة برلمانية فرنسية للتحقيق بالجزائر.
٧٤	٦ . أحكام السيطرة على مدينتي الجزائر.
٧٤	٧ . حكام تونس يدعمون الاحتلال.

- ٧٥ ٨ . ثورة سيدي السعدي وابن أبي مزراق وان زعموم.
- ٨٠ ٩ . أصوات فرنسية ضد الاحتلال.
- ٨١ ١٠ . ظهور الشريف محيي الدين الحسن.
- ٨٦ ١١ . الأسباب التي ساهمت في إلتفاف الناس حول محي الدين.
- ٨٨ . منهج الشيخ عبد القادر في توضيح العقيدة.
- ٨٩ • . تعريفه للإيمان.
- ٨٩ • . حرصه على عدم الخروج.
- ٨٩ • . الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله.
- ٨٩ • . شروط قبول العبادة.
- ٩٠ • . القضاء والقدر.
- ٩٠ • . أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة.
- ٩٠ • . ذم البدع والتحذير منها.
- ٩١ • . مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر.
- ٩١ • . تعريف التصوف.
- ٩٣ • . إصلاح التصوف.
- ٩٣ • . تنقية التصوف من طراً عليه.
- ٩٤ • . الحملة على المتطرفين من الصوفية.
- ٩٤ • . محاولة التنسيق بين الطرق الصوفية.
- ٩٦ • . الإسهام في إعداد أبناء النازحين.
- ٩٧ • . المشاركة في ميادين سياسية.
- ٩٨ • . وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

١٠٠	المبحث الثالث: الأمير عبد القادر الجزائري.
١٠٠	أولاً: نسبه ونشأته.
١٠٠	١. نسبه.
١٠١	٢. مولده ونشأته.
١٠٣	٣. الأوصاف المعنوية.
١٠٤	٤. الحج.
١٠٦	٥. رحلة الأمير عبد القادر مع والده الحج.
١٠٧	٦. نداؤه إلى سلطان المغرب ليأخذ بزمام المقاومة.
١٠٨	ثانياً: بيعته.
١١٠	١. مكان التوقيع على نص المبايعة.
١١١	٢. خطبة الأمير عبد القادر للجموع ونص البيعة.
١١٣	٣. رسالة من الأمير عبد القادر إلى سائر القبائل في أنحاء البلاد.
١١٤	٤. تجربة جديدة في الحكم.
١١٧	٥. مفهوم البيعة.
١١٨	٦. وضعية البلاد عند مبايعة الأمير عبد القادر.
١٢٠	ثالثاً: بناء الدولة.
١٢٠	١. تأسيس الجيش النظامي.
١٢٧	٢. الحكومة المركزية.
١٢٨	٣. تقسيم البلاد إلى ثماني ولايات.
١٣١	٤. معايير تعيين موظفي الدولة ومناصبهم.
١٣٣	٥. السلطة القضائية.
١٣٤	٦. مجلس الشورى.

١٣٥	٧. الاقتصاد والمالية العامة.
١٣٦	٨. التجارة.
١٣٧	٩. الدبلوماسية.
١٣٨	١٠. المخابرات.
١٣٩	١١. الثقافة.
١٤٠	١٢. الصناعة.
١٤٣	١٣. إنشاء المشافي.
١٤٣	رابعاً: معاركه ومعاهداته.
١٤٣	١. إخضاع القبائل.
١٤٤	٢. الهجوم على وهران.
١٤٥	٣. الإصلاح بين القبائل.
١٤٦	٤. وفاة والده واستمرار المعارك.
١٥٠	٥. معاهدة ديمشال.
١٥٦	٦. اعتراف سلطان مراكش وبسط الأمير لنفوذ.
١٥٩	٧. استبدال الجنرال ديمشال.
١٦١	٨. محاربة الأمير للشعوذة والدجل.
١٦٣	٩. الحكومة الفرنسية تسعى لتعديل بنود المعاهدة.
١٦٥	١٠. حاكم وهران تريزيل ينقض معاهدة ديمشال.
١٦٧	١١. إعلان الحرب.
١٧٩	١٢. مقاومة أحمد باي بنواحي قسنطينة.
١٨٢	١٣. اختراق المخابرات الفرنسية لدولة عبد القادر.
١٨٣	أ. قصة دخول ليون روش الجزائر.

- ب . مطية الجوسسة. ١٨٤
- ج . انكشاف أمر الجاسوس. ١٨٧
- ١٤ . معاهدة تافنة. ١٨٩
- خامساً: استئناف الحرب.** ٢٠٣
- ١ . اجتماع الأمير مع أعيان الدولة. ٢٠٤
- ٢ . معارضة بعض القبائل للحرب. ٢٠٥
- ٣ . رسائل الأمير إلى ملك فرنسا وقادتها. ٢٠٧
- ٤ . نداء للشعب والأوامر إلى خلفاء الأمير. ٢٠٨
- ٥ . الزحف إلى معسكرات العدو وحصونه. ٢٠٩
- أ . تحرك المارشال فاليه الحاكم العام. ٢١٠
- ب . الجنرال بوجو يطبق خطة تدمير الريف وحرقه. ٢١٣
- ج . الإمدادات من فرنسا واستمرار بوجو في التدمير. ٢١٤
- ٦ . خطة بوجو الجديدة الزحف الشامل. ٢١٧
- أ . سقوط مدينة تلمسان. ٢٢٠
- ب . مطاردة القبائل. ٢٢٠
- ٧ . فضاء الجيش الفرنسي. ٢٢١
- ٨ . شهادات ضباط فرنسيين على صلابة الشعب الجزائري. ٢٢٣
- ٩ . رسائل الأمير إلى الحكومات العربية والأجنبية. ٢٢٥
- سادساً: عاصمة الأمير "مدينة المتقلة".** ٢٢٦
- ١ . معركة حصن داکمت. ٢٣١
- ٢ . هزيمة المارشال بيجو في مضيق عقبة خده. ٢٣٢
- ٣ . بر الأمير بوالدته. ٢٣٣

- ٢٣٤ ٤. زيارات ميدانية وتوجيهات قيادية.
- ٢٣٨ ٥. الهجوم على المدينة المتنقلة.
- ٢٤٠ ٦. الرد السريع على من هاجم المدينة المتنقلة.
- ٢٤٣ ٧. إعادة بناء المدينة المتنقلة.
- ٢٤٤ ٨. الأمير عبد القادر وسلطان المغرب.
- ٢٤٦ أ. معركة ايزلي "وعواقبها".
- ٢٤٨ ب. استمرار الحرب.
- ٢٥٠ ج. مساندة أبطال المغرب للأمير عبد القادر.
٩. الأمير عبد القادر ينطلق من المغرب وينجد خليفته ابن سالم في زواوة. ٢٥٢
- ٢٥٥ ١٠. موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك.
- ٢٥٦ ١١. سلطان المغرب يشن الحرب على الأمير عبد القادر.
- ٢٥٩ سابعاً: الحصار الشديد واتفاقية مشروطة.
- ٢٦٠ ١. القرار الخطير.
- ٢٦٣ ٢. طرق باب الاستئمان الزمني لأجل الهجرة.
- ٢٥٦ ٣. الرحيل.
- ٢٦٨ ٤. نقض فرنسا للعهد واعتقالها للأمير.
- ٢٧١ أ. شخصيات فرنسية وإنجليزية تدافع عن الأمير.
- ٢٧٢ ب. حياته في السجن.
- ٢٧٣ ٥. إطلاق سراح الأمير عبد القادر.
- ٢٧٥ ٦. مغادرة فرنسا إلى الدولة العثمانية.
- ٢٨٠ ثامناً: الأمير عبد القادر في دمشق.
- ٢٨١ ١. العبادة والحلقات العلمية وكتبه وفكره.

- أ. مؤلفاته وكتبه. ٢٨٤
- ب. كتاب المقرض الحاد. ٢٨٤
- ج. كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. ٢٨٨
- د. كتاب المواقف بطلان نسبته للأمير. ٢٩١
- هـ. هل كتب الأمير مذكرات في السجن عام ١٨٥١م. ٢٩٤
- و. كتاب حياة عبد القادر ردود على أباطيله. ٢٩٤
- ز. كتاب تحفة الزائر. ٣٠٤
٢. تلاميذ الأمير عبد القادر. ٣٠٧
- د. شهادة العلماء في الأمير وصلته بزعماء الإصلاح. ٣٠٨
٣. علاقة الأمير بكتب ابن عربي وأفكاره. ٣١٠
٤. علاقة الأمير بالدولة العثمانية. ٣٣١
٥. موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق. ٣٣٧
- أ. وضع الطوائف في بلاد الشام. ٣٣٧
- ب. لم يبق الأمير مكتوف الأيدي. ٣٣٩
- ج. وقوف الأمير ضد مخططات فرنسا في بلاد الشام. ٣٤٠
- س. الملوك والحكام يشكرون الأمير على فعله الجميل. ٣٤٢
٦. علاقة المجاهد شامل الداغستاني بالأمير عبد القادر. ٣٤٣
٧. الأمير عبد القادر والماسونية. ٣٤٩
٨. من شعر الأمير عبد القادر في زوجته. ٣٥٨
٩. أيامه الأخيرة ووفاته. ٣٦٢
- أ. مرض الأمير ووفاته. ٣٦٣
- ب. رثاء في الأمير عبد القادر. ٣٦٤

- جـ. نقل رفات الأمير إلى الجزائر عام ١٩٦٦ م. ٣٦٧
- حـ. كلمة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة التي ألقاها عام ١٩٩٩ م ٣٧٠
- بمناسبة إحياء الذكرى ١٦٧ لمبايعة الأمير عبد القادر. ٣٨٠
- سـ. إطلاق اسم الأمير عبد القادر على مدينة بالولايات المتحدة. ٣٨٣
- تاسعاً: ثورات الشعب الجزائري بعد الأمير عبد القادر.
١. ثورة الزعاطشة. ٣٨٣
٢. ثورة بوبغلة ولالة فاطمة نسومر. ٣٨٤
٣. ثورة الشريف محمد بن عبد الله بوزقلة. ٣٨٥
٤. ثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة. ٣٨٦
٥. أسر لالة فاطمة وكفاح النساء. ٣٨٧
٦. ثورة الصادق بلحاج. ٣٨٨
٧. ثورة محمد بوختناش الباركتي ٣٨٩
٨. ثورة أولاد سيدي الشيخ. ٣٩٠
٩. ثورة بوشوشة: محمد بن تومي بوشوشة. ٣٩١
١٠. ثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق. ٣٩٢
١١. ثورة واحة العمري. ٣٩٥
١٢. انتفاضة الأوراس. ٣٩٥
١٣. ثورة أبوعمامة. ٣٩٦
- عاشراً: الحكم العسكري الفرنسي بالجزائر. ٣٩٩
- الحادي عشر: لويس نابليون الثالث. ٤٠٣
١. معركة سيدان وأسر الإمبراطور. ٤٠٧
٢. إلغاء المكاتب العربية. ٤٠٨

٤١٠	٣. الحكم المدني في العصر الجمهوري.
٤١٣	٤. سياسة المستوطنين بعد سنة ١٨٧٠م.
٤١٨	٥. قانون الأنديجينا.
٤١٩	٦. استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر.
٤٢٠	٧. الأقلية الأوروبية في الجزائر.
٤٢٢	الثاني عشر: التبشير بالنصرانية في الجزائر.
٤٢٣	١. لافيجري ذروة التبشير في الجزائر.
٤٢٧	٢. فلسفة التبشير لدى لافيجري.
٤٣٢	٣. الخلاف بين لافيجري وبين الجنرال ماكهمون.
٤٣٤	٤. لقاء لافيجري مع الإمبراطور.
٤٣٧	٥. تأسيس فرقة الآباء البيض والأخوات البيض.
٤٣٩	٦. التنصير في منطقة القبائل.
٤٤٤	٧. التنصير من أسباب ثورة المقراني.
٤٤٦	٨. الأميرال دوفيدون داعم للتبشير.
٤٤٧	٩. دوافع اهتمام لافيجري بمنطقة القبائل.
٤٥٤	١٠. المستشرقون والاستعمار.
٤٥٧	الثالث عشر: السيطرة على القضاء والإمامة.
٤٥٧	١. القضاء.
٤٥٩	٢. الإمامة.
٤٦١	٣. محاربة التعليم الإسلامي.
٤٦٤	٤. التعليم الحافظ للشخصية الوطنية.
٤٦٥	٥. محاربة فرنسا للسنوسية.

٤٦٩	٦. يقظة أبناء الجزائر.
٤٧٣	٧. الهجرة إلى الخارج بسبب الاضطهاد.
٤٧٨	الخلاصة.
٤٩٤	فهرس الكتاب.
٥٠٤	كتب صدرت للمؤلف

كتب صدرت للمؤلف:

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الإزدهار وتداعيات الإنحيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان بنو.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. فتنة مقتل عثمان.
٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.
٣٠. دولة المرابطين.
٣١. دولة الموحدين.
٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
٣٣. الدولة الفاطمية.
٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
٣٦. إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
٣٩. المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.
٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

- ٤١ . الشورى في الإسلام.
- ٤٢ . الإيمان بالله جل جلاله.
- ٤٣ . الإيمان باليوم الآخر.
- ٤٤ . الإيمان بالقدر.
- ٤٥ . الإيمان بالرسل والرسالات.
- ٤٦ . الإيمان بالملائكة.
- ٤٧ . الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
- ٤٨ . السلطان محمد الفاتح.
- ٤٩ . المعجزة الخالدة.
- ٥٠ . الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.
- ٥١ . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
- ٥٢ . التداول على السلطة التنفيذية.
- ٥٣ . الشورى فريضة إسلامية.
- ٥٤ . الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
- ٥٥ . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
- ٥٦ . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
- ٥٧ . العدل في التصور الإسلامي.
- ٥٨ . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
- ٥٩ . الأمير عبد القادر الجزائري.